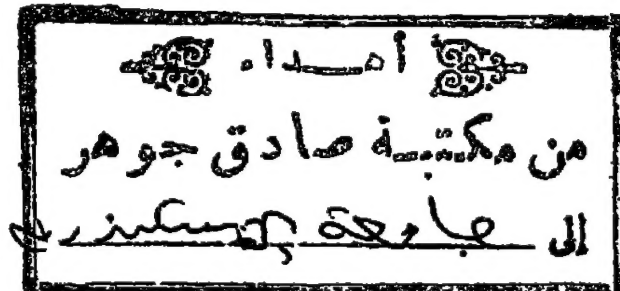


الألف كتاب

(٦٩)

الأعلام والمجيش

٠١٤٢٧



بإشراف إدارة اليقظة العامة
بوزارة التربية والتعليم

جوزيف جاسترو

جوزيف جاسترو — مؤلف هذا الكتاب — من النفسيين الممتازين الذين ظفروا بتقدير الهيئات العلمية النفسية ، في أمريكا . وقد ولد في مدينة وارسو ببولندا في ٣٠ يناير من عام ١٨٦٣ ، أى أنه كان أصغر من فرويد بنحو سبع سنوات ، وتلقى تعليمه في أمريكا ، فظفر حتى عام ١٨٨٦ بدرجة الدكتوراه من جامعتين من أهم جامعاتها ، وعين أستاذاً لعلم النفس بجامعة « هوبكنز » ، فشغل هذا المنصب نحو أربعين عاماً . وقد ألف عدة كتب في علم النفس ، تناول فيها تحت الشعور ، وصفات الانسان ، وخلقته ، والعقلية ، والتفكير .

وتوفي جوزيف جاسترو في ١٨ يناير عام ١٩٤٤ ، فكان كتابه « الأحلام والجنس ونظرياتها عند فرويد » من أهم الكتب التى صنفها . وقد صدر في مايو عام ١٩٣٢ ، فكان عنوانه الأول « البيت الذى بناه فرويد » .

« المترجم »

الألف كتاب

(٦٩)

الأعلام والمجس

نظرياتهما عند فرويد

لجوزيف لاسرو

الجزء الثاني

ترجمة

فوزى اشتوى

راجعه

أمين مرسي قنديل

«سيجموند فرويد» أبو التحليل
النفسى ، وهو من رجال عصره
المظلم حقاً . وهذا الكتاب يوضح
للقارئ الهادى النظريات الأساسية
لفرويد وكيفية تطبيقها فى حياتنا اليومية

الناشر: دار الكتاب المصرى

٨٢ شارع القصر العيني ت ٢٦٥٨٨

هذه برجه کتب :

FREUD

His Dreams & Sex Theories

(The House That Freud Built)

Joseph Jastrow

مقدمة المؤلف

كان الجزء الأول من هذا الكتاب تمهيداً لنقد نظام شاخ هدفه فهم النفس البشرية من حيث طبيعتها وتصرفاتها ، فعرضنا أجزاء البناء وتصميمه وتكوين البيت كما أقامه فرويد ، ولا ريب أن فرويد قد ظفر بمركز مضمون بين عظماء المفكرين في طبائع النفس البشرية ممن تجاوزت أطماعهم أو معتقداتهم ما أدوه من أعمال . ولعل هذا المركز يجمع بين التكريم والثناء لما لقيه من لوم وتقريع مما يحل عادة بالابطال في أى عمل . فان كانت مجموعته التى ينضم اليها فى مجال المجد والشهرة هى جماعة الفلاسفة ، فهو أول من انضم اليها عن طريق فتح عهد جديد فى علم النفس .

وقد حاولت أن أقدم نظامه من وجهة موضوعية ، متوخياً الحياء ما أمكن . ولكنى تجاوزت عن هذه السياسة لأوفر الراحة للقارىء ، فقدمت أيضاً الفكرة الانتقادية لأتيح له تقدير النص ، والتعقيب عليه فى نظرة واحدة . وهدفى من البداية انتقادى . وكتبت وأنا متأكد بأن أزمة عن مصير الفرويدية قريبة الحدوث . والآن فإنى أنتقل إلى موضوع النقد نفسه ، وبما أن التحليل النفسى قد عرض كعلم ، فمن الواجبات الأولى أن نختبر مدى تحمله للمقاييس العلمية .

وفي مثل هذا البناء المعقد يتساوى التنفيذ مع التصميم، فكلاهما جوهرى ضرورى . وأية قضية تكسب أو تخسر بما يؤيدها، وكذلك بطريقة عرض مبادئها، والتحليل النفسى فن، والتحليل هو من يمارسه . والنقد يبدأ بعرض المبدأ، إلى البرهان، إلى التطبيق . فألى أين يتجه التحليل النفسى ؟ ذلك هو السؤال الختامى . وعندما يواجه الناقد فرويد وكل مؤلفاته، فإنه يجابه مركزاً خاصاً إذ يجد فى نفسه ميلاً إلى موافقة جزئية متحفظة حيال المبدأ، وعدم ثقة متغلغل حيال التطبيق والتنفيذ . فهو لا يستطيع مدح عظمة وهم ضخيم، وهو فى الوقت نفسه غير قادر على الحكم عليه حكماً قاضياً . أن هو قد رما فى المغامرة من محاسن فى معناها ومبناها . وكلا الموقفين يحتاج إلى صراحة وإخلاص . ويتطلب أقيسة مميّزة : وأحكاماً حاسمة . والحكم الحاسم عند جمهور الناقدين : أما الآن فهو بين يدي القارىء . . .

الباب السادس

التحليل النفسى والعلم المنطق كرقب

أدعو القارىء إلى فحص منطقى للبيت الذى أقامه فرويد بحماسة صحبته طول حياته ، وأظهر فيه قدرة ابتكارية نادرة ، وبراعة ممتازة فى التطبيق ؛ وهما صفتان رائعتان تعاونا على إثارة اهتمام الناس اهتماماً عظيماً بما قدمه من بحوث ، ولكنهما كانتا ضعيفتى الأثر فى الحكم الأخير الفاصل ، وهو مدى قدرة متانة بنية الصرح على اجتياز الاختبار الهندسى بنجاح . ولن تكون رحلتنا حبا فى تمضية وقت فراغ من يوم عطلة ، بل هى مهمة دقيقة ، ولاغنى عنها ، أن أردنا تقدير مجموعة الآراء الشاملة التى أثر بها فرويد تأثيراً عميقاً فى عالم العقل الذى نعيش فيه .

ولولا حقائق ثابتة كقوانين الجاذبية ، وأنواع الضغط ، والأثقال ، والصفات الثابتة للخشب والآجر والحجارة والفولاذ وتأثير الرياح والجو ، لولا هذه الحقائق لكان فن العمارة شيئاً

عرضياً . ولهو أ يتسلى به الناس . وتواجه المنشآت الذهنية مثل هذه الشروط القياسية من حيث قوانين المنطق سواء أ كانت مكتوبة أم غير مكتوبة . وهذه المنشآت الذهنية تتقرر أيضا لمواد بناء التفكير

فالمنطق يتحكم في أنواع المباني التي أقامتها العقول ، و يُعد معونة أولية ، ودعامة لمزيد من عمليات التفكير : وهو يفحص النتائج ، ويختبر في دقة مقاييس الأدلة ومدى صلاحية النتائج . وهو أعمى حيال المغريات التمثيلية ، وأصم إذا ما واجه تعبيرات رائعة بالغة الجمال . والمنطق رقيب أيضاً ، وأن تكن رقابته من مرتبة أخرى تخالف الرقيب الفرويدي ، رغم أن كلا منهما يحرس دمبدأ الواقعية ، ويحرص على رؤية الأشياء كما هي في الواقع .

وإذا ما تخلصنا من القيود ، بنينا قصوراً في الهواء ، أو في أرض خيالية ، وأضفينا عليها مثل الكمال لحظة من الزمان . وإذا تهاونا في ولائنا للمنطق ، فأنسا ننغمر في تأملات تتجاوز نطاق التفكير الاستدلالي المعترف به ، ولسنا في حاجة إلى الترخيص لأقامة المنشآت الذهنية . فان الحكم يصدر عليها بعد بنائها . فهل يستطيع التحليل النفسى أن يجتاز امتحان الرقابة المنطقية بنجاح ؟ هذا هو السؤال .

والتفكير المنطقي لا يخضع في سهولة للرغبة . وعند ما نقيم

النظريات على أسس من الحقيقة ، فاننا نجد في كل خطوة واتجاه مجالا لتدخل خبيث ما كر يعمل لفرض التفسيرات المفضلة عندنا، ويعمل للعشور على ما نبحت عنه ، ويعمل على تفسير «البيانات» تفسيراً يطابق النظريات وينسجم معها. وهذا الاغراء ينطبق بصفة خاصة على أنواع المنشآت الشبيهة بالتحليل النفسى . حيث لا مفر فيه من أن يؤثر التحيز العقلى والنتائج بعضها فى بعض ، ولعله من الخير أن يذكر النفسيون عبارة بيكن (Baron) الخالدة ، وهى أن الطبيعة أوسع حيلة وأكثر دهاء من الحجة والبرهان .

والرقابة المنطقية الصارمة تبعد التحليل النفسى من دائرة العلوم . وهذا هو الجانب الذى لزمه «دنلاب» (Dunlap) فى كتابه «الروحانية، والفرويدية، وعلم النفس العلمى»^(١). وقد أصدر حكمه فى غير تحفظ ؛ فالفرويدية فى إغرائها وطريقتها ونتائجها ، تعد نوعاً من الروحانية ، وتستمد شيوعها ، ومكانها اللائق بها على أرفف المكتبات ، حيث تنسجم فى تلاؤم كامل مع علم الفراسة «والفكر الجديد» ، «وتحضير الأرواح» ، ونظم السفسة الخاصة بقراءة الخلق ، وذلك بسبب تلمفها الملمح على إيجاد حلول «درامية» مؤثرة للمشكلات البشرية . ولا أستطيع قبول الحكم المسرف الذى يعتبر

مطالبة الفرويدية للاعتراف بها كعلم طالبا يمكن تجاهله ؛ فاني أومن بأنه من الأفضل أن نهذب المنطق ونلطف من قسوته ليتلاءم مع أنواع النقص في علم النفس . وبهذا نستطيع أن نقدم منطق نبي جديد إلى ساحة التقدير عندما يتيح لنا الحكم على هذا الموضوع المعقد ، حكما أكثر تسامحا .

والواقع أن سفسطة الفرويدية متشعبة ، وأن عدوانها على الذوق السليم والمنطق السديد متعدد وقاضح ، ولكن النية العلمية لم تفارقها ، فبحث فرويد امتداد شرعى لدراسات النفسيين ، ومحاولاتهم لفهم الطبيعة البشرية . وقد سلبوا بأن علاجه « العيادى » تشخيص فعال لحالات العصاب وتخفيف حدتها ، فإن كان قد أخطأ فى عملية البناء ، وصار واحداً من « بناء الأوهام » كما سماه «وارد» (Ward) وأن كانت مكانته « بين المسحاء الكذبة » كما وضعه « جيليس » (Gillis) ، فإن خطأه لم ينشأ عن لوثة مرض البرنويا ، ولا عن ثقته بنفسه ثقة نبي أو مسيح . وإذا كان قد استمر فى مشروعه فى خفة حتى ضلل الآخرين وخدع نفسه بالوهم ، فإن الزلة الكبرى هى سوء تقدير منطقى من طراز آخر . وفى المسألة الفرويدية نواجه اعتبارين جوهرين ، فالى أى مدى يُعد تصميم البيت الذى أقامه فرويد علميا ؛ وهو الاعتبار الأول ؛ وإلى أى مدى أقامه على الطريقة العلمية ، وهو اعتبار

آخر . وعندما تنبأ وطسون « Watson » ، السلوكي بأن كل من
 يستخدم وسائل التحليل النفسى أو الفاظه سيعد فى القريب
 العاجل من أنصار وسائل علم الفراسة ، فإنى خالفته فى يقين .
 لأن الخطأ فى برنامج علم الفراسة نشأ عن سوء فهم كامل للعلاقة
 بين الجسم والعقل . وعندما أعلن « جال » Gall ادعاءه بأنه
 اكتشف نظاما نفسيا كاملا للرأس والمخ بغية كشف مغلفاتهما .
 فإن عماده كان أدلة واهية لا يقبلها العقل .

وهكذا كان إغراء فكرة خاطئة سبباً فى تحول عالم بأرع فى
 التشریح إلى باحث نفسى ستخيف غير معقول ، فإن حلوله للرموز
 كانت خاطئة ، كما كان علم نفس تلك الأيام فجأ ، ومثله فى ذلك
 المعلومات الشائعة عن التشریح . وربما كان فرويد متطرفا فى
 عمله ومتمسكا بعقيدته فى تأييد موضوعه كما كان « جال » فى
 تأييده لفكرته ؛ ولكن مبادئ الحلين من حيث الوصول إلى
 أسباب السلوك البشرى ووسائله كانت مختلفة كل الاختلاف .
 ومع أن الباحثين كانا منفصلين بقرن من الزمان ، فإن الخلاف
 المنطقي بينهما يقدر بعدة قرون .

وإذا ما بحثنا عن أشباه ونظائر ، لوجدنا « مسمر » Mesmer
 معاصر « جال » بنظريته عن المغناطيسية الحيوانية ، وما تحققة

من شفاء للأمراض ، فنجد نظاما روحانيا ليس له من أى سند مادي . وللدفاع عنه واستخدامه اشترك من هو نظري وطبيب ودجال في وقت واحد : ورغم هذا الاقحام غير العلمي ، فإن ظواهر « المغناطيسية » لم تحرم من حقيقتها ، بل كانت ملاحظات « مسمر » العيادية في بعض اعتباراتها أقرب إلى الحق من بيانات المنكرين الأكاديمية . وقد أثارت هذه الملاحظات اهتماما أدى إلى اكتشاف التنويم المغناطيسي . وهذا بدوره أدى إلى الاعتراف بالايحاء وأعمال العقل اللاشعورية . وفي هذه الأجهزة النفسية الذات ، وهي أجهزة معترف بها الآن ، واصل فرويد البحث العلمي ، ووجد مفاتيح تفسيراته .

والقضية الفرويدية لا يمكن قذفها خارج المحكمة . فإن هذا العمل إجحاف بفرويد . كما أنه ليس من الحكمة بالنسبة لعلم النفس . وإذا ما سألنا عن الخطأ فيما قدمه فرويد . فيجب أن نمنحه نفس انية العلمية التي ظفر بها انصار المدارس النفسية المختلفة التي لا نوافق على آرائها لأسباب أخرى . ولو لم يكن التحليل النفسي جديراً بالاعتراف العلمي لما وضع هذا الكتاب .

والعلوم الطبيعية والعقلية تتساوى في ولائها للمنطق ، ولكنها تختلف في طريق تحقيقها لالتزاماتها حياله . ومن ثم فإن ادعاءات التحليل النفسي يجب أن تقدر بشيء من التسامح ، فإن صدق مبادئه

لن يتأيد بأدلة رياضية حاسمة . وسيكون مدى قبولها من النفسين وأطباء النفس الانتقادين بسبب تلاؤمها مع مجموعة كبيرة ، وأن تكون غير منتظمة من الخبرة والتجربة ، وبسبب ما تجده من تأييد في الأسس البيولوجية ، ولأنها قابلة للتطبيق على الحالات العيادية كما تطبق على تحليلات الخلق في نطاق السلوك السوى . وهذه المبادئ سترفض أيضاً بسبب قصورها في هذه الاعتبارات ، فإن قلة اهتمام فرويد بالمبادئ المنطقية من سوء حظ التحليل النفسي ، ولكنها لا يجوز أن تحط من قدر البناء كله .

الإنسان الفرويدي

قدمنا (في الجزء الأول) كيف اكتشف فرويد أو كون « إنسان التحليل النفسي » . وننتقل الآن إلى فحص طبيعة ذلك المخلوق ، لا كما يظهر مجسماً من المحراب العيادي ، بل وفقاً لما ظفرت به البصيرة هناك من توجيهات لإعادة بناء الإنسان عامة . وبما أنني كهذا الإنسان ، فإنني قد أتساءل بطريقة عملية شخصية ، إلى أي مدى تحسن فهمي لنفسى من حيث أنا مخلوق ، أو لزملائي الآخرين كنتيجة لما أمضيته من الساعات الطويلة ، وما بذلته من الجهد العقلي في قراءة فرويد والفرويديين ، أو حتى إذا حللت نفسي تحليلاً نفسياً ؟ .

وبما أننى من فئة معينة من فئات الإنسان ، ويطلقون عليها اسم
النفسيين ، فإنه يهمنى أن أجعل الفرويديين على صلة بالمذاهب
النفسية الأخرى فى تكوين المواقف الأساسية التى أدت إلى
وجهة النظر الفرويدية عن الإنسان بكل ما فيه من متناقضات .
وعندما أوجه هذه الأسئلة ، فإننى لا أنسى مجموعة الأسئلة
التالية ، وهى : إلى أى مدى يعد الإنسان الفرويدى أصيلاً ، وإلى
أى مدى هو مصطنع ، أو مصاب بالتعصب ، وإلى أى مدى هو
وصمة وسبة ؟ .

ولكن وأولاً : من أى شىء صنع هذا الإنسان سواء أكان
حقيقياً أم مزعوماً ؟ .

وبكل اختصار أواجه ثلاثة مدركات ترشدنى : وأولها هو
الإنسان اللاشعورى Subconscious Homo فإن علم النفس
وصل إلى نتيجة اعترف فيها بأنه أيا كانت دراسة الحياة العقلية
الشاملة المستنيرة التى تظهر فى التفكير الشعورى ، ومهما ساعدناها
بشتى وسائل التنقيب ، فإنه لن يتيسر الكشف عن الإنسان
الباطنى الكامل ، فإن هذه الدراسة تحتاج إلى تضمين اللاشعور .
والواقع أنها تحتاج إلى توجيه كثير من الاهتمام إليه . وبالأخص
تحت لواء هذا المبدأ فأنى — إلى هذا الحد — أعد نفسى منضماً إلى
حلقة الفرويديين . وفرويد لم يكتشف الحياة اللاشعورية وحياتها ،

فكثيرون قبله وبعده اسهموا ببحوث مختلفة تتعلق بالسلوك النفسى المغمور .

ووجود قارة اتلنتيس^(١) فى النفس مسألة معترف بها من الجميع . ومن سنوات اقترح « ستانلى هول ، Stanley Hall أن تشبه النفس بجبل جليد ، فيمثل الشعور الجزء البارز على سطح الماء ، أما الجزء الأكبر ، وهو الكتلة المغمورة وغير المرئية ، فتمثل اللا شعور . وعندما قدم « هول » هذا التشبيه ، فإنه مُقبل فى لطفة . وأكثر من هذا ، ما أراه فى مشروع فرويد العام لاستكشاف نواح معينة من الحياة المغمورة والمفاتيح التى أرشدته إلى منابعها ، فهو يبدو سليماً من حيث المبدأ . وقد أضاف كثيراً من الأهمية الأولية إلى مجموع وجهات نظرنا عن البواعث البشرية والأجهزة .

وسواء أكان « الاسلوب المعين » الذى فيه أدرك فرويد اللا شعور وأتقن إشراكه فى الحياة النفسية ، جائزاً شرعاً أم صحيحاً ، فإن هذا موضوع يختلف كل الاختلاف . وهنا يجب أن أوضح أن ما اسجله من الرفض يفوق ما اسجله من قبول ، وواجه رفضى إلى مسائل جوهرية ، « فاللا شعور » الفرويدى يبدو فى أسسه ضعيفاً علمياً ، كما أنه فى تطبيقاته يضل من

١ — اتلنتيس قارة يقال أنها كانت تقع فى المحيط الأطلسى ولكن البحر ابتلعها . (المترجم)

نواح متعددة . ولا ريب أن اعتراضاتي الكثيرة على النتائج الفرويدية تخرجني من حلقهم . وإذا لم أكن منهم فإني أعد نفسي ضدهم .

والفكرة التوجيهية الثانية التي تكون طبيعة الإنسان الفرويدية هي اللبيد ، «الإنسان اللبيدي» Libidinal Homo وفحوى هذا أمر بسيط للغاية ، فمن المفيد أن نحصل على كلمة عامة شاملة تلخص ذلك الشيء المجهول الأساس الذي يدفع الحياة إلى الاستمرار . ولك أن تسميه الطاقة أو «الدافع الحيوي» ، أو مركباً من الدوافع الحيوية ، أو التحمس للحياة والاهتمام بأمورها ، ولا تنس أنه حيوي «بيولوجي» في لبه ، لكنه يحصل على أفراط في النمو النفسي المترف حيث يعيش ، ويتحرك ، وحيث يظفر بوجوده المعقد . وهذا هو اللبيد .

ومن الواضح أن شيئاً يدفعنا إلى مواصلة الحياة ، ومن العجيب أننا عشنا طول حياتنا بدون هذه العملة السهلة التناول . ولكن الترحيب باضافة لفظ جديد إلى المصطلحات الفنية لا يعنى في حد ذاته معلومات جديدة . وإيا كانت البصيرة التي يضيفها هذا اللفظ ، فاتها من الجائز أن تتحول إلى نوع من بلبلة الخواطر إذا فهمت القوات المؤلفة للبيد بشيء من التحيز العقلي . وإذا اتسم

الليبيد كله بطابع جنسى ، فان العملية النفسية تتحول إلى شىء آخر مختلف كل الاختلاف . وتعاود المشكلة الخطيرة الظهور ، فنعود إلى التساؤل : ما هى طبيعة ذلك الحافز المعقد الدافع للحياة ، ولحياة متعددة الالوان ؟ وهل فهم فرويد له صحيح ؟ .

وفى هذا الموضوع يختلط الاثر عندى . واعترف بفائدة اللفظ ، وادرك موضعه فى علم النفس ، ولكنى لا اقبل ذلك التطور الذى أوصله اليه فرويد . وعلم النفس الليبى علم شرعى ، بل الواقع ، أنه جوهرى ؛ ويرجع الفضل إلى فرويد فى توجيه علم النفس إلى هذا الاتجاه ، ومنه تضمنين البواعث النفسية اللاشعورية ، والوظائف الاولى ، مما نجده أيضا فى المستويات العليا الخاصة بالنمو الثانوى ؛ فالليبيد فيه مقوم لاشعورى جوهرى أيا كان اعتراف الإنسان العاقل به ، وأيا كانت أدارته الشعورية له حكيمة أو غير حكيمة .

والفكرة التوجيهية الثالثة فى المشروع الفرويدى هى ، الالاء ، Sublimation . وأنا أوتر التوسع فى معنى هذا اللفظ عما أضفاه عليه فرويد . فالالاء هو توجيه دافع معين يحتمل أن يكون منفذه محدودا أو غير مرغوب فيه ، إلى تعبير أكثر قبولا ، ومن مرتبة أكثر سمواً ؛ وهو يشترك فى جميع عمليات إعادة توجيه

الدوافع التي تظهر المنتجات النفسية السامية ، والمهذبة المقبولة من الناحية الاجتماعية .

ومن الاوجه الهامة للاعلاء الاشتراك الاجتماعي ، ومعناه انسجام اكمل مع سلوك الآخرين ، ومراعاة لهم في جميع الحالات والعلاقات . ولن يذهب الناس كثيرا في الاعلاء بغير التأثير الاجتماعي ، ففي الاعلاء يُحتفظ بالدافع الاصلى ، على حين تتحقق تعبيراته السامية ، فهو يلخص النمو التقدمى ؛ وعندما تتوافر الاساسيات ، فانه يكون وثيق الصلة بالجانب الاكثر ثروة ، وبالاتجاهات التي ترضينا في الجزء الفاضل من حياة الفراغ والترف ؛ والاعلاء يصحب عملية النمو ، وانا لنزداد أعلاء كلما أزداد نضجنا النفسى .

ولولا المراحل المتعاقبة للاعلاء لبقينا في الحالة البدائية التي كان عليها الانسان وهو يعيش في الكهوف والمغاور . فالحياة المتمدنية هي الحياة التي ظفرت بنصيبها من الاعلاء . وبما أن اللبىد هو الاسم الشامل للدوافع ، فهو في معنى عميق ما ظفر بالاعلاء . وفى كل هذه الاعتبارات يعد علم النفس الفرويدى علم نفس يشمل اللاشعور المغمور أو المكبوت ، فهو علم نفس لبيدى يرد السلوك إلى الدوافع الاساسية ؛ وهو علم نفس إعلاء يتعقب مسار النفس من اتجاهها الأولى إلى شكلها النهائى . وإذا كان الاشتراك

فى هذا البرنامج باعتباره حيويًا يميز للفرد أن يوضع فى مرتبة
الفرويديين فاني أطالب بهذه التسمية . وعلم النفس الذى من هذا
النوع هو ، ولا ريب ، الدراسة الواجبة للجنس البشرى .

فرويد وعلم النفس المعاصر

أن النتيجة التى تلتقى عندها الفكرة السائدة فى « السيمفونية »
الفرويدية ليست بالضرورة من تأليف فرويد فى أى ايقاعاتها .
وفى رأى ، لا يوجد فى الموضوع الفرويدى — ولا فى تلبسه لعلم
النفس بما فى ذلك أدلته فى الشواذ — ما يدفع إلى عزف البرنامج
الفعلى بما فيه من تنوعات حافلة بالنشاز ، وعدم الانسجام ،
والاسراف والمبالغة . وفى وسعى أن أتخيل « علم نفس أعماق »
يتضمن الأجزاء الرئيسية الخاصة باللاشعور بما فيه من النواحي
المغمورة ، والمندمجة والمكبوتة ، والخاصة بالدوافع الأساسية
سواء سميت لبیدا أو غيره ، والخاصة بالاعلاء فى شتى مظاهر تحوله ،
بما يؤدي إلى تقدم معرفتنا بالسلوك البشرى ، ويدعم تحكمنا فى
أنفسنا ، ولا سيما فى مسألة علل المصابين بأمراض العصاب ؛
ورغم هذا كله ، فإن علم نفس الأعماق هذا الذى أتخيله يظهر مختلفًا
كل الاختلاف ، ويقوم فى مجموعه على أساس علمى سليم . وهذه
الفرويدية المحتملة الحدوث ستكون أقل بريقًا من النظام الحالى ،
ولكنها ستكون سليمة وأصيلة أكثر منه ؛ ومع ذلك تبقى الحقيقة

قائمة في أن هندسة بيت التحليل النفسى تحمل إمضاء فرويد، فخطط البيت وتنفيذها ستكون كما قدمه . وليس فى وسعنا أن نختار كيف تأتى مراحل التطور التاريخى الذهنى ، ولا كيف تتسلسل الحوادث البشرية سواء أكانت سياسية أم اقتصادية . وتبقى بعد هذا أيضا الحقيقة القائلة بأن التحليل النفسى قد برهن عن طريق مغرباته الواسعة النطاق ، وتغلغله الإجبارى فىنا ، على أنه مشكلة تتطلب تجديد علم النفس وطب أمراضها ، فقد أثر على سبل الحياة والتفكير تأثيراً شاملاً . وهذه الحقيقة تنقش اسم فرويد فى سجل تاريخ الآراء مما يبرر مغامرتنا الحالية لنقده .

ولقد كانت اتجاهات أخرى فى علم النفس المعاصر تسير نحو نفس الغاية المنشودة : فعلم نفس الطفل . وعلم النفس الاجتماعى . والاهتمام المتزايد بالشخصية فى علم النفس العام . كلها تعبر عن الاهتمام ذاته بالاستجابات العميقة ، والوجدانية ، والبدائية التى نجابها فى حياتنا اليومية . ودراسة السلوك البشرى دراسة حية ، من حيث الدوافع والبواعث النفسية قد أضاف الكثير إلى البحث الأكاديمى المحرود للعمليات الذهنية . والجهاز العقلى : بل أنه قد حل محله وأفاد الفهم البشرى ، وتسيير أمور الحياة فائدة كبرى . ورغم هذا فقد بقى لفرويد أن يوجه علم النفس اتجاهها حديثاً سيظل محتفظاً به إلى النهاية ، وفرويد هو القائل « اعرف نفسك الخفية »

ولقد كانت أكبر بحوث علم النفس الحديث ، كما تشكلت في معامل « فنت » (Wundt) بمدينة ليبزج ، تدور حول الجهاز الخارجى للعمليات الذهنية . وقد استنفذت هذه المدرسة نشاطها الأول دون أن تمس أعمالها الهامة المسائل الحيوية للحياة النفسية العميقة في صميمها . وكان القصد والهدف الباعثان للفكرة الفرويدية يعبران عن روح العصر ، والبدعة أو « المودة » التى شاعت فيه . والأمر الذى أثار الاحتجاجات لم يكن اقتراح « علم نفس الأعماق » ، بل كان وجهة نظر فرويد اليه ، لأنها صورت النفس البشرية صورة كريهة مشوهة ، وهى النفس التى أشاد بها علماءها ممن يعنون بالناحيتين الأخلاقية والذهنية ، فجعلوا منها مثلاً أعلى .

وعند ما ظهر التحليل النفسى ، كان تجسيميا لدراسة النوع البشرى ، دراسة غير لائقة به . وكان من العوامل البعيدة الأثر فى نشوء المعارضة واحتدامها ضد المبادئ الفرويدية ، النفور من النظر إلى الإنسان كما هو فى الواقع ، ويضاف إلى ذلك الانهماك الأكاديمى فى دراسة وجوه خاصة للتعبيرات العقلية . وفى هذا المجال كان منطق الحجة كله فى جانب فرويد ؛ فالحقيقة شىء مستقل كل الاستقلال ، ولا تتقيد بأقيستنا الأخلاقية ، ومدى تذوقنا للجمال ، رغم أن الأخلاقيات ، ومدى تذوقنا للجمال تعبيرات حيوية للاعلاء .

وكان الوضع الملائم لانحراف ذلك الانسان الأكاديمي الذي أخرج على طبيعته يقبع في التجديد البيولوجي الذي يستمد قوته المحركة من نظريات داروين . فالنفس البشرية مهما سمت بالثقافة يجب أن تنسجم مع التطور البيولوجي للإنسان . وما عناء « فنت » في تسميته لكتابه الرائد في موضوعه ، إذ سماه « بعلم النفس الفسيولوجي » ، *Physiological Psychology* ، كان أكثر قليلا من ارتباطه الوثيق ، واعتماده الكبير على علم وظائف الأعضاء فيما يختص بتعليله أجهزة الاحساس والحركة ، وفي جعله المنح أساس الانسجيمات النفسية . وبعبارة أبسط ، فانه كان يرمى إلى إعطاء النفس أساساً جسياً .

أما المسألة الجوهرية الخاصة باعتبار كل أشكال الحس والحركة كعلامات للغة تطورية ، وبتعبيرات هذه اللغة يجب أن يفسر علم النفس وكذلك علم الوظائف إذا أريد فهم معناها ، كانت هذه المسألة غير ممثلة تماماً في حركة « فنت » ، ولكنها قفزت إلى المقدمة منذ ذلك الحين . وقد سميتُ هذا الموضوع « بعلم النفس الطبيعي » ، (*Naturalistic Psychology*) على منوال الاصطلاح القديم « التاريخ الطبيعي » ، فالباحث النفسي باحث طبيعي ، ولكن في مجال العقل .

وقد يدرس النفسى الطفل فى غرفة حضائته ، أو حيوانا فى موطنه ، أو شيئا من الأفعال المنعكسة ، أو لونا من الاستجابة المتقنة للراشد الناضج ، أو العادات الاجتماعية للإنسان البدائى أو المتحضر؛ وهو فى كل من هذه الدراسات طبيعى ولو كان أكاديميا فيها . فاذا ما شارك الشعوب التيوتونية فى غرامها بالالفاظ ذات الوزن الثقيل ، فله أن يطيل الكلام فى أندماج التاريخ الطبيعى بتاريخ الثقافة ، فان أهم الحقائق عن الإنسان هى استعداداته لتقبل الثقافة .

والتاريخ ليس إلا المستوى العلوى لتسلسل الحوادث ذات الصبغة البشرية التى تسبح فى آفاق بعيدة ، ولكنها لا تنفصل عن جذورها البيولوجية . وفى الحركة ذاتها وبغية مزيد من الفهم ، نشأت الدراسة الشائقة لكل ما هو شاذ ، مما يجعل كل نواحي المواهب البشرية الفطرية تتجلى فى صور مختلفة ، فبدت كالمطياف وقد اختل نظام ألوانه . وهذه الدراسة أيضا تحتل مكانها فى الجانب الطبيعى ، وتعرض كيف تسير الطبيعة النفسية فى طريق خاطئ . وكل هذه الاتجاهات المتقاربة كانت تسير فى مجالات متوازية ، كما تجلى فى الحركة الفرويدية .

ولقد بدأ علم النفس الفرويدى بوحى هبط فى عيادة ، ثم

نما إلى تفسير عام للنفس. ولهذا يجب أن يحتاز الاختبار الطبيعي ، ويجب أن تتأقلم طبيعته داخل الامبراطورية العظمى للعقل . والحقائق التي تنطوي عليها مدركات مثل اللا شعور ، والليد ، والأعلاء . يجب أن تظفر بطريقة ما على دعامة لها في ميراثنا الحيوى ، وتتكامل معه . أن مركبات التحليل النفسى تؤلف المحور المركزى لنظام فرويد ، وتجعل الحياة البشرية شديدة التعقيد إلى درجة الانهيار . ولست أذكر أنه بحث كيف أستولت هذه المركبات على الإنسان ، وأقلقت الليد ، ولا أذكر تعليله لوجوب أعلاء الكثير من الطبيعة الاصلية . وهو بحث له صلة بهذا الموضوع .

وهذه الأسئلة بالذات هي التي أعتبرها جوهرية أكثر من أى شيء آخر ، وتجب إثارتها ولو تعذرت الأجابة عنها ، وإلا فإن أسس أى نظام للتحليل النفسى ستظل مفككة ومشارا للنزاع ، ومجرد تأملات بغير أسس . وهذا العرض لعلاقات الفرويدية بغيرها من البحوث النفسية ، قد يؤدي إلى الانصاف في تقدير صلاحية التحليل النفسى ومعرفة قيمته ، أيا كانت وجهة النظر النهائية إلى ما يقترحه فرويد من حلول .

« اللا شعور »

دراسة « طبيعية » :

عند ما يجابه العالم النفسى الطبيعى أبتكارات فرويد الهامة . فان منطق العلم يشير فى ذهنه عدة تحفظات ، وبالنظرة ذاتها يجب أن نبحت فى شأن علم النفس الذى تطالب الفرويدية بالاعتراف به ، فان الصراع بين أنواع علم النفس من الأسباب التى تبين صعوبة الحكم على الفرويدية ، ومعرفة مواطن النقص واسبابه فيها ؛ فالمشروع ، وخطة العمل ، والنظام ، والمبادئ ، والتفسير الكلى الذى يتلخص فى عبارة « التحليل النفسى » ، كل هذا لا يكفى فيه القول بأنه خطأ أو صواب ، وهو لا يقبل على أنه جاء ليحل مكان علم النفس المعترف به ، وفى الوقت نفسه لا يمكن حرمانه من مكان يتبوّه فى نطاق هذا العلم وبنيته .

ويضاف إلى ذلك مكانة علم النفس ذاته فانها لم تظفر بعد بحدودها النهائية ، كما أن مبادئه الأساسية لم تقرر بعد فى صيغ دقيقة ، بل أن حدود محتوياته لا تزال مائعة يتعذر معها تسجيل مدى تقدم برامجه . ومرونة علم النفس أن هى إلا نتيجة الريبة والتحفظ والتسامح ؛ ولولا هذا لما ظهر التناقض الحاد بين الحلول

ولما كان « تبليبل » الالسة بين النفسيين من الامور المحيرة ؛ فبناته يعانون من أكثر من انقسام في التعبير . وهم يعملون تبعاً لتصميمات مختلفة ، ولكنهم يعتقدون أو يرجون أن تنسجم الواجهات مع بعضها البعض ؛ أو هم يعملون في اطمئنان متجاهلين مشروعات الآخرين . وهذا موقف سيء الحظ ، ويصير اسوأ لو ان الفرويدية وضعت نفسها في مركز المنافس لهم جميعاً ، وهو ما يبدو أنها تدعيه الآن في جرأة .

ولاقتناعي بان الدراسة الطبيعية للاشعور تقدم أفضل الامال في توفيق شامل ، فاني ساعرض التحليل النفسى من هذه الوجهة . وأول ما سأتناوله بالفحص هو أهم المدركات الفرويدية وأكثرها ضرورة لها ؛ وهو « الاشعور » الذى بغيره ما كان ثمة وجود للتحليل النفسى . ولقد قامت الحركة كلها على حل واجابة بارعة عن سؤال في صميم الموضوع . والسؤال يتكافأ في أهميته مع ما اثار فضول نيوتن (Newton) بشأن سقوط التفاحة . وهذا السؤال هو : لماذا تتخذ أعراض الهستيريا أشكالها الخاصة في أنواع عجز معينة وغير بيولوجية ؟ .

وهذه الأعراض « غير طبيعية » من الناحية الفسيولوجية ، فهل من الممكن أن تبدو كشيء طبيعى من الناحية النفسية ؟ هذا جائز إذا اشتملت طبيعة النفس على الاشعور ؛ فان المريض كان

يبدو ضحية الأعراض لا محركها . وكان يشعر بقوتها القاهرة شعوراً قوياً . ولكنه كان يحمل أصلها ومنشأها ؛ وكانت الأعراض غير مطابقة لأي الألوان الفسيولوجية أو التكوينية الشعورية ؛ فالذراع المشلول ، والغشاوة على البصر لا مقابل لهما في عجز الأعصاب أو العضلات ، ومع ذلك ، فإن العجز لم يكن خيالياً أو مفتعلاً ، فكيف نشأ ؟ .

من العسير أن نفرض وجود « لا شعور » لمجرد أننا نريده لتفسير الحالة . وفي العصور السابقة كانت أعراض الهستيريا وما شابهها تفسر على أنها مسة من الشيطان . وإذا كنت مستعداً لافتراض وجود الشياطين ، وأن من طبيعتها انزال مثل هذه الأعراض المرهقة بضحايها ، فإن هذا التفسير مناسب كل المناسبة ؛ وتبعاً لهذا الفرض وجهت التهم إلى السحرة ، فحُكِّموا ، وأُعدموا ، ولكن عقولنا تنفر من مثل هذه الأشياء « غير الطبيعية » ، والتفسيرات البعيدة كل البعد عن الأمور العلمية ، فإن منطق محاميات السحرة يتنافى مع معاييرنا المنطقية كتنافي أعدام المتهمين بالسحر مع معاييرنا الأخلاقية . أما « اللا شعور » الفرويدي الذي يحدث الأعراض الهستيرية ويفرضها ، فننمى أن يفهم على أنه شيء طبيعي لا كعامل خارق للطبيعة . وهو ينشأ إلى حد ما في داخل النفس .

ولقد عرف « اللا شعور » قديما وحديثا ، ولكنه فسر بتعبيرات غير عملية ، نشأت كلها كما حدث لفرويد من دراسة النواحي الغامضة عند حدود النفس وحافاتها . ولم تكن تلك الدراسات في المناطق ذاتها ، ولكنها كانت في أنواع من الهستيريا ، فهي تشمل ، فضلا عن التنويم المغناطيسي ، ما يقال عن كشف الغيب وتبادل الفكر على البعد مما شهد به الكثيرون . وقد ظفرت نظرية « هدسون » (Hudson) في كتابه « قانون الظواهر النفسية » (The Law of the Psychic Phenomena) بانتشار واسع (باستثناء القراء النقاد) من سنوات عديدة مضت . فقد أعلن في جراحة أن لنا عقليين ، إحداهما « ذاتي » ، والآخر « موضوعي » والعقل « الموضوعي » هو الشعوري الذي يتولى العمليات العقلية التي تتصل بحياة اليقظة العادية المعترف بها . أما العقل « الذاتي » فهو اللا شعور : وهو المسئول عن جميع أنواع الغموض والعجائب الظاهرة ، والظواهر الخاصة بكل ما هو نادر وشاذ . وتوسع « هدسون » في فرضه ليشمل مخاطبة الأرواح ، فكان فرضه شاملا كل الشمول دون حاجة إلى هذا التطبيق . ولو كان لنا عقلان ، وكانت هذه هي وظائفهما لظفر علم النفس بحل شامل أكثر قبولا من مسات الشياطين ، ولكنه أيضاً لا يجد سنداً يؤيده . وقد أوجت دراسة « كاربنتر » Carpenter هذه الفكرة من قبل .

وهي دراسة تمت بطريقة علمية في المجال نفسه . وذكرها في كتابه « علم وظائف العقل » Mental Physiology وفيه حاول أن يضع نظرية استنارة المخ بشكل لاشعورى .

وسقطت أراء هدسون خارج الدائرة الشرعية للعلم ، رغم أنه دعا هو الآخر إلى علاج يؤسس على هديها ، ولم يعد هذا الحدث يعتبر اليوم هاما في تاريخ اللاشعور إلا من حيث هو فصل في قصة الخطأ ، ومغزاه لا يحتاج إلى تفسير . واللاشعور الفرويدى يجب أن يظفر بطريقة ما بأساس (طبيعى) ، وإلا فانه هو أيضا سيرد إلى فصل آخر من الكتاب نفسه ، وإن كان أكثر أهمية .

. ويعتبر « دنلاب » (Dunlap) « لاشعور » فرويد بغير أساس علمى فى الواقع . ولهذا فهو يستبعده استبعادا تاما ، كما يستبعد « مسة الشيطان » التى يقول بها بعض رجال اللاهوت . أو العقل الذاتى عند هدسون . وغالبية النفسانيين وأطباء النفس يسمون بوضعه الطبيعى ، ولكنهم يجدون أدلته ضعيفة إلى درجة أنهم لا يستطيعون قبول رأى فرويد فى اللاشعور ، على أنه رأى صحيح .

وفى رأى أن « اللاشعور » الفرويدى غير شرعى فى ليه (لم يفرض فرويد عقلا لاشعوريا ، ولكنه عرض مجموعة من

الاجراءات اللاشعورية) ، فاللاشعور الفرويدى أمتداد منحرف لعلاقة فعلية ، ومن الممكن العثور على تفسير طبيعى لها . وأرى أنه من الهام للغاية البحث عن هذا التفسير رغم أن فرويد لا يعترف بالحاجة اليه ، ولم يقلق نفسه من أجل عدم وجوده ؛ بل أنه قبل د لاشعوره ، كشيء واقعى ، واقتنع بأنه كشف عاداته وموطنه ، ومن ثم استكشف طبيعته ونماها وطبقها فى ثقة على تفسيرات كثيرة أخرى فى عالم النفس وحدوده القصية . وفى هذا الاتجاه ، وعلى مثل هذه القاعدة الافتراضية ، وبهذه التطبيقات البعيدة المدى تقوم أسس رفض الفكرة .

أسس بيولوجية .

كان ريفرز Rivers أول من أدرك أهمية البحث عن أساس فسيولوجى « للاشعور » ؛ وإذا كان عالم العقل منظما فى الواقع حول وظائف شعورية وأخرى لاشعورية ، فإن أسس هذه التفرقة تتغلغل إلى أعماق البنية العضوية . وقد وجد « هيد ، Head وريفرز دليلا على التمييز بين « الحساسية ، الانفعالية الأولية » ^(١) Protopathic (البدائية) ، « والحساسية المميزة ، Epierictic ؛ وقد

(١) تعذر على باحثين آخرين تحقيق هذه التجارب والاكتشافات . ويوجد أيضا نوع الاستجابة الانفعالية التى يصعب تمييز درجتها فى حالة الانفعالات الحادة وعليها تطلق التسمية نفسها . (المترجم)

أجريا بعض التجارب على نفسيهما ، فلاحظا أنه إذا قطع عصب
 فى الذراع ، فان استعادته للحساسية عندما يشفى طرفاه
 المقطوعان ، تتبع نظاما معيناً ، فيظهر أحساس مبهم بالآلم ، وفج ،
 قبل ذلك الآحساس البسى المحدد الوطن الذى تستخدم به
 أطرافنا ومفاصلنا وجلدنا عن أدراك وتميز .

وبتعميم هذا التميز ، وصلا إلى نتيجة توحى بوجود حياة أنفعالية
 أولية يجوز أن تعين حدود النفس فى الأحياء الوضيعة ، وتستجيب
 بشكل فج للتغيرات سواء أكانت سارة أم غير سارة . وهذه
 تسبق من حيث الزمن النموذج الاسمى للحساسية الذى يشغل
 الأفق الشعورى وتنطوى عليه . وهذه هى حياة «الحساسية المميزة» ،
 حياة الإدراك والمهارة والعلاقات المتبادلة والغرض . والجهاز
 الحسى الحركى يمدنا بدليل نموذجى للمنظمة العصبية ؛ فنوعا
 الحساسية ، يظان باقيين ويتحدان ويؤلّفان «النفس» الجلدية .
 وفى اندماجهما تسود الآحساسات المميزة ، وتراجع البدائية
 مخلّفة بقايا مضطربة . كمظاهر بيولوجية عجيبة ؛ ومن أمثلتها
 الدغدغة والتهاب الجلد . ومن الجائز أن نقبل الحواس الجلدية
 كفتح بيولوجى يكشف عن الحياة الحسية البدائية ، فالعين
 والأذن من أكثر الحواس تميزا فى مرتبة التطور .

وبالتوسع فى هذا التميز يتضح أن الحياة الشعورية مميزة ،

وأن الحياة اللاشعورية تأوى جانباً من الحياة «البدائية» ؛ ولا نغنى بذلك حياة بدائية كل البدأة ترجع إلى العصر الباليوزوى كما عرفناها ، بل نغنى شيئاً يشبهها من الناحية البيولوجية ؛ وكما أدت تجربة «الفعل الشرطى المنعكس» ، التى قام بها بافلوف ^(١) Pavlov إلى تزويدنا بنموذج فسيولوجى أولى للأشكال البسيطة للعادات ، فإن تجربة هيد وريفرز زودتنا بنموذج للتمييز النهائى ذى أثر بعيد. وكلا التجربتين تشيران إلى مقومات ونماذج تتدخل فى السلوك .

وبالتوسع فى مدلول تجربة الغدة اللعابية نجد عامل «الشرطية» قد نما واحتل فصلاً هاماً فى علم النفس ، ومنه انتقل إلى التربية . ومن الجائز أن تكون تجربة القطاع العصبى «لهيد وريفرز» ذات أهمية أكبر كاستهلال للفصول العظيمة لحياة اللاشعور والشعور ، فعلم النفس القائم على النماذج التجريبية ، وعلى القواعد الراسخة ليس من المسائل النهائية ، ولكنه موضوعى وأبحاثى يفتح لنا أبواباً كثيرة .

والاطلاع على التفاصيل يقدم مزيداً من الأبحاث . وفى فترة النقص يتحول الجلد ذو الاحساس المميز عادة إلى حالة أحساس

(١) بافلوف : عالم روسى اشتهر بتجاربه عن الفعل الشرطى المنعكس . وكان يجربها على الكلاب . وفى أول الأمر كان يقدم الطعام للكلب وفى الوقت نفسه يبدق جرساً فتفرز الغدة اللعابية عند الكلب إفرازاتها . وبعد عدة محاولات صارت الغدة تفرز موادها بمجرد سماع رنين الجرس دون تقديم الطعام . (المترجم)

لا يتحدد فيها موطن معين له . بل أنه يكون شائعا منتشرا . ومن الجائز أن تشعر به على بعد غير قليل من نقطة التأثير ؛ فإذا شفى العصب عاد الاحساس المميز ، ويجوز أن يختفى مرة ثانية إذا وضعنا شيئا بارداً على الجلد . وفي العادة تزحم الحساسية المميزة ما تلمسك به الحساسية البدائية وتطرده . وكان التفسير البراق لريفرز ينص على أنه عندما كان العصب المنفصل ، ثم الملتحم في ذراعاه في فترة استعادته لحساسيته المميزة ، فإن ريفرز كان في حالة احساس سقط من الخبرة البشرية من دهور طويلة ، إذ تعرض للكبت البيولوجي في عملية اندماج العناصر البدائية بالمميزة .

ويقول ريفرز إن « استخدام الجانب الأكبر من العمليات المعقدة التي تحدث الحساسية البدائية بفعل إجراءات الاندماج ، هو المصير المحتوم ؛ وإن الجزء الأصغر وحده هو الذي يتعرض للمصير الآخر وهو «الكبت» . وإذا ما قبلنا ما يحدث في المجارى العصبية التي تمد الجلد ، واعتبرناه نموذجا أوليا ذا بنية أكثر تعقيدا وأحلقنا النشاط العقلي والخبرة الذهنية ، محل الاحساس الجلدي ، فأننا قد نصل إلى نتيجة ؛ وهي أن مفتاح علاقة اللا شعور بالشعور هو الانتفاع عن طريق الاندماج . ومع ذلك فإن علم وظائف الأعضاء يعمل على تزويدنا بعامل « احتاج إلى الكبت ، وهو أجراء أخطر واحسم » .

والغرض من ذكر هذه التجربة . هو أن نبين أن مدركا عليا بشأن اللا شعور يجب أن يبحث عن أساس (حيوى) بيولوجى يقوم عليه . أو إن ينسجم معه على الأقل . وإذا ما وجدناه ، فإنه لا يكون إثباتا بل مفتاحا فحسب . ومن الجائز أن يوضح كثيرا ضد اللا شعور الفرويدى ، أو فى مصاحته . واكتشاف نوع من الكبت النفسى لوجى يقرى مركز قضية الكبت النفسى ، ولكنه لا يجعل الاثنين شيئا واحدا ، بل لا يستطيع أن يشبههما بعضهما ببعض .

وسيكولوجية « اللعاب » أو « الجلد » ليست نموذجا لعالم النفس الخفى : فإن السلوك البشرى فى مستواه العادى المعقد الذى يعرفه السلوكيون أو الفرويديون إنما يصدر من جهاز عصبي شديد التكامل . وقول وأطسن Watson بأن السلوك البشرى الراقى يمكن أن يفسر « بالشرطية » ، Conditioning التى يمكن مقارنتها بتجربة بافلوف ، إنما هو تفسير خاطئ للتمثيل البيولوجى الذى كان دائما فى ذهن وأطسن . ومن الجائز أن يرتكب الفرويدى نفس الخطأ إذا قرران أنواع السلوك البشرى المعقدة يمكن تفسيرها بكبت يضارع الطراز الذى يقول به ريفرز . ومع ذلك فإن كليهما يقدم لنا تشابها بيولوجيا لم يفكر فيه فرويد .

وبغير تجربة قطاع العصب ، لكان لكل باحث نفسى « طبيعى »

متمسك بطبيعته أن يتساءل بحق أن كان هناك من اختبارات مكبوتة كتبنا أساسيا كما يدعى فرويد . وبغير تجربة الغدة اللعابية ، له إن يتساءل أيضا ، أن كان تكوين العادة على هذا النمط شيئا أساسيا . وحتى أن صدقت التجربتان ، فانه لا يزال صحيحا ، وهاما أن الحياة المعقدة لعاداتنا المدربة ليست خبرة « لعابية » ، معقدة ، ولا هي خبرة جلدية معقدة كذلك ؛ فالتكوين البدائي ليس هو التكوين النهائي ، وإن كان ذا علاقة به . وأشكال « الشرطية » ، « والكبت » ، المتأخرة الحدوث والسامية ليست من المرتبة ذاتها ، فهناك عوامل أخرى تنشأ مستقلة ثم تندمج فيها . وهكذا يتلاقى المنظر العام للسلوك ضوئا من « الشرطية » ، وآخر يعادله ، ويتجلى من القاعدة الانفعالية الأولية والمميزة ، ثم ما يلي ذلك من تكامل يتم بطريقة الاندماج .

وإذا ما وضعنا نصب أعيننا هذا القياس الأولى ، فانه من الأفضل أن نقبل اللفظين الأكثر شمولا ، والدالين على الوظائف « الأولية » و « الثانوية » . ولا غنى عن هذه المرتبة البيولوجية في علم نفس الأعماق سواء منه ما قام على القواعد الفرويدية أو غيرها ؛ فالوظائف الأولية تندمج مع الوظائف الثانوية التي تحتل مكانها ؛ وهذه الوظائف الثانوية شعورية « مميزة » إلى حد كبير ؛ والاشعور يقدم الوظائف الأولية التي تدعم السلوك الشعوري دائما .

والانغمار قد يكون على أى عمق ، والظهور أو الطفو قد يكون بأية درجة من الوضوح . ولكن قاعدتها كلها هى الاندماج ، الاندماج فى جميع المستويات ، وفى مختلف أنواع التكامل . والاندماج يسيطر على الكبت . وعلم النفس الذى قدمته فى كتابي « اللا شعور » ، Subconscious هو علم نفس أندماجى . ولفظة « لا شعور » مقبولة أكثر من مجرد لفظة ، لأن « الكبت » عامل ثانوى فى الغالب ، إن كان كبتا ، وليس مجرد انغمار ، بل هو فى الواقع أحد العوامل الخفية لكلا الاندماج فى مجرى الشعور والانفصال عنه . ويبدو لى ولكثير من النفسيين ، أن فكرة التفكك Dissociation صحيحة كل الصحة فيما يختص بهذه العلاقات المختلفة . ولكنها تخضع لاتجاهات أخرى ، ومنها العوامل الفرويدية الهامة ، وما تحوى من صفة الكبت المراقب ، مما يبدو فى بعض الأحيان كبواعث غريبة ، وفى أخرى كبواعث بسيطة .

التفكك والكبت

كيف يحدث التفكك ؟ إن تخلف شطر من شطور الحياة النفسية عن المجرى الرئيسى لمشكلة كبيرة الأهمية ؛ وهو (التخلف) يشبه تكوين مجرى فرعى لنهر بفعل جسر يعوقه . وهى مشكلة تجعل التداعى والتفكك وظيفتين متوازيتين . وفرويد يرجع

الفضل الخالد في أنه إدراك مدى اتساع هذه الحركة النفسية وشمولها ، وأنه بين عاملا جوهريا بشأن مصدرها . وهو مفتاح أهمله النفسيون — وأنا منهم — بمن درسوا الظواهر « اللا شعورية » أهمالا كبيرا ، ومع أن أهملهم لها لم يكن كاملا ، ولكنه تم بغباوة . وهذا المفتاح هو العامل الدينامي أو المحرك للبواعث النفسية .

وقبل عهد فرويد كنا نكثر من دراسة « تحت الشعور » على أساسى وصفي (أنى استخدم هذا اللفظ « تحت الشعور » موضوعيا لا تشخيصيا باعتباره دلالة مريحة ، لا باعتباره حقيقة مستقلة ، فليس هناك شيء اسمه « تحت الشعور » ، وإن وجدت أوجه « تحت شعورية » ، ومقومات لا شعورية في المجرى الكلى للنفس) . وكنا نحلل العلاقات بين ما بقى في المجرى العام والفروع والبواعث النفسية وبين ما فقدته ، فاهملنا القوى المسببة للقنوات المتشعبة الأخرى .

ومن الممكن فهم هذا الإهمال وتعليله ، لأن الظواهر المعترف بانها لا شعورية كانت من طراز الكتابة الآلية وما شابهها من العمليات التي من أبرز سماتها الغرض الذهني في وسط نثار متفرق . وكانت المشكلة هي كيف تمارس عملية السيادة الذهنية

والمعرفة التي يبدو أنها تتم دون اتصال بالذات الموجهة المعيارية . وكانت الكفاية العظمى أكثر وضوحاً من العجز وعدم القدرة . أما حالة الغيبوبة وحدها سواء أكانت خفيفة أم عميقة ، فكانت توحى بالحرمان من بعض الوظائف ؛ وفي الوقت نفسه كانت وظائف أخرى مما لا يخضع لإشرافنا في العادة ، تواصل عملها .

وبتعبير بسيط كل البساطة فإن التنويم المغناطيسي يغوص إلى أعماق المجرى الأساسي ، ولكن البواعث المحركة ظهرت في حالة السير في أثناء النوم ، (أطلقت عليها من قبل اسم « مطالب ») ، وفي حالة فقد الذاكرة مما يدل على الهرب من قيود الحياة المزلية ، وفي حالة ازدواج الشخصية أو اضطرابها لتعبر عن أوجه الرغبات الفاشلة أو الممنوعة ؛ وفي كل هذه الحالات لفقدان الذاكرة كان يوجد نموذج التفكك الكامل الدال على الكبت ، وذلك إن صح أن الناس فكروا فيه على هذا النحو من قبل . وبفكرة واحدة سجل فرويد لفظة « كبت » ، على الخريطة النفسية ، فكانت من الكلمات التي قدر لها البقاء ؛ فالأراء ، ونظم الانفعالات أو الذكريات ، وضروب من تنسيق الحركات ، يمكن أن تطوى في النسيان بمعناه العادي : أما فقد الذاكرة فمن الجائز إن يكون انتاجاً دينامياً في ظروف خاصة ، كما لو قذف النهر بحاجزه الرمل المعرقل لحركته .

وهكذا تم « اكتشاف » مبدأ حتمية « اللا شعور » ، فازدادت ثروة علم النفس . وتظهر الحيل هذه في الهستيريا وأشباهاها من أنواع العجز التي شغلت فرويد . وهنا ظهر وجه جديد للشعور : ولم يكن وجهها آليا ، بل كان عجزا باعثة غريب . والنسيان عملية سقوط أمر من الذاكرة في العادة ، ولكن من الجائز ان تفكر فيه كشيء مدفوع إلى أسفل ؛ فالجهاز الذى يحرك أبواب السهو يستحق الفحص الدقيق . ومرة أخرى نواجه السؤال الهام : هل عمل فرويد على تطوير هذا الاتجاه في السيكولوجية الخفية بطريقة مفيدة وصحيحة ؟

ويرى « ريفرز » — وهو يعمل على وضع الأساس « الطبيعى » (أى الوظيقي) للا شعور — أننا فى حالة الكف Inhibition ، نملك حيلة تشترك فيها مستويات الخلق الراقية والوضيعة ، الكف ضرورى لكل وجه من اوجه النشاط ؛ ويتعرض للتعبير الشاذ ، وينطوى فى حدوده على التخدير ، والتنويم المغناطيسى ، وكثير من الحالات الاخرى .

ولشرح هذا الجهاز نبدا قولنا بأنه توجد مجار عصبية للتنبيه ، ومنها تخرج الياف عضلية مفردة أو فى جماعات متناسقة . وهذه المجارى العصبية المنبهة يحتتمل أيضا أن تدفع الغدد إلى إفراز

موادها ؛ وتوجد أيضا الياف مانعة أو كافة ، وعملها هو حجز ما يجتازها ووقفه .

وقد قيل حقا ، أن الطبيعة تسير وهي ممسكة ببلجامين ؛ أحدهما للضبط . وأنواع الكف والمنع الشديدة التعقيد في حالة الخجل ، وصعوبات إطلاق الدوافع في حالة وجود دوافع مضادة ، والشلل الناشئ عن الخوف . وتخشب التنويم المغناطيسى ، والتردد الناشئ عن الارتباك أو الريبة ؛ كل هذه الظواهر مألوفة لكل مراقب للسلوك البشرى ، كما أنها تظهر في أشكال أكثر بساطة في تجارب الباحثين في علم وظائف الاعضاء ؛ فهي تمثل أنواعا من الصراع بين عمليتي الإطلاق والإمساك أو الكف ، والكبت الذى يجعل خبرتنا لا شعورية ، إنما هو نوع خاص من عملية الكف ، وهذه القاعدة الهامة التى وضعها « ريفرز » ذات أثر بعيد فى أضواء الاوضاع الطبيعية على الكبت ؛ وهي تدعم المدرك الفرويدى ، ولكن هذا لا يعنى أنها تدعم طريقة التطبيق الفرويدية بالضرورة .

ويتوغل « ريفرز » فى دراسته ، فيقرر كيف أن الطراز الفج للاستجابة « الكل أو لا شئ » — كما هى الحال فى استجابات الأطفال العنيفة — يخلى المجال للاستجابات المراتبة والمتدرجة ، وهي من خواص السلوك المكفوف ، الناضج ، والمميز ، والموجه . فالطفل يندفع اندفاعا تاما ، أو يتوقف توقفا تاما ؛ بينما الشاب .

يكيف ميلا أو اتجاها بآخر . والترابط في مهد المخ Thalamus الذى يعد مقر الاستجابات الانفعالية (كانون Cannon وغيره) ويقابله الضبط الصادر عن لحاء المخ — هذا الترابط يوحى بأنه يوجد في بنية المخ أساس وظيفي لذلك التمييز البعيد الأثرين الوظائف الاولى والثانوية . وهذا هو موضوع « علم نفس الأعماق » .

وأضيف كلمة إلى لفظتى أولى وثانوى الثمنتين لأن أهميتهما جوهرية ، ولأنى أعتقد ان استخدامهما بدلا من التعبيرات الفرويدية في حديثنا وتفكيرنا سيوضح كثيرا من العلاقات ، ويجنبنا كثيرا من الغموض . وقد استخدمهما يونج في حرية . وشرح نشأتها في رسالة إلى الدكتور « روباك » Roback فقال أنه استعارهما من « أوتو جروس » Otto Gross في كتابه « الوظائف الثانوية المخية » Die Cerebrale Secundärfunktion الذى صدر في عام ١٩٠٢ . فقد استخدمهما فيه من الناحية الفسيولوجية ، ولكن لهما دلالاتهما النفسية الهامة . ويحمل علم النفس البدائى ومشتقاته — وهو الخاص بالحالات الوضعية والسامية — هذا التميز الذى يوحى إلينا بكثير من الأفكار . وكل هذا يؤلف مدركا شاملا ، ولا غنى عنه في كثير مما تنطوى عليه الدراسات الحديثة ومنها الفرويدية . وسأستخدم اللفظتين بكثرة وبدلالاتهما ، ناظرا في ذلك إلى البدايات والنهايات الفسيولوجية والسيكولوجية .

والخصمها بقولى أن الأفعال المنعكسة ، والتأثيرات الغددية ،
والاحساسات العضوية . وأنواع التناسق الثابتة ، والاستعدادات
الفطرية ، والدوافع الغريزية ، والطباع ، وأنواع الكف ، ومستوى
حياة الطفل ، والتركيبات البسيطة فى الحيوان والمراحل الثقافية
المبكرة ، كل هذا يمثل الوظائف الأولية سواء أكان التمثيل كليا
كاملا ، أم بشكل غالب عليها . إما التمييز ، والعادة ، والتوجيه ،
والتفكير ، والانفعالات الناضجة ، والعواطف ، والاذواق ،
والمهارات ، وأنواع البراعة ، والإشراف ، والانسحاب ،
والقائى ، والآراء ، والمعتقدات ، والمثل العليا ، والمعايير ،
والوساوس ، والمبادئ والتأملات عامة ، كل هذه وظائف ثانوية
تماما ، أو يغلب عليها أن تكون كذلك . وفيما بينهما يجد علم النفس
مشكلاته ، كما تجد الحياة عقدها التى تحيرها .

وفى مثل هذه القوى الدينامية المعقدة تكثر الفرص
لاختلاط العلاقات ولاضطراب الوظائف وضلالها . وهذه
الطريقة فى التقدير ذات قيمة ثابتة للنفسيين ، سواء أكان طابعهم
العقلى نظريا أم عمليا . ومع أنها ، ككثير غيرها ، ليست من
الاسهامات الفرويدية ، فإنها ظفرت بثروة (كما أصابها الاضطراب
فعلا) باستخدام التحليل النفسى لها مما جعلها شيئا آخر مختلفا كل
الاختلاف عما هى فى وضعها الطبيعى .

ومن الخير أن نوضح مرة ثانية أن استخدام اللفظ نفسه للدلالة على عمليات متباعدة بعضها عن بعض في القياس النفسيولوجي وفي القياس النفسى بشكل خاص ، لا يعنى تحديد هذه العمليات أو واحدة منها ، ولا يدل على أن بينها وجوه شبهة ؛ ومن الجائز أن يكون التناقض من حيث « الحالة » أكثر أهمية من تشابهه يحتمل أن يبرر وضعها ضمن إحدى السلاسل التطورية لاغراض المقارنة . وفي هذا المعنى يمتد « الكف » من انسحاب الطفل من بين ذراعين غريبين ، إلى تأنيب الضمير الحى عند رجل متدين ؛ وهذا لا يعنى أن إحدى الظاهرتين هى الأخرى بأية حال من الأحوال ، كما أن الخجل ليس تأنيبا ، والتأنيب ليس خجلا .

والحقيقة القائلة بأن «جهاز» ما قد أعد لحالتى الفحص كليهما ، إنما تزود المدرك بدليل طبيعى يؤيده ؛ والمحظورات والأفعال المنعكسة الكافة يجب أن تبحث فى مجموعها بشكل مختلف كل الاختلاف . ومع ذلك فاذا ما منحنا الحيل النفسية الملائمة ، فاننا نصل إلى حالة الكف عن طريق أساسى فى حالة الحظر ؛ وهذا هو التطور فى داخل النفس ، والمشروط بالتطور داخل الجسم . والحال كذلك مع الباحث فى علم الأحياء ، فانه قد يبدأ دراسته من كائن حى العين فيه نقطة صغيرة ، ثم ينتهى بانسان

له زوج من العيون يرى بهما معا ؛ وهي كذلك عندما يقول داروين عن الجذور أنها «نخ» النبات ، فكلها تشبيهات ، وليست حقائق . ولهذا الأسباب وغيرها ، فإن اتجاه مشروع فرويد ومقصده يعد داخل نطاق التقدم الجوهرى فى علم النفس أيا كان رأينا فى طريقة تنفيذ هذا المشروع . ومن المفيد أن ندرس الاصول البدائية للتشكيلات النهائية للسلوك ، ونرى العظيم منها فى الوضع .

وهذا شيء هام للباحث النفسى « الطبيعى » ، لانه يزوده باحساس بالطمأنينة فى تعقبه لشعب السلوك اللاشعورى إلى ابعد ما يستطيع ، حتى إذا صار أثرها مبهما . وهذه الدراسة تجعله ميالا إلى مبادئ المشروع الفرويدى ، وفى الوقت نفسه تصر هذه الدراسة على أن يظل نمو اللاشعور مخلصا للادراك « الطبيعى » الخاضع للمنطق . وتميز وجوه شبه ، وعلاقات فى برنامج تطورى هولب العلوم « الطبيعية » ؛ فاعتبارها شيئا واحدا ، مع أهمال ما بينها من وجوه الخلاف الشديد من حيث حالتها ومعناها ، مغالطة مضللة ثبتت إدانة فرويد والفرويديين فيها .

نقد اللاشعور :

النتيجة العامة التى وصلنا إليها على ضوء جميع الظواهر التى يصح أن تندرج تحت اللاشعور ، هى أن « اللاشعور » عند

فرويد أنما يقوم بدور صغير في نطاق السلوك البشرى . إلا أنه دور حقيقى . ويصح أن يفسر بحق على أنه عامل من العوامل التى فى جملة نواحي النظام النفسى اللاشعورى . والدور الرئيسى فى هذه العملية وما قد تؤدى إليه هو الاندماج — اندماج الوظائف الأولية والثانوية ، والتكامل المتوالى فى النطاق الأولى الواسع . والسيكولوجية السائدة هى الاندماجية . فاذا ما تراجعت أو أخفقت التكامل ، فقد ينطوى ذلك على نوع أو درجة من التفكك الارتدادى إلى جانب الترابط السائد .

وفى الأشخاص الذين لديهم الاستعداد ، يجوز أن تصل هذه الحالة إلى تفكك عميق ، مؤقت أو طويل الامد . وهذه الحالة بدورها قد تكون جزئية من حيث تكييفها الفسيولوجى ، وهى فى الغالب نفسية التكييف . وفى هذه الخطة الشاملة لحالات التفكك (أو عملياته) ، من الممكن أن يتلائم «اللاشعور» الفرويدى ، بل أن هذا التلاؤم واجب .

ولا ريب أن فرويد يقر الناحية الاندماجية . وهو يسميها «مقدم الشعور» Fore Conscious وأنا أشير إليها كدعامة «تحت الشعور» من حيث أنها تدعم الشعور ، فالوظيفة الأولية تدعم الوظيفة الثانوية ، وفى مجال التشابه البعيد نقول أن الحساسية الأولية الغامضة تدعم وتخلى الطريق لأنواع الحساسية المميزة

وأوجه النشاط المميز . وتجد فكرة أداء تحت الشعور لوظيفته في كل الدرجات حجة بيولوجية سليمة تؤيدها في مسأله تكامل طرز التركيب العصبي . وعندما يحدث (الانفصال) التفكك في لحظات « الشرود » ، وفترات الانتباه ، وحالات الغيوبة ، والحركات الآلية ، والأحلام ، والسير في أثناء النوم ، فإن الأدوار يعاد ترتيبها ، مما يزودنا ببصيرة اضافية بالعلاقات العادية التي بين اللاشعور ومقومات الشعور .

وتبقى في هذه العلاقة وجه واحد هام ، وفرويد أن يوضحه لنا ، إذ يظهر بجلاء في تحليل الحالات العصائية ، ومن الجائز أن نسميه مؤقتاً « باللاشعور العصابي » ويجوز أيضاً أن نسمى وجه التفكك « بلا شعور الغيوبة » أو « لاشعور الآلية » . ومن حيث المزاج ، يحتمل أن يتعرض كل منا إلى مدى ما إلى أى هذين الميلين . فالمجال واسع في كليهما للتفاوت بين الأعراض الخفيفة والبارزة ، وبين السوى والشاذ ؛ ومن المبادئ العامة في سيكولوجية الشواذ أن كل هذه العلاقات تظهر أيضاً بدرجات خفيفة في الأشخاص العاديين ، وإن يكن ظهورها حاداً ومبالغاً فيه في الشواذ . وقد استقر هذا المبدأ وهو مستقل عن الأدلة الفرويدية وإن كانت قد دعمته وزادت ثروته .

والعبارة التي ذكرت توأ من أن اللاشعور العصابي يحدث في

السلسلة السوية كلها ، يجعل هذه التسمية بعيدة عن العدل ، فاللاشعور العصائى ، بعبارة أدق ، وجه من البواعث النفسية التي تظهر في بعض الأوقات (وليس في كلها كما يدعى فرويد) . وهو في حالات عصائية معينة يلعب دوراً حاسماً ، وهو فيها ينتحل صفة عصائية لا يعرضها في العادة . وأعني بهذا أننا جميعاً نحتضن ونرحب بنوع من اللاشعور الفرويدي ، كما أننا نكومه ونتفق معه . ولكنه لا يصل أبداً إلى المناسب العصائية أو علاماتها . ولكل منا أنواع صراع تشترك فيها عوامل شعورية وأخرى لا شعورية . وبما أن مثل هذا الصراع يسوده الانفعال ، فأننا نستطيع أن نلقبه كذلك باللاشعور الانفعالي ، وإذا ما فهمنا اللفظ على أنه لا يتضمن إلا اتجاه انتحال الأعذار ، والحرب ، وهما من حيل التحول الفرويدية ، فإن اللاشعور ، الفرويدي يصير متميزاً ومقبولاً معاً .

وملخص نقدي هو أن فرويد يلجأ إلى هذا اللاشعور الانفعالي ، عندما يكون اللاشعور المتفكك (نوع من الفشل في الاندماج) كافياً ، وطبيعياً ومقنعاً إلى حد بعيد . ولعل مثلاً نضربه يساعدنا في فهم هذه المسألة ، وليكن المثل بسيطاً ، وبغير علاقة هامة بموضوع فرويد الرئيسي ، بل بمنطقه فحسب ، فإن عامل التفكك البسيط لحالة عقلية من حالات الذهول يمكن أن يعلل بأنه فلتة تعليل كاملاً ، بل أنه ليعلمها عادة .

وهب أن خطيباً وقف في إحدى المناسبات ليجد أعمال شخصية عظيمة ، ولكن لفظتين اختلطت مخارجهما فنطقهما في لفظتين آخرين تتفقان في الحروف والجرس ، وإن اختلفتا في الترتيب مما يكسبهما شيئاً من محاولة التهجم على رئيس الخطيب^(١) . في مثل هذه الحالة يدرك أكثر السامعين ما يعنيه الخطيب . فقد ألفوا منه تلاعبه بالآلفاظ ، وما ينجم عن ذلك من فلتات ، كما يعرفون أيضاً أنه ليس على وفاق مع رئيسه .

وإذا ما قبلنا الباعث اللاشعوري ، فمن الجائز أن نستنتج أن العواطف عبرت عن فكرة عميقة كتبت بطريقة دبلوماسية لبقة . وبما أنه كان معروفاً بارتكاب مثل هذه الغلطات ، وبدون وجود مثل هذا الباعث ، فإنه يبدو من الاوفق أن نعتبر هذه الغلطة أيضاً حدثاً عارضاً نشأ عن الغفلة وعدم الانتباه ، وأن نكف عن جعل الحجة قبة وتؤلف الكتب الخيالية المتكلفة عن « العلل النفسية في حياتنا اليومية » من موضوع يصح أن يكون خطاباً ارتجالياً عارضاً يلقى عقب مأدبة غداء اقيمت لجماعة من علماء النفس .

(١) ذكر المؤلف مثله عن احتفال بيويل الملكة فيكتوريا وإن الخطيب كان كاهناً أراد أن يقول « ملكة عزيزة » Dear Queen فزل لسانه وقال Queer Dean أي رئيس غريب .

ولعل اخطر الفلتات شأنها هي فلتة حاسة مراعاة التناسب ..
ومن أمثلة هذه الفلتات : جاويش يتولى تدريب بعض الجند .
ففي لحظة اضطراب يصدر إليهم أمراً في الفاظ حروفها مختلطة^(١)
ولكنهم يفهمونه على أنه « إلى الأمام سر » ، ولو كان بينهم أحد
الفرويديين البارعين لحلل زلة الجاويش وتساءل — لماذا يحدث
هذا الخطأ المعين ؟ فلا بد من سبب له ، فإن إحدى عباراته من
ألفاظ الهنود الحمر وتعني زوجة ، ومن ثم يستنتج أن الجاويش
ليس على وفاق مع زوجته ، وأنه يخشاها ، ويتلقى منها الأوامر .
وهذا في عرفة هو المفتاح اللا شعورى للخطأ . ولكن هل هذا
علم أم هو مجرد لعبة في وسع أى إنسان أن يلهو بها إن وجد فيها
ما يسره وما يستحق الاهتمام ؟ .

وكان من المعروف قبل التعديل الفرويدى وبعده ، أنه
توجد مجالات متوازية لأفكار شعورية ولا شعورية ، وأن
اللا شعور يزود الشعور ، وفي بعض الأحيان تعترض إندماجهما
وتكاملهما عقبات وفجوات ؛ كما عرف أنه يحدث بين حين وآخر
أن جزءاً من باعث يستعجل النتيجة ويظهرها . كل هذا واضح

١ — ذكر المؤلف اللفظة المختلطة على أنها Squawward وصحتها بالانجليزية
Foreward Squad ولفظة Squaw تعني زوجة بلغة الهنود الحمر .

في عمل اللا شعور الذي يخضع في بعض الأحيان لضغط الكبت .
وهذا لا يحتاج إلى « لا شعور » متميز عميق لا حياء ذلك الوجه
المغمور الذي لم يخلف أثراً أو دليلاً ينم عنه حتى يقتضى الأمر
وضعه في قسم منفصل .

وبما عرفناه عن التفكك الشاذ نسلم بأن الانغمار يحتمل أن
يكون عميقاً في العصايين في أى مكان أو زمان . وأن ما هو
مغمور لا يمكن احضاره إلى السطح إلا بوسائل غوص خاصة ،
ولكن هي التنويم المغناطيسى ، أو الانطلاق عن طريق التفكك ،
أو الافاضة في الحديث الحر بمساعدة التسداعى ، أو تفسير
الأحلام ، أو أية وسيلة أخرى .

وهذا رأى المرن السهل التشكل عن مدى اللا شعور ، وعن
الباعث النفسى ، الذى يحتمل أن يكون كبير القيمة أو صغيرها ؛
هذا رأى ينسجم إلى حد بعيد مع جملة المعلومات عن التكامل
النفسى للوظائف الأولية والثانوية ، وهو أيضاً أكثر تلاؤماً
مع الناحية الطبيعية ، وهو مدعاة لتجنب التطبيقات المتطرفة للباعث
أو للكبت المغمور في أعماق بعيدة ، فهو يفرض علينا أن نرجع
باستمرار إلى النظام التصاعدى للوظائف الذى تنمو فيه العلاقات .
وهذا رأى كان جديراً بأن ينقذ فرويد من زلته التى لا تغتفر ،

والتي جعل فيها العقد النفسية عامة ، مما جعل اللعنة الأبدية الجنسية تحل بكل من ولدته امرأة .

ويضاف إلى هذا أن فرويد يخلط بين مصدرى محتويات اللاشعور ؛ فأحدهما يستمد محتوياته من خبرة الفرد الخاصة ، ويمثل المجموع الكلى لما أريد أنا نفسى نسيانه من حوادث الماضى والحاضر ، سواء أكانت اعتداءات أم ذنوبا أم عقبات ، فهى خفاياى الشخصية التى يحتمل ، بل يجب ، أن أعرفها ولومعرفة جزئية . والمصدر الثانى لمحتويات اللاشعور فطرى إلى مدى بعيد ، وهو بدائى وعتيق حتى أنه ليبدو « سلاليا » وتطوريا ، ويصل تياره إلى مراحل الطفولة ؛ فهو يعمل فى شكل غير تام من أشكال النفسية ، ومع ذلك فهذا اللاشعور الغامض ، المبكر ، والناقص ، هذا اللاشعور نفسه هو الذى يظفر من فرويد بقدره سحرية تجعل صداه يتردد ويحس بعد سنوات طويلة ، فتحس تفاصيله ومعالمه بكل وضوح ، وتصاغ آثاره فى صورة واضحة حية . ومن الجائز أن يكون اللاشعور واحدا من المصدرين ، ولسكنه من العسير أن يكون كليهما ، فإن حدث تألف منهما معا ، فإنهما لن يكونا متساويين . ومن العسير أن يتعرض الشاب لإحياء انطباعات الجنين المؤدية إلى رغبات العودة إلى الرحم ، وإلى الخوف من الأماكن المغلقة وهو فى سن العشرين لمجرد أنه سبق أن أُرهب أو حبس وهو فى سن

السابعة . وكل هذا يحدث بالاجهزة النفسية ذاتها .

وهذا اللاشعور المبكر ، البدائي ، العتيق إذا ما استمر على أى وجه من الوجوه ، فإنه سيكون فى طبيعته عبارة عن إحساسات وجدانية وتوترات حركية غامضة عديمة القيمة لأغراض التحليل النفسى . ومن المؤكد أنه لن يكون أفكارا أو ذكريات أو غير ذلك من المنتجات النهائية التى تظهر كعقد فى عيادات التحليل النفسى . ومن المشكوك فيه إلى حد بعيد أن يستمر هذا اللاشعور لأن مجراه الطبيعى يختفى اختفاء تاما بالاندماج فى المراحل المتأخرة لنمو المصالح المتصلة . وقد واجه « يونج » هذه المشكلة ذاتها ، وفى جراحة أضاف لاشعورا جماعيا إلى اللاشعور الشخصى . وهو اقتراض يضيف تعقيدات جديدة لا سبيل إلى التوفيق بينها .

وقد تحول فرويد بطريقة تعسفية مضطربة من المستودع البدائي إلى الشخصى لتحقيق أغراضه ، فهو كيونج يتشبث بموقفه ، وينسجم مع نفسه على حساب أستنتاج متكلف بعيد وغير طبيعى . ولهذا رأى فرويد أنه من الضرورى أن يفترض وجود تفتح نشوئى تظفر فيه الاحداث المبكرة العتيقة الطفلية بقيم نوعية واضحة فعالة فى تكوين سمات ناضجة بشكل عام ، وفى تكوين

الأعراض العصائية بشكل خاص . ومن هنا نشأت الفروض المذهلة الخاصة بالحياة الجنسية في الطفولة والتي فسرت على نمط ما عند الشبان الراشدين ؛ ومن هنا الرواية الخيالية عن « غرام الاسرة » ، ومن هنا أيضا ما تؤدي اليه من أنواع العقد والتثبيات ثم أنواع ندب الولادة ، والسمات الخاصة بالفم والشرح والقناة البولية ، ومن هنا أيضا نشأ الكثير مما وصف بأنه « أساطير » فرويدية ؛ وكل هذه ليست إلا عذوانا كبيرا على المبادئ الأساسية لعلم النفس « الطبيعي » .

وزيادة على ذلك فإن التفسير الفرويدي غير « طبيعي » من حيث أن حالة اكتمال الكبت فيما يختص بالنفس الشاعرة يجب أن تتلائم مع قوة البعث المذهلة التي للامر المكبوت . فاللا شعور الفرويدي مدفون ، ولكنه مدفون بالحياة . أما الوفاة ، وطقوس الجنازة ، فتظهر على هيئة كبت . والشبح المزعج يبدو في أنواع الصراع والتثبيات والعقد النفسية والانحرافات وغيرها من الاشباح الحية في الواقع ، والتي تواصل تحالفها الطويل الدائم على ذواتنا المزعوم أنها ماتت ، والتي أخفقنا في السمو بها ورفعها ، بل أننا في الواقع هبطنا بها إلى حضيض الأمراض العصائية والبؤس والانحرافات . وبمثل هذه الطرق المختلفة يؤدي

التفسير المضلل الكاذب للاشعور إلى نتائج وخيمة العاقبة في فهم مظهر البشرية وتكوينها : وهو بذلك يسهم أيضا في ابتكار طرق ضارة مشكوك فيها ، وفي حلول كاذبة عن توجيه الحياة البشرية في صميمها .

وهكذا فإن ما قد يبدو زلة طفيفة ، وهي زلة نظرية في جملتها ، يؤدي إلى ابتعاد التحليل النفسي ابتعادا كبيرا عن العلم ؛ فإن أنحرافا بسيطا في الأساسات يكفي لجعل المبنى كله يميل ثم ينهار . فمصادر الاخطاء والفوضى ترجع إلى تنفيذ تفصيلات الخطة الفرويدية ، وهي التفصيلات التي تعين المعالم الخاصة للبيت الذي بناه فرويد . ولا مفر من إن أختم قولي بأن الاشعور عند فرويد ليس إلا أسطورة رائعة نمت عن طريق العدوان على المبادئ المنطقية .

ويختلف هذا الاعتراض والاستنكار أثرا سلبيا حيال جملة ما جاء به التحليل النفسي ، ومع ذلك فإنا نعتزف بأن هيكل التحليل النفسي ، واتجاهاته مساهمة ممتازة في علم النفس الحديث تنير له الطريق . وفي وسعي أن أقول أنني أقبل قائمة محتويات الموضوع كعناوين لفصول ، ولكنني أرفض المحتويات نفسها ، وبتعبير آخر أنني أوافق على شخصيات المسرحية ، ولكنني لا أوافق على المسرحية بالشكل الذي عرضت به . وأعتقد إن التحليل النفسي

يقيم في معبده الملائم ، ولكنه يحتل فيه مقعدا غير مقعده .
 وفي رأى أن الاندماج السيكلوجى القائم على العلاقات بين
 الوظائف الأولية والثانوية وتكاملها ، إنما يتضمن بما فيه الكفاية
 الحقائق الأساسية فى النظام الفرويدى ، وفى الوقت نفسه يتجنب
 مبالغاته وتشويهاته وسفسطته الحادة العنيفة .

الليبد والاعلاء

سألتزم فى نقدى لمدر ك الليبد نفس الطريق الذى سلكته
 من قبل . فإن أبناء جيلنا الحاضر والاجيال المقبلة سيكونون
 مدينين لعبقرية فرويد بتقديره النواحي الليبدية فى الحياة النفسية
 حق التقدير . وموضوع النقاش هو مجرى الليبد ، وكذلك
 مضماره ، وحجته لا مبدأه . وعلى هذا الأساس سأستأنف المناقشة
 من حيث الحجة الفرويدية ، فهى فى الواقع تؤلف أساس الخلاف ،
 وتفصل بين معسكرى الفرويديين واللافرويديين ، وأتباع كل منهما .

أما موضوع الاعلاء فهو ، بحكم نطاقه الواسع ، خارج حدود
 هذا البحث ؛ فقصة الاعلاء هى قصة المدنية . وأنى لأقبل كل
 القبول مسألة الاعلاء من حيث هى عملية فى النمو ، وكأداة لتوفير
 الصحة العقلية ، لكن هذا لا يتفق تمام الاتفاق مع وجهة نظر
 التحليل النفسى . فالاعلاء عند الفرويديين هو احلال الاهتمامات

أو طرق البحث عن اللذة محل الاهداف الجنسية الطفلية ، وهى اهتمامات ووسائل لا تعتبر جنسية بطريق مباشر ، وأن تكن متصلة بها من الناحية النفسية ، فضلا عن أنها من مستوى اجتماعى مرتفع .

وعلى هذا الأساس تعرض أوجه النشاط الاعلائى على أنها خلو من الناحية الجنسية ، أو محظورة الغاية ، ويتضمن الاعلاء أيضاً اتجاهات تعويضية فى وظائف مرتبة بالاجراءات الجنسية ، ومنها النرجسية أو عشق الذات . وهذا اللفظ فى ذاته يلخص حدود المدرك الفرويدى ، وهو أن جميع أشكال عبادة "الانا" المتأخرة الظهور المستمدة من الرضى الشهوانى الذاتى الناشئ من شخص المرء ذاته من حيث هو نفسه موضوع حب . على النمط نفسه تتسامى سادية لبيدية ذاتية فتتحول إلى قسوة عامة ، أو إلى اختيار المهنة كجزار أو جراح مثلا ، وبذلك تقدم مخارج متوازية .

وبما أن شرعية هذين المدركين وثيقة الارتباط بمسألة النمو الجنسى النفسى التى تتغلغل فى كل وجوه الحجة الفرويدية ، فمن الافيد أن نتناولها بالنقد فى هذه المناسبة ، وحسبنا الآن أن نبتسر النتيجة ، وهى أن الفكرة الفرويدية عن اللبى والاعلاء منحرفة بتأثير المغالاة فى تقدير العامل الجنسى ، كما أن الوظائف

« اللاشعورية » ، تسير في طريق خاطيء (ولأسباب أخرى) بفعل المغالاة في تقدير عامل الكبت . وكلا الانحرافين يلتقيان في نقطة واحدة ، رغم أن نقد المعلومات الجنسية والأمراض النفسية عند فرويد يقدم عدة مسائل خاصة وأخرى عامة تستدعى الهجوم العنيف .

وعندما تقدر الفرويدية بميزان العلم ، فإن نقصها يظهر بجملاء . وأهم نقص فيها هو خطأها في فهم الأوجه « اللاشعورية » ، في الاقتصاد النفسى ، وأكبر فضائلها هو توجيه العناية إلى هذه الناحية بالذات ، وما يعمل فيها من بواعث نفسية . وقد حرصت على مناقشة هذه المقومات المنطقية بالتفصيل لما لها من نتائج كثيرة ولما لى من خبرة سابقة بالسيكولوجية الفرويدية .

والنقص الكبير الثانى فى الفرويدية هو شدة مغالاتها فى صبغ اللبىء بالصبغة الجنسية ، مما يؤثر على تطبيق التحليل النفسى ووسائل ممارسته ويشكل ماله من اغراء يستهوى الناس ، كما يحدد مواد الحجة الفرويدية . وستعرض هذه الأوضاع العملية للمناقشة فى الفصول التالية . وإذا قدر للتحليل النفسى أن يصير علما ، أو أن تتحول ممارسته إلى فن علمى ، فلا مفر من صب مبادئه فى قوالب جديدة ، وأن يصلح من شأن طبعه واجراءاته ؛ أما فى

شكله الحالى ، فهو كتلة مدهشة من النتائج التى لا تجد ما يدعمها ، وبمجموعة من الفروض غير الطبيعية التى انتقلت إلى مرحلة التنفيذ والتطبيق ، وهى معتمدة على وسائل تأملية سخية ووثيقة الصلة بعدم تقدير المسئولية مما يجعل التحليل النفسى طريداً فى ميدان العلم .

كان على فى هذا الفصل أن أعرض على المعنيين بالدراسات النفسية أسباب الرفض البات للاشعور الفرويدى ، أما للقارىء العادى ، فإنى أعرض النتائج بأسلوب ايسر ؛ فليس هناك دليل على وجود مثل هذه المنظمة أو العملية ، والوظائف التى عزاها فرويد إلى «الاشعور» غير طبيعية . أما إجراءات «تحت الشعور» فتظهر فى أمراض العصاب ، وفى الاحلام ، والفلتات ؛ وهى واضحة كل الوضوح من نواح متعددة ، أما تفسيرها الشرعى ، فمسألة ضخمة من مسائل علم النفس .

الباب السابع

الحجة الفرويدية

التحليل النفسى فى حاجة ملحة إلى فحص تحليلى شامل ، ولتحقيق هذا الغرض وضع هذا الكتاب . وتتبع الأدلة فى موضوع الفرويدية فى مواجهة سائر أنواع علم النفس الأخرى يعد حجة فى حد ذاته . والحجة الفرويدية أنما تتعلق بالطرق التى يستخلص بها الفرويديون « حقائقهم » ، ثم يفسرونها ويصوغونها على أنها نتائج يطبقونها فى ثقة ويقين . ومثل هذه الحقائق لم تأت عفوا ، بل ظهرت بعد بحث مستفيض ، وكان هدفها المشترك هو تأسيس موضوع .

وهذا إجراء شرعى لا غبار عليه ، وكثيرا ما يكون ضروريا ، لأن الباحث لا يستطيع أن ينطلق فى المسائل العامة على غير هدى . والحقائق الهامة فى جميع مجالات البحث ظهرت من السير فى نفس الطريق الذى سلكه الفرويديون . ومثل هذه الحقائق تصطبغ فى العادة بالنظريات ؛ ولا نعترض على هذا أيضا ، إذا ميز على هذا الأساس ، ولكن قيمة الحقيقة والنظرية واحدة ، فهما كراس

المال وما يدره من ربح في مؤسسة استغلالية واحدة . ومن الجائز أن تكون أوراقه ، كبيرة الأهمية في سوق العلوم . ومن الجائز أن تكون طفيفة ومشكوكا فيها ، بل تافهة ، أو ما هو أسوأ من ذلك . وهذه العبارة تلخص طبيعة الأدلة المقدمة في قضية التحليل النفسى .

وفي رأي أن الحجة الفرويدية تغلب فيها السفسطة ، فتجدها في كل الأهداف والتفاصيل لسبب بعينه أو لأسباب أخرى . ولهذا كان تقديرى النهائى لها ضعيفا ، رغم أن هذا التقدير غير شامل ، ومن غير تفريق بين المسائل المختلفة . وأنى لوائح من أمكان الحصول على تحليل نفسى معقول ، حتى أنى آسف للاتجاه الذى سارت فيه هذه الحركة الواعدة التى تبشر بنتائج طيبة . وفي رأي أن التحليل النفسى مخطىء في منطقته مما حرمه بلوغ المستوى العلمى . ويضاف إلى هذا أن مسلكه المنطقى مضطرب ، ضار بالسعادة العقلية عند الناس .

وتقوم نظريات فرويد على نسيج من فروض تأملية بشكل غريب ، مما جعل نتائجها في صراع حاد مع الأوضاع المستقرة التى دعمتها الأدلة السيكلوجية تدعيما جيدا من عدة مصادر . وهكذا تتجاهل الحجة الفرويدية الأوضاع المألوفة وتجرفها لتشمل مدى التأمل كله مما يقبل بشكل سطحي ، وينغمز إلى حد السخف

البالغ . فحجة فرويد متعاطلة سخيقة ، مضللة خداعة . طموح ، خبيثة ، ومتضاربة . وقد أنتشرت أنتشارا واسعا من غير تقدير للمسئولية . وفي هذا المجال لا أملك إلا أن أذكر بعض نماذج من أخطائها الضخمة واعتدائها الكبيرة مما يظهر في تفسير الفلقات والأحلام ، وفي تعقب مجرى النمو الجنسي ، وفي تقدير سمات الخلق .

ولا ريب أن هذا حكم كاسح ، وأتهام شامل أعرف مضمونه كل المعرفة . وهو يحمل بين طياته اتهاما آخر إذ يفترض أن مئات من ذوى العقليات القديرة أندفعوا إلى ارتكاب أخطاء خطيرة ، فاضاعوا مواهبهم ، وساعدوا عمليات الاضطراب والنكوص ؛ وهذه الأحداث شائعة في تاريخ الآراء الملتوية الكثيرة الدروب . وهذا الفصل في ذلك التاريخ فريد من نواح متعددة . ومن وأجبي أن أعرض على القارىء فرصة الحكم على الأسس التى بنيت عليها نتائجى . وهذا يتضمن رحلة طويلة ، لأن النظرية الفرويدية واسعة المجال مترامية الأطراف ، وفي كل من نواحيها وأجزائها أطلب إلى القارىء أن يذكر مواقف الفرويديين كما عرضتها ، وكانت في بعض الأحيان مشفوعة بتعليقاتى النقدية . وإذا ظهر الطريق طويلا ، فلنذكر أن المؤلفات الفرويدية ضخمة

إلى حد مذهل . ومن واجبي أن أعرض على الأقل واثائق منتقاة
تمثل ما أعارضه من نتائج .

إستدلال بالعوارض

يصر فرويد على أن مراتب معينة مألوفة من الأخطاء العقلية
كزلات اللسان ، أو القلم ، وسوء التناول ، ، والنسيان والفلتات
عامة ، إنما هي حيل نفسية لها بواعثها ، أو هي نوع من التسرب من
« اللا شعور » . وأول عقبة تواجه الحجة هي أنها غير قابلة للتطبيق
في الجانب الأكبر منها ، وذلك من حيث نظام السلوك المفروض
أن يتمثل فيه المبدأ . أما مدى أهمية ذلك ، أن كان صحيحا ، ومتى
يمكن أن صحيحا ، فمسألة أخرى . وتعتبر الحجة هذه الزلات
الشائعة أجزاء من بواعث نفسية أفلتت باقتحام حاجز المقاومة
« اللا شعورية » . وإذا ما أنطلقت من معتقل المكبوتات فإنها تتسلط
على عضلات العادات المنظمة وتحركها .

وهذه هي الفلتات الإيجابية (الحركية) ؛ أما النسيان ، وفقد
الأشياء (إلا إذا كان الفقد ناشئا عن طريق وضع الأشياء في غير
محلها) فيقال عنها أنها تطرد من « اللا شعور » ، فهي فلتات سلبية .
وعندما تفسر الفلتات وفقا لهذه القاعدة ، فإن « علم الاعراض » ،

الفرويدى يتجاهل التفسير الواضح والملائم ، وهو أن الجهاز العقلى البشرى ناقص ، وأن العقل يقع فى هذه الاخطاء باستمرار ، فالخطأ سمة بشرية . ولكن يظهر أنه من خواص الفرويديين أن يتنبأوا بأسباب خفية غامضة ، ويفضلوها على الاخرى الواضحة كل الواضوح .

وكل انسان يعرف مدى أستعداد العمليات المنسقة تنسيقا دقيقا للتصدع مما تفسره الكتب المدرسية الاولية فى علم النفس . « والسبب ، الواضح للفلتات من النوعين الايجابى والسلبى هو أنها تظهر كنتيجة « طبيعية » لا مفر منها بفعل أنصراف الذهن إلى شىء آخر ، أو بفعل الارتباك ، وعدم الانتباه والغفلة . وهذه تحدث بطريقة ثابتة ، وأن تسكن غير منتظمة ، وتتناول فى الغالب مسائل تافهة ، وأكثرها يتسم بالطابع الانسانى . والتعرض للفلتات ضعف بشرى عام مؤلم ، متعب كل التعب ، وله ثمنه الكبير . ولا يخفى أن كل شىء من الاشياء المريحة والتمينة معرض للضياع ، أو إن يوضع فى غير مكانه ، أو أن ينسى أمره فى شتى نواحي النشاط البشرى . وفى كل مصلحة للسكك الحديدية ، وكل متجر كبير تجد مكتبا خاصا للاشياء التى يعثر عليها بعد أن يفقدها أصحابها .

ولو كانت كل سلعة تصل إلى تلك المكاتب تنطوى على قصة فرويدية ، — فتفقد لأنها مرتبطة بذكرىات غير سارة — لما

أقبل الناس على المطالبة بها ، وأستردادها في لهفة ؛ ولما أعلنوا عنها . وقدموا الجوائز نظير ردها . ولعل الإنسان الوحيد الذى ينجو من أنفاق شيء من وقته فى تتبع مفاتيح فلتاته اللاشعورية هو المتزمت المتعصب للأخذ بالنظام فى دقة متناهية ؛ فالفلتات لا شعورية من حيث تناولها بنصف أفتباه فى حالة الانشغال بشيء آخر ، وعندما يحتم على ذاكرتنا أن تسقط بعض محتوياتها لأن عقولنا شديدة الانهماك فى أمر ، أو تستجيب لطلبات لا حصر لها . ومن الجائز أيضا أن نفسر أخطاء تلمية عاملات التليفون والموظفين لطلباتنا ، على هدى أنواع الصراع الفرويدى الناشب فى صدور أولئك العمال والموظفين بسبب مسائلهم الخاصة . ولا ريب أن هذا نتيجة عرجاء واهية ، ؛ وسيتلوها أخرى تتساوى معها فى العجز .

وهنا يخامرنا شك جوهري ؛ فإذا كان فرويد ، ذلك العقل المدبر للتحليل النفسى ، فى تقديمه إحدى حججه إلى أقصى مداها يتجاهل مثل هذه المسائل الواضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار ، فكيف يستطيع الإنسان أن يثق بأية نتيجة من النتائج التى وصل إليها ؟ .

ولعل الاستشهاد بالدكتور « تاننبوم » Tannenbaum ينير لنا الطريق ، فقد كان ممن مارسوا التحليل النفسى فترة من الزمان إلى

أن أقتنع بخطئه وخطأ وسائل التحليل . وقد بين كثيراً من الأخطاء في سيكولوجية الخطأ على الطريقة الفرويدية . وروى حدثاً منزلياً ، فقال أن السيدة « ت » كانت تقشر بطاطس عندما دعيت فجأة وفي وقت واحد للاستجابة على ثلاث طلبات ملحة عاجلة ، إذ دق جرس الباب والتليفون ، وفي الوقت نفسه غلى الحساء حتى فاض من إنائه ، واحتارت لا تدري أى الأعمال الثلاثة تؤدي أولاً . وفي عجلتها وارتباكها جرحت إبهامها بسكين تقشير البطاطس .

ومن الواضح أن اشتغال السيدة بمجموعات من العادات الحركية المتضاربة تضمن عدم الانسجام بينها ، ومن ثم حدثت الزلة ، وحدث جرحها لإصبعها . وفي وسع أى إنسان أن يبتكر تفسيراً فرويدياً ينطوى على أنها تعاقب نفسها بنفسها ، أو تشعر بذنب ما . ومن الميسور أيضاً أن نجد رموزاً لشيء ما فى الإبهام والسكين والبطاطس أو البصل أو أى نبات آخر يسبب الحدث ، ولكل منا أن يقدره وفق مرامه سواء أكان رمزاً شريراً داعراً أم رقيقاً ؛ ولكن ماضورة هذا ؟ ولماذا يتفق ظهور القمر الداخلى مع الاضطراب الخارجى ؟ .

وإذا ما تخلينا عن قواعد الذوق والمجاهلة ، قلنا أن الفرويدى المتحمس ينسى الحلول الواضحة لأنها لا تلائم نظريته ، أما الاجابة

العلمية فهي أن باعثاً ضعيفاً — وليكن من الطراز الفرويدى الذى فرضت عليه الرقابة — لا يمكن أن يحتل مكان العوامل الأخرى التى تدخل فى حساب سيكولوجية الخطأ . والخلل الأساسى فى كل الفرويدية القائمة على الأعرض ، هو التجاهل الواضح لعمليات العقل المألوفة . ولا نزاع فى أن القواعد الفرويدية قد تنطبق ببراعة على بعض الحالات ، وأحيانا وفى حالات أخرى تنطبق إنطباقاً جزئياً . ولم تكن كل هذه الاتجاهات مهمة كل الإهمال قبل فرويد ، ولكن الفضل يعزى إليه فى تمييزها بجلاء ، فهو الذى وضع هذه الأحداث فى نطاق البواعث النفسية ، وهو الذى أضاف إليها لازمات معينة تعدهى الأخرى — بوصفها صفات ثانوية لخلق المرء — أعراضاً لها دلالتها .

وستحتل الزلات ذات الدلالة مكانها بين الآليات العقلية التى قد يوحى فشلها العرضى أو يكشف عن "محول" اللاشعور الذى يكون فى غير موضعه ، فيخرج مجرى التفكير أو السلوك عن الاتجاه الذى قصد به أن يسير فيه . وعلة الفصل الذى كتبه فرويد هى أنه بدل أن يكون خفيفاً بسيطاً ، ومتوخياً للحذر والإيحاء انغمس فى سلسلة من ألعاب بهلوانية عقلية مربكة جعلت من الحبة قبة ، ومع ذلك فجوهر حجته صحيح . أما بعد البواعث وتحريف الحيل التى استغلت فى التفسير ، فإنها جعلت موضوعاً كان من الجائز

أن يكون إسهاما علميا متواضعا — لو أنه نفذه بحكمة — جعلت منه لونا من مغالطات الدعاية وسفسطها .

وبمجرد أن نقرأ امشاج العينات المختلفة الالوان التي قدمها فرويد للاعراض ذات الدلالة عنده ، ولا سيما إذا ما أعدنا قراءتها ، فأننا نهم بالتساؤل أن كان هو أو نحن قد فقدنا عقولنا . فان كانت القراءة الاولى عابرة ، فما على القارئ إلا أن يعود وبقراءة بعين الناقد ما عرضه وفسره فرويد المحلل من فلتات ، وما عرضه منها في تحليله لذات نفسه . فيراه في الفلطة الاولى شارداً للفكر ، ويصعد من درجات السلم اكثر مما يريد ؛ ويجده في أخرى يلتقط في سرعة شوكة رنانة بدل مطرقة ؛ وفي ثالثة يسقط في حركة غير رشيقة غطاء أداة من على مكتبه المزدحم بالادوات ؛ وفي رابعة يركل في لحظة نشوة حذاءه الذي يلبسه في المنزل فيسقط تمثالاً صغيراً . وبعد هذه القراءة الثانية الدقيقة ، على القارئ أن يسأل نفسه في جدية تامة أن كانت تلك التفسيرات علماً حقاً أم هي مجرد مزاح صيغ في قالب علمي .

ومن منا لم يتجاوز مقصده في أثناء سيره عندما يشبث عقله بما هو بصده إلى التفكير في بعض مسائله الخاصة ؟ ومن منا في عجلته لم يلتقط شيئاً بدلاً آخر ؟ ومن هو ذلك الذي لم يقلب بعض

الاشياء سهوا؟ ومن منا لم يخضع لدافع فجائي؟ واخفق في أن يكون حريصا محتاطا لنفسه؟

الواقع أن الفاظ شرود الفكر ، والعجلة ، وعدم الانتباه ، والاندفاع ، إنما هي تعليل كاف لهذه الفلتات ؛ وهي أيضا التفسير الملائم الذى تقتضيه الفلتات نفسها ؛ أو يمكن أن تسمح به . ولك أن تتخيل نوع الحياة التى نعيشها إذا والينا أجراء تحليل نفسى لكل ما نعمله من فلتات .

ويبدو أنه خير لنا أن نعود إلى عهد الخرافات عندما كانت كل حركة تافهة تفسر على أنها نوع من التطير ، وعندما كان كل حدث يؤخذ على أنه بشير خير أو نذير شر ؛ حتى التوافه من أنواع السلوك النفسىولوجى من العطس إلى التهاب الاذن أو خدر الأطراف ، كانت تفسيرات على اساس مبادئ حتمية سحرية مزعومة . وما يثير الحنق فى هذه التفسيرات ، ليس ما تحدثه من مضايقات ، بل سخر إجراءاتها ، فبمثل هذا المنطق يستطيع المرء أن يثبت أى شىء ، أو لا شىء على الاطلاق . وان كانت هذه هى البراهين عند الفرويديين ، فانى لا الوم كل ذى عقل او كل مشغل بامور مفيدة مربحة ، إذا ما عف ورفض ان يستجيب لنداء احد الفرويديين إذ احب ان يتحدث اليه بالتلفون .

ومن الشائع أيضاً في استخدام الفرويديين لحجة الأعراض والعلامات ، أغفاهم للمألوف . ويبدو كأن الغرور يدفعهم إلى جعل ما يعرفه كل إنسان كشفاً مبتكراً من اكتشافاتهم . وهذا الميل إلى إحداث صخب قوى بشأن مسائل تافهة من الصفات الثابتة في الفرويديين حتى أنه ليشير الانتباه ؛ وهو يكشف في وضوح عاداتهم العقلية ، وعقدة التحليل النفسي . وهي عقدة مسئولة أكثر من أى عقدة أخرى أنشأتها الطبيعة ، أو اصطنعها الإنسان ، عن جانب كبير من المؤلفات الفرويدية .

وتحدث فرويد عن ناحية من مهنة التمثيل المسرحي كما تؤديها «الينورا دوز» Eleonora Duse مما يبين د من أى أعماق تستقي قنفا . وقد سار جونز Jones على منواله وأضاف قوله «أن التمثيل يوضح تعمق الممثلة العظيمة في دراسة الخلق ، . وما هو هذا «الفعل ذى الدلالة ، العميقة ؟ لا شيء أكثر من أنها في لحظة تأمل وعلى أثر شجار مع زوجها ، ودخول حبيبها كانت تعبت بنخاتم زواجها ، فتخلعه ، ثم تعيده إلى مكانه ، وأخيراً إزالته ... مجرد عملية مسرحية واضحة كل الوضوح ، وبشعور تام ، لأنها إذا كانت لا تؤديها ، فإن جمهور النظارة لن يستطيع تتبعها بإدراك ، وبالتالي يضيع التأثير المنشود .

مثل هذا الاسراف في الاكبار من شأن التوافه كثير في

التعاليم الفرويدية مما يدعو إلى التشكك ، ويشعر كل قارئ ناقد بأن العلم والطابع العلمي وسيلة استغلالية في يد محام يريد خداعه ، أو فرض شيء عليه . وقد لوحظ مراراً أن العلم يجعل المجهول معروفاً ، والمعروف أكثر وضوحاً . والعلم الكاذب في نزوته الضالة يحاول أن يضيف على ما هو مألوف جواً مفتعلاً من التمويه والغموض . وعلم ، الأعراض ذات الدلالة ، ، مثل كثير غيره في الحشد الوافر من المكتشفات الفرويدية ، يسير دون أن يعنى بمظهر سليم معين اتفقنا على أن أفضل وأكرم اسم له هو الذوق السليم .

حدود الحتمية

بما لا نزاع فيه أن وجهاً أو آخر من وجوه الحجة الفرويدية ينطبق في بعض الأحيان ، انطباقاً كثيراً أو قليلاً ، وبطريقة شبه مقبولة أو محتملة ، ونحن في لعبة دائمة نميل فيها مرة إلى الهزل وأخرى إلى الجدل بين تعبيراتنا وبين ما نتعرض له من كبت . ومن المؤكد أن شحنات ضعيفة من جملة بواعث نفسية ثانوية تختلط بالبواعث الهامة ، فإذا ما أخفقت في اختلاطها انبأت عن مصدرها الذي لم يكن لينخطر لنا على بال ، ولكل هذا شيء من الأهمية في النطاق المعقول . وكل اعتقاد ، أو نظرية أو تفسير

يفلت من هذا النطاق عن أى طريق ، يتخذ شكل الوهم والخداع ولا يكون الأمر فى الحجة هنا نزولا بها إلى حد التسفيه ، ولكنه إحكام لهذا التسفيه، وهذا نوع من الغلط المنطقي (المغالطة) إمتاز به الفرويديون إلى درجة يحتمل معها أن يعرف فى المستقبل باسم « المغالطة الفرويدية » ؛ فالمحلل النفسى ، أكثر من أى إنسان آخر ، فى حاجة إلى المؤهلات التى أدهاها ، وهى أن نظرتة إلى الأمور أصدق وأعمق وأكثر موضوعية من أصحاب العقول غير المدربة . فإذا كان ظفـره بالنظرة العميقة قد أعماه عن رؤية المنظر الواضح على السطح ، لكان حالة أجدر بالثناء والأسف مما قبلها . وإن كان اعتناق الفرويدية يحتم على المرء أن يكون متعصبا فى إخلاصه لها ، فإن هذه « الفلتة » من العسير أن توحى الثقة فى صلاحية المحلل النفسى لهداية عقل ضل وغوى إلى الطريق المستقيم . وتوجيه هذا الاتهام الشامل إلى الحجة الفرويدية يقصى عنها كثيرين من الباحثين الذين يعطفون على أسسها لأن الإفراط فى الاستدال يؤدى إلى التورط فى غير المعقول .

ومن الجائز أن تكون مغالطة التسفيه هينة وضعيفة نسبيا فى الفلتات الأربع التى رويناهـا عن فرويد ، ولكنها تصير فاضحة عند التطبيق على الفلتات السلبية كحدث نسيان الشاب الذى

رافق فرويد في سفره ، لإحدى الكلمات من شعر فرجيل (الباب الثاني) ، أو كالفلة الايجابية عند ما أخطأ فرويد في وضع القطرة في عيني السيدة العجوز . ولو كان هذا نموذجاً للعادات العقلية عند محلل نفسى لكان من العسير أن يرضى لإنسان بأن يضع سعادته الروحية في يدي أحد أتباع هذه المهنة .

ولقد توقفت هنا قليلاً كي أحلل أخطاء الطرق الفرويدية بالشكل الذى طبقت به على العلل النفسية في حياتنا اليومية ، لعدة أسباب : فهي ليست شديدة الضرورة للنظرية الأساسية التى تتركز حول أنواع العصاب ، وهي كثيرة التنوع ، تمس أنواعاً مختلفة من السلوك العادى المأوف ؛ والمبدأ الذى تنطوى عليه قويم ، ونظريته لا غبار عليها ، ومألوفة إلى حد ما ، وهي توضح ما عُرف به الجدل الفرويدى لسوء الحظ من التجاهل ، والافتراض ، وحمل ما يجوز تصديقه إلى أقصى مداه . فكانت النتيجة النهائية فوضى ، وتحريفاً ، وأكاذيب .

ولقد أطلت الكلام في أخطاء الطرق الفرويدية كما طبقت على العلل النفسية في حياتنا اليومية ، لسبب آخر كبير الأهمية ، وهو أن أوضح من البداية أن التطبيق المنطقي المعقول لمبادئ الحتمية له حدوده . فهذه الحتمية هي السمط الذى انتظمت به « الحبات »

الفرويدية . ونحن جميعاً نسلم بالحتمية لأنها تتضمن مبدأ السبب والنتيجة في عالم الفكر ، ولكننا نسيء إلى هذه الحقيقة أساءة بالغة إذا افترضنا أننا نستطيع أن نتعقب مجرى الحتمية في تفاصيل دقيقة ، وأن نصر على أداء ذلك بأية وسيلة كانت ، فمن هذا الاجراء خطأ الشعوذة في قراءة الخلق ، وخطأ الخرافات أيضاً .

وكثير من ألوان العالم الكاذب تنشأ من التعيين بطريقة أصلية خاطئة للمقدمات وما يليها ؛ وهذا طراز آخر من الخطأ ؛ أما إرهاب مبدأ صحيح وتحميله ما هو فوق طاقته ، فعادة ذهنية توجد غالباً عند من يتبعون مقدمات كاذبة ؛ فإن تجاهل الواضح وإهمال التفسيرات المألوفة والمتبادلة ، يحدث خطأ واحداً ، كما أن تجاوز حدود الحتمية يحدث الخطأ الآخر . وفي الأعمال والتصرفات ذات الدلالة ، وفي الاحلام ، وفي سلوكنا عامة يوجد كثير مما لا مفر من عدم تعليله . والنظرة المعقولة إلى مبدأ الحتمية تسلم بهذا الوضع . وتوجيه الاسئلة ، والأصرار على الظفر بأجوبة دقيقة كل الدقة إذا تجاوزا حداً معروفاً واضح المعالم ، لا يعدان علامة حب استطلاع غير عادية ، بل دليلاً على اهتمام غير منظم ولا منسق . والإسراف في السير في هذا السبيل وبالشكل الذي أتبعه التحليل الفرويدي يؤدي إلى إفساد ما فيه من فضل .

حجة الاحلام

الاحلام تفسيرها :

تستند الحجة الفرويدية للاحلام على مجموعة من الفروض ، وبعضها قابل للتحقيق ، وجزء آخر مقبول ظاهرياً ، أما أكثرها فمسيج من اشباه الحقائق ، مضلل كفروض بغير سند ، وهذه هي التي تحدد مجرى التفسير وتعينه مقدماً . والفكرة العامة تبدو وطيدة الأساس من حيث أن الاحلام تمثل نظاماً لعملية نفسية قريبة من التخيلات الأولية ، وهو نظام توفيق بين التعبير والكبت ؛ هو تسرب لبعض اتجاهات لا شعورية ؛ هو تأليف رواية رمزية تنشأ حوادثها الظاهرة من معان أكثر عمقاً في بواعثها .

ومن أجل هذه المعلومات تعد سيكولوجية الاحلام مدينة لطريقة التحليل النفسى . ولكن البناء كله يتعرض للخطر عندما ينفذ برنامج التفسير بطريقة تعسفية وسخيفة في بعض الاحيان ؛ وعندما تقوم الحجة على فروض مثل القول بمراحل معينة للنمو الجنسى ، وتتجاهل كل العوامل الاخرى ، اكتفاء بالبواعث أو الرغبات في الحلم ، فتقحم في الموضوع مسائل مبهمه مشكوك فيها ، وبغير برهان . وعندما تقدر نظرية فرويد عن الاحلام

فإننا نجد لها ناقصة إلى حد كبير من حيث هي نظرية ، ومن حيث تطبيقها ، ولا عبرة بمدى عمق ما فيها من بصيرة . والنتيجة هي ظهور لون جديد كل الجدة من تفسير الأحلام ، له صبغة علمية كاذبة ، ولكنه ليس دراسة علمية للأحلام .

ورفضى للجانب الاكبر مما قدمه فرويد من عام وخاص في كتابه « تفسير الأحلام » ، ولا سيما ما قدمه أولئك المفسرون الذين تبعوه ، وقد كانوا في أول أمرهم يسلسون قيادهم لإرشاد استاذهم ثم انطلقوا بعدئذ على هواهم ، رفضى هذا يمثل احتجاجا على أى نوع من أنواع السيكلولوجية التشخيصية التى تقوم على مثل هذا المنطق المفكك الذاتى حتى أن نتائجها لا تظفر بالتبرير العلمى ، بل إنها لا يمكن أن تحصل عليه .

ولست أشك فى وجود بعض الأحلام على الطريقة الفرويدية الكاملة ، وفى وجود كثير من الأحلام المركبة ، أو ذات البواعث المتعددة ، والمحتوية على عنصر فرويدى ؛ وأوافق أيضا على أنه من الجائز ، بل من المقبول فى كثير من الحالات أن نفس أحداث الأحلام على أنها تعبيرات رمزية مستترة عن رغبات شهوانية مكبوتة ، أو عن اتجاه مستمد من تلك الرغبات . هذا التفسير مسموح به ومقبول فى ظاهره فى

كثير من الحالات ، وربما كان أفضل ما يمكننا الظفر به ؛ إلا أن التأكد من فك طلاسم هذه الأحلام أمر غير ميسور ، وتفسيرها القائم على مثل هذه التخمينات إنما هو مشروع لا يمكن النصح باتباعه ، وذلك رغم بعده عن ألوان السخف التعسفي الذي تلجأ إليه كتب التفسير الشائعة التي تجدها في أكشاك بائعي الصحف . والباحث النفسى المنطقي يجب أن يعف عن هذا التفسير حتى في مجال التحليل النفسى ، أن إراد أن يظل باحثا جديا في الأحلام .

والدراسة العلمية يجب أن تبدأ بجمع كل الأحلام بغير اختيار ، ثم يترك تفسيرها إلى قضاة محايدين . وليس هناك من تدبير أقل من هذه الدراسة لنستطيع أن نضع فروضا مثل تلك الفروض التي ذكرها فرويد على أنها حقائق . ومن أمثلتها أن الأحلام تقي النوم ، وأنها لا تهتم البتة بالتوافه بل بالمسائل الهامة ، وأنها تعبر دائما عن رغبات . ويذكر التحليل النفسى هذه المقترحات وسواها بغير برهان كاف ، بل أنه ليردها بغير الاحتياطات العادية الضرورية الواقية لعمليات التوازن والرقابة ، مما يحرص عليه أى باحث تجريبي مسئول . أن الطريقة الخدرة في البحث ليست مألوفة على الإطلاق في روح المنطق الفرويدى . ولوروعيت فيه لما نمت تلك المجموعة الضخمة التي يتفاخرون بها من نتائج التحليل النفسى .

ويمكننا أن نتنبأ ونحن في أمان ، بأن أى شخص من هذا القبيل سيكشف ولا ريب عن حالات تؤيد كلا من هذه الآراء والفروض ، على أن هذا لن يؤدي إلى تعميمات شاملة واضحة المعالم من النوع الذى تحتاج اليه النظريات الفرويدية ، رغم أن حاجة الفرويديين إلى هذه التعميمات جعلتهم يقولون بها . فالتليذ الفرويدى يضع الأجابة فى مقدمة عقله ، ثم يسعى للوصول إلى الحل المؤدى إليها ، كما يفعل التليذ الحائر فى علم الحساب عندما يستخدم وسائل حسابية فذة وغير مسلم بصحتها بغية « الحصول » على أجابة تشبه الرقم المذكور فى آخر كتابه على أنه الاجابة الصحيحة لمسأله .

وأيا كان مقدار الحقيقة فى النظرية الفرويدية عن الأحلام ، فإن الحكم على البناء كله ، من حيث المبادئ والحجة ، إنما هو حكم سلبى ولا شك : فالقضايا الخاصة بالأحلام التى وضعت واستقرت على أنها صحيحة لم تتأيد صحتها ، فضلاً عن اشتغالها على مجموعة كبيرة من القرائن المضادة لإثبات صلاحيتها . وكذلك الحال فى تفسير الأحلام التى تم تنفيذها على منوال تفسير الأحلام الشعبى الشائع الذى لا يمكن الدفاع عنه . أن نظرية ناقصة ، أسرف فى إحكامها كل الاسراف ، وطبقت بشكل خيالى لا تكاد تكون جديرة بذلك الفحص الدقيق المحكم الذى يتطلبه تنفيذها . ومن

الاغراض التافهة أن نناقش في دقة عدم احتمال عبارات طرحت دون أى تقدير للمسئولية .

ولكى لا نترك الحجة بغير توضيح ، فاننا نعرض لنظرية الكابوس فى التحليل النفسى . فمن العسير على الانسان أن يفهم كيف أنها وقاية للنوم بينما هى من أكثر الاحلام أزعاجا للانسان . وفى تفسيره أرنست جونز ، لفرويد ، جعل من هذا استثناء يثبت القاعدة ويبرهنها ؛ فيقول : « عندما يكون تحريف تلبية الرغبة غير كاف لاختفاء طبيعتها المكبوتة عن الشعور ، أو بعبارة أخرى عندما يكون الصراع كبيرا إلى درجة يتعذر معها الوصول إلى اتفاق ، فان النوم ينتهى ويتنبه الإنسان إلى خطره » .

ويقول فرويدى آخر ، أن « الانا » النائم يدق جرس الانذار الرقابى ، ويوقظ زميله فى النوم ، وهو « الانا الأعلى » ليساعده على إسكات « الهو » . وجرس التحذير هو الكابوس . فاذا ما عدنا إلى تفسير « جونز » وأخلصه إلى نظام التحليل النفسى ، فانه يقول أن « الاهتمام » العميق الوحيد الجدير بمثل

هذا الاجراء الصارم إنما هو اهتمام جنسى ، وبالتحديد هو مضاجعة المحارم . وهكذا تنص القاعدة النهائية على « أن هجوم الكابوس هو تعبير عن صراع ذهني بشأن رغبة مضاجعة المحارم »

وبما أن هذا هو المطلوب ، فإن الشيء الوحيد المتبقى بعدئذ هو إيجاد حيل تفسيرية بغض النظر عن أنها غير منطقية وغير سيكولوجية، شأنها في ذلك شأن حيل التلميذ عندما يلجأ إلى طرق غير حساسية ليجعل طريقة الحل تتفق مع جواب المسألة . وناقش الدكتور « جونز » أسبابا أخرى للكابوس ولكن بحذر، فميز تأثير وضع النائم ، وعمليات الهضم ، والتنفس الخاطيء ، وميز أكثر من أى شيء آخر مدى الاستعداد الشخصى ، فإن بعض الافراد بحكم بنيتهم العصبية يكونون معرضين للكابوس ، كما أن آخرين لديهم مناعة تامة تقيهم شره ؛ ولكن عبارات جونز التي تحتها خط ، والخط من وضعه هو ، توضح عدم التحفظ الذى يفسد كثيرا من الحجة الفرويدية . وهو لا يقنع بترديد عامل للتحليل النفسى ومنه الناحية

الجنسية ، فهذا العامل ولا ريب يعمل في (بعض)
أنواع الكابوس ؛ ولكن جونز يصر على أن هذا
العامل هو الاساسى ، وهو في تفاصيله تعبير عن
العقدة الجنسية الاساسية ، وهي الاجابة الفرويدية
العامة الشاملة عن كل أنواع الاضطرابات النفسية .

تقديس رموز الاحلام

أن الاصرار على اتباع طريقة معينة في التذليل يحول
سيكولوجية الاحلام إلى ذلك الطراز الشائع في تفسيرها وهو
المشول أيضا عن معجم التحليل النفسى الفرويدى بشأن « رموز
الاحلام » . فبرغم كل ما حوى من تأكيد ينم عن سعة العلم ، فإن
مدى احترامه لا يكاد يتجاوز نصيب « كتب الاحلام » الشعبية
التعسفية والخيالية . وفي أستمسكه بحتمية دقيقة هلاكه ، وفتواه
مطلقة نهائية ، تقول : « من القوانين الدائمة الصارمة في تفسير
الاحلام وجوب الوصول إلى تفسير لكل تفصيل من التفاصيل
وإستخدام الفاظ « قوانين » و « دائمة » و « صارمة » و « وجوب »
و « تفصيل » ، هي بالذات التى تتجاوز النطاق المنطقى المقبول
للموضوع . والشرك الثانى هو تقديس الرموز ، فبدون هذا يكون
تفسير الاحلام ، سواء أكان شرعيا أم غير شرعى ،
محدودا في عملياته .

ومن الواضح أن أصطناع الرموز واسع المدى ، ففيه الاستعارات ، والتشبيهات ، وأنواع التمثيل : بل أن الكلمات نفسها رموز متعددة . ومن « الطبيعي » أن العقول التي تشترك في التجارب ، والانفعالات ، وفي التقاليد ، والبيئة . ستنشئ رموزاً مشابهة ؛ ومع ذلك ، وكما أدرك فرويد كل الإدراك ، فإن أكثر الرموز شخصية ، وكل عالم يستخدم قاموساً خاصاً به . والتداعي الحر ، مطلوب ليعين مفتاح الرمز عند ظهوره في عقل الفرد . والواقع أنه توجد دراسة شرعية للرمزية ، زودها التحليل النفسي بحوافز جديدة .

ويونج هو أكبر السيكولوجيين الباحثين في ميدان الرمزية ^(١) بغير منازع . وهو يقدرها لما تنطوى عليه من نزعات العقل واتجاهاته ؛ ولأنها تنطوى على طريقة ومزاج الحركات العقلية الأكثر

(١) أستغل هذه الفرصة لا كرر أن استعدادنا لأن نعلم ، ونستخدم الرموز ، والاجراءات الخيالية الشبيهة بها ، له قاعدته في طبيعة الخيال ، وهي تحتل مكانها الممتاز في الحركات الذهنية من عقل الطفل ، ولكل هذا وجه فرويد اهتماماً متجدداً ومستثيراً . وعن طريق علم النفس الفرويدي أحتل الخيال واحلام اليقظة مكانتهما . وبما أن فرويد يستخدم الميل إلى التخيل كعامل في نمو أمراض العصاب عن طريق « ثبوت » اللبىد ، فإن المناقشة ستتجدد في هذا السبيل . أما بشأن قيمة الخيال ، وعلاقته بمبدأ اللذة واستخدامه للرموز فهناك موافقة معقولة . (المؤلف)

تحررا : وهويهم بأمرها كذلك لاستخدامها في التحليل النفسى ويتعقبها فى المجاهل العميقة ، وفى أسمى أسرار الروحانية .. والرمزية مقبولة فى أحسن صورها ، إذ يغلب عليها الوضوح ؛ أما فى أسوأ حالاتها ، فهى لا تعدو المدلول الشعبى لتفسير الاحلام ، وان تكن مثلها واضحة بسيطة .

وعامل البواعث النفسية فى الاحلام ، وفى الرمزية المستترة لتعبيراته عامل معقد بصفة خاصة بفعل النغمة الجنسية ؛ والنتيجة هى تفسير أحلام مصبوغة بالصبغة الجنسية . وهذا فى أسوأ صورة لون فج من ألغاز الكلمات المتقاطعة الفاجرة ؛ وفيه تجد كل شئ . وقد اكتسب صفة جنسية : فالملوك والملكات والاطفال والشعابين والحياد والسمك والتين والتفاح والبذور والموز والقصب والمظلات والصناديق ودورات المياه والأفران والمركبات والبراميل والمسدسات وأنابيب المجارى والأوانى الذرارة والأهداف والشرقات والنوافذ والأبواب والمداخل والمخارج والطائرات والمناطيد والماء والمناظر الطبيعية والتلال والصعود والهبوط والدخول والانسحاب والطيران والسقوط والسباحة والتجذيف والتأخر عن مواعيد القطارات والتجول فى الظلام كل هذا يرمز إلى الأعضاء الجنسية سواء للذكر أو للأنثى فى

تصوير التحليل النفسى الذى وضعها فى الجانب غير المراقب من قاموس الاحلام .

أما الجانب المراقب ، فإن تصورات التحليل النفسى سمحت له بأن يضع فيه جميع الأعضاء والعمليات الجنسية ، وما يتعلق بها ، مما يسبقها أو يتبعها . وهكذا نشأ معجم^(١) مترادفات التحليل النفسى . أما ضروب التحريف الضرورية لتأويل مواقف الاحلام بأنواع صراع جنسى ، فتتجمع بين الإهانات الشخصية والأضرار بالمنطق . ومن الواضح أنه فى وسع أى إنسان يمثل هذا الميل أن يتناول أى حالم ، ويخضعه لهذه الإجراءات ، فيخرج الحلم مصبوغاً بالطابع الجنسى .

ل طرق الاحلام الفرويدية موارد أخرى ؛ فإن التوصل إلى الأمور المرتبطة بكل محتوى من محتويات الحلم واحداً بعد آخر يتيح للفرد أن يتغلغل فى الذكريات المستدعاة من الاحداث المحايدة أو غير الجنسية إلى أن يصل إلى شىء يتيح التفسير المطلوب ؛

(١) أن تطرف الطريقة يدعو إلى السخرية وبخاصة فى عبارات علمية ، فالعلم قدوة فى إجراءات البرهنة القياسية ويد كتاب « بيردوود » Bjrwood « العناصر الجنسية فى الكتب الخمسة الأولى لافليدس » أكثر فكاهة ، وهو فى جوهره ليس أكثر تكافها من عزو الجنس إلى القصب والمواقف . والخط المستقيم النصف للدائرة يكاد يكون قضية لا يليق عرضها على عقول المراهقين الملهين بالرمزية الفرويدية (المؤلف)

ففي كثرة الذكريات ما يوصل حتما إلى إصابة الهدف . فإن كان المعنى خاطئاً فإن رمز الحلم يتحول إلى المعنى المضاد . وإذا ما اعترف المريض وسلم ، أو حتى تطوع بتقديم المعنى الجنسي المذنب . كان هذا هو الاثبات المطلوب للنقطة . أما إذا أنكر ، فإن الترابط يعد قائماً في اللاشعور ، أو إن مقاومة المريض تحول دون إدراكه .

وهذا الاجراء الاختياري لا يستبعد أن الطريقة قوية ، فإن الاحلام بحكم طبيعة الاشياء تكون مبهمة في بعض الاحيان ، ومحدودة في أحيان أخرى من حيث أشارتها إلى ضروب الصراع والرغبات الوثيقة ومنها الجنسية . ولا يقنع الفرويديون بهذا القدر ، فان استمسكهم بعقيدتهم يدفعهم إلى أظهار جرأة مبادئهم ، كما يفعل المتعصبون والمصابون بمرض البرانويا وغيرهم ممن يحملونهم . وتنشأ السفسطة المركبة في تفسير الاحلام الفرويدي من طابعها الجنسي الخاطيء ، ومن تحميل الرمزية مالا تحتمل ، ومن المغالاة في استخدام مبدأ الحتمية . وفي وسع أي أنسان موال للنطق القابل للتوفيق ، واستخدامه أياه وفقاً لما يرضى مزاجه ، أن يأخذ أجزاء البيت الذي عاش فيه فرويد ، فيتناول تحف مكتبه وغرفة نومه وحمامه ومطبخه ومحتويات خزانة ملابسه ثم محتويات معارض المحال القريبة منه التي تباع الأدوات الحديدية

أو الرياضية أو الخزفية ؛ في وسعه أن يتناول كل هذا ويجعله أعضاء تناسلية دون مزيد من التحريف لمعانيها الأولية ، ودون عدوان على المنطق السليم أكثر مما تم في وضع المعجم الفرويدى عن رموز الأحلام . وعدم ميل الفرد إلى القيام بهذا المشروع ليس من باب المقاومة العلمية المتزمتة الذاتية ، ولكنه تحزب مستنير للمنطق وصحة العقل .

وتصل سفسطة تفسير الأحلام إلى أقصى السخف عندما تعطى الأهمية والدلالة لأحد التفاصيل بطريقة تعسفية . وهذا ما يظهر في علم الأرقام Numerology عند يونج .

وهو يروى جزءاً من حلم لرجل متزوج له علاقات جنسية أخرى . ويظهر التفصيل في شكل د ا ك ت ت ا ب ، وكدير ، يعقب على الرقم الذى تم الا ك ت ت ا ب به ، وهو ٢٤٧٧ . فمن المظنون أن يكون لهذا الرقم أية أهمية مالية . وبما أن الحالم كان ذا عقلية اقتصادية ، فإن هذا الرقم يحتمل أن يمثل نفقات مغامرته المحظورة التى قدرت بدقة ٢٣٨٧ فرنكا . وهذا الرقم د يمكن أن يترجم بطريقة تعسفية فيصير . . ٢٤٧٧

وبطريقة « التداعى الحر » ، تعين أن الرقم يتألف من تواريخ الميلاد له ، ولعشيقتة ، ولزوجته ، ولأمه ولطفليه، ويضاف إليها عمره وعمر عشيقته (ويضاف إلى هذا أيضاً رقبان آخران غير مفهومين تماماً) .
وبجمع كل هذه الأرقام يكون الناتج ٢٤٧٧ . وكانت طريقة جمع تواريخ الميلاد هي أن تاريخ ميلاده ٢٦ فبراير فيكون الرقم ٢٦٢ أى فى ٢٦ من الشهر الثانى : وقد جاء المجموع ٢٤٧٧ . والمفروض أن هذه العملية الحسابية تمت فى « اللا شعور » ، الذى ابتكر هذا النظام .

وعندما ظهر الرقم ١٥٢ كرهان فى مباراة لسيدة حاملة ، فإن أرقام المنازل التى أقامت فيها تلك السيدة اللطيفة الكثيرة التنقل كانت مفتاح الحلم . فقد أقامت فى منازل أرقامها ١٧ ، ثم ١٢٩ ، ثم ٤٨ .
وبجمع هذه الأرقام نحصل على الرقم ١٩٤ ومنه نطرح ٤٨ فالناتج هو ١٤٦ ؛ وكان رقم المنزل الذى تسكنه عندما حلت هو ٦ فإذا أضيف إلى ١٤٦ كان الناتج ١٥٢ . وهكذا فسر الحلم ... !!
ومشكلات المريض قد « تنعكس على مرآة اللا شعور

عند زوجته ، ومن هذا القبيل حلم يدور كله حول
 «لوقا ١٣٧» . وقد فسر هذا على أنه الأصحاح الأول
 من أنجيل لوقا والآية ٣٧ . وهذه بدورها تشير إلى
 البشارة . وبما أن الإصحاح ١٣ والآية ٧ تشير إلى
 شجرة التين « وهى من قديم الزمان رمز للعضو
 التناسلى عند الرجال » فهذا بدوره يرمز إلى علاقتها
 بزوجها العنين . وبما أن الحاملة لم تكن من المطلعات
 على الانجيل فإن رقم الحلم يجب أن يفسر على أنه
 ذا كرة خفية أو نوع من البصيرة الثانية .

وسخف هذه النتيجة لا يفوقه إلا طريقة المنطق «البرانوى»
 التى أدت إليها . ومع ذلك فإن هذا المثل مسجل فى موضوع علمى
 لباحث مشهور . وهذه العينة ليست فرويدية الطراز لأن «يونيغ»
 هو صاحب الأرقام ، وإن كان فرويد لا يقل عنه فى إفراطه .
 وبذكر هذه العينة أصل إلى ذروة نقد حجة الحلم . وقد سردها
 لأوضح ما يمكن أن يؤدى إليه الإفراط فى مثل هذه التحريفات
 المنطقية فى عقل قادر مبتكر فى شتى النواحي الأخرى . ومن
 الجائز أن يعد «علم» تفسير الأحلام الشعبي مغامرة محظورة ،
 وأن الدفاع عن سخفها هو الثمن ؛ ولكن يونيغ يدافع عن «أهمية
 الأرقام فى الحلم» بالتفسير المموه التالى .

أن دراسة الخيال الابتداعى الحر ، تتطلب تجارب عملية كثيرة» ، ومدى واسعا من حسن التقدير فيما يختص بدقة النتائج الفردية ، ولكن هذا لا يجبرنا بأية حال من الأحوال على أن نتجاهل فى سكون ما هو فعال وحقى خشية أن نوصم بأننا غير علميين . ويجب ألا يكون هناك أى مجال للمناقشة والتفاهم مع مخاوف العقل الحديث من الخرافات ، فإن هذا الخوف نفسه هو أحد التدابير التى تؤدى إلى اخفاء اسرار اللا شعور .

وهكذا تنزل الآلهة الجنون أولا بمن تريد تدميره ويميل الانسان إلى الشك فى أن مثل هذا الاجراء الأولى الذى كان يتبع مع التلاميذ الذين يريدون الالتحاق بهيئة تفسير الأحلام التابعة للتحليل النفسى .

ولعله من الغبن أن نختم حجة الأحلام بمثل هذه العبارة الخيالية ، فليس من الضرورى أن المبادئ الفرويدية لتفسير الأحلام قد انحطت إلى هذا السخف الكبير ، أو أنها قد هوت إلى ذلك العبث ، بل من الجائز أن تستبقى البصيرة فى التشخيص فى المستوى المنطقى وفى المجال والمقبول . ولكن يبدو أن فى الجو ذهنى شيئاً تنتعش فيه الثقافة الفرويدية ، وهذا الشيء

يميل إلى توجيه المقدمات الخاطئة لتصير نتائج مفرطة في المبالغة .
 وأتباع فرويد يقتدون بقائدهم ، ويقتحمون المشروع بمقاييس
 برهانية مفككة ، ويعتقدون بأن الاتجاهات المعترف بها في علم
 النفس المستقر لا صلة لها بعملهم .

وبهذا الحمل الخفيف من المنطق ، وبرؤيتهم لهدفهم الخاص
 قائما أمام عيونهم ، فإنهم ينطلقون في سرعة إلى اتجاهات بعيدة ،
 وإن كانوا في الغالب يدورون في عدة متعرجات قبل أن يصلوا
 إلى هدفهم المنشود . ومن كل المنتجات النفسية تجد في الأحلام
 مركبا يتألف من عوامل معينة مختلفة كل الاختلاف أكثرها مبهم
 غامض ، متعرج ، ومنعدم النظام ، ومتغير ، وكله الغاز . فإذا
 ما اخترت واحداً من هذه العوامل ، وليكن الصراع الشخصي ،
 أو الخاص بالصراع العصبي على أن يكون هو المعين العام الوحيد
 وبعدئذ تفرض عليه قاعدة تخمينية بها مجموعة من القيم الجنسية ،
 إذا ما سلكت هذا السبيل ، حددت مسارك مقدما ، وكانت
 طريقتك غريبة شاذة بعيدة عن الطرق العلمية بغية تحقيق فرض
 فج مستتر .

وهكذا نشأت سيكولوجية الأحلام وهي مصابة بالآفات من
 جذورها إلى زهورها ، وهكذا فإن الخطايا المنطقية لعالم نظري
 ضال رغم أنه مبتكر قد فرضت على الاتباع لتمتد إلى الجيلاين

الثالث والرابع منهم . وحتى فرويد نفسه لن يستطيع أن يجعل تفسير الأحلام شيئاً مقبولا له قيمته .

النمو النفسى الجنسى

الجنس فى علم النفس :

نادراً ما تبتعد الحجة الفرويدية عن الجنس ابتعاداً كبيراً ، إذا يجد فرويد منابع أعراض العصاب فى التأثير المكون لانطباعات الطفولة ، ولا سيما فى ضروب التعلق الجنسى الشديد الباكر الذى يتم فى العائلة ذاتها ، وكذلك يجدها فى الصدمات الانفعالية ، وفى أثناء استزادة الطفل من المعرفة بالأمور الجنسية . وقد قدر لهذا الجزء المضاف إلى نظرية أمراض العصاب أن يكون حجر الزاوية فى البناء كله عندما تسلم الجنس مركز السيادة . وبإضافة « اكتشاف » إلى آخر من تلك « الاكتشافات » التى نجدها فى صومعة التحليل النفسى ، أعاد فرويد بناء « المفقود » ، أو بعثه من مرقدته ؛ أى أنه بعث تاريخ حياة اللبيد المكبوت كما وجده فى الطفل البدائى الأصيل ، لا كما كان موجودا فى إنسان الكهف البدائى . وكان هذا هو « الاكتشاف » الذى أقام عليه حظه المهنى . وهكذا صار الإنسان فى النظرة الفرويدية « إنسانا لبديا » .

وكلما زادت حريتنا وصراحتنا في الاعتراف بما للحياة الجنسية من أثر في التكوين البشرى كان ذلك من الخير لنا ، فمن الأفضل أن ننظر إلى الجنس نظرات موصولة ثابتة ، وإن ندركه في جملة . وكان هذا الاتجاه قد أستقر قبل فرويد . وكان هافلوك إليس ، Havelok Ellis من أكبر الرواد في هذا المضمار . وكانت روح التحرير في القرن العشرين من العوامل الاجتماعية القوية للسير في هذا الاتجاه ذاته . وقد التقت هذه الروح بالمغامرة الثورية العادية القائلة بأن الحرية قد تنقلب ترخيصا يميز عمل كل شئ .

أما في مجال علم النفس ، فقد حدث رد الفعل على ما أطلق عليه هويلر Wheeler أسم « سيكولوجيات زهرة الماء » التي من الطراز الاكاديمي ، ... « والتي ولدت ونمت في ناقوس زجاجي » . وهويلر هذا عالم في الحشرات ، تناول في بحثه « نقائص الحشرات والإنسان » . وقد عبر ستانلي هول Stanley Hall عن وجه الاعتراض هذا من قبل بمدة طويلة ، إذ أدرك الدور الخطير الذي تلعبه السمات المستمدة من الجنس والمصبوغة به في مراحل تطور الخلق البشرى البعيدة ، والقريبة ، مما يظهر في مضمار الأعمال ، وفي المعاهد والمؤسسات . ويؤكد علم النفس النشوقى عند « هول » أهمية العنصر الجنسي في الشخصيات ، ولا سيما في التعبيرات الدينية .

ومثال ذلك أنواع الحرمان التي تضيفها الرهبة من حيث هي رد فعل على أنواع الفشل في الحياة المنزلية ؛ وقد وجد أن اكبر مايغيب كتاب «ضروب الخبرة الدينية» لجيمس James's Varieties of Religious Experience هو أهماله لهذا العامل الحيوى .

وقد أتجه «هويلر» إلى التحليل النفسى بغية الاستنارة فى هذا الموضوع ، فعثر إلى حد ما على ضالته فيه ، ولكن « فى مباءة قدرة من مباءات العلم » . وكان تعقيبيه على النفسيين هو أن عاداتهم « فى الجلوس سويًا ، أو مع الفلاسفة ، للملاحظة أيهم يكون أسرع فى التخريف أو أبرع حيلة ، واقدر على صياغة فذة للنتائج فى أروع أسلوب » ، فقال « أن هذه العادة لن تساعدنا كثيرا فى حل مشكلات الحياة الملحة المزعجة » . ويصح اعتبار هذا التعقيب لوما يستحقونه . ومع ذلك فإن المحللين النفسيين فى تصميمهم على خدمة البشرية ، قدموا لونا من « التخريف » يعد أكثر طموحا ، وأكثر خطأ من عادة الانهماك فى التأمل النظرى ، فإن هؤلاء المحللين يقبلون ما يفرض عليهم من الالتزامات العلمية ، ويعرضون ما يصلون اليه من نتائج باسم العلم . وإن أبرع البصائر لتساوى مع فشل النيات الحسنة ، إذا ما طبقت بمنطق ضعيف .

كانت مهمة أبراز الجنس ، وجعله فى مركز البراءة النفسية .

خطوة ضرورية في علم نفس الاعماق : ولكن الانتقال من السرية التي كانت مفروضة على المعلومات الجنسية إلى كشفها بكل وضوح ، وفي ضوء وهاج ، جاء فجأة بطريقة غير سليمة : ومن الجائز أن يعزى فضل جزئي في إبرازه إلى فرويد ؛ وهو كذلك يعد مسئولاً عن الاستنكار الذي لقيه تنفيذه لمشروعه بطريقة لا يمكن الاستمساك بها . وفي هذا المجال يحمل أتباعه أكبر الوزر . ولقد كان تأكيد فرويد البالغ للبيد الجنسي ، وطريقة سيادته من أهم الأسباب التي أدت إلى انسحاب يونج من جماعة فرويد . وفي كل تعاليم فرويد المشكوك فيها ، تعد تفاصيل معضلات النمو النفسي الجنسي بالشكل الذي أكدها به فرويد وطبقها ، أكثر هذه التعاليم تعرضاً للشك والارتياب .

والناحية الجنسية في الطفولة هي موضوع النزاع ، والعلاقة الاوديبية موضوع آخر ؛ ثم تأتي مسألة تقرير السمات الخلقية بأنواع التثبيت في مراحل النمو الجنسي ، وهي العضو الثالث في الثلاث الجنسية الغريب . ولو استبعدت الوان المبالغة والافتراض في هذه النواحي الجنسية الثلاث من أقانيم التحليل النفسي ، أو لو أنها لم تضم إليها ألبتة ، لا يمكن الأبقاء على تحليل نفسي جنسي مفيد . وتبعاً للموقف الفعلي ، فإن الفرويديين المحافظين المعتدلين يعدون هذا الاقتراح أكثر تعجيزاً للرجولة من فقد القدرة

الجنسية الخيف الذى يلعب دورا خبيثا فى المأساة المحزنة ، وهى
مأساة يحتمل أن تصير (كما أعتقد) كابوسا فرويديا .

الجنس والطفولة

الغلطة الكبرى فى علم النفس النشوى التخمينى لفرويد ، هى
افتراضه أن « الشكل الأولى » Primal Form فى النمو النفسى هو
فى روحه ، « الشكل النهائى » Final Form وأن هذا الشكل الاولى
يجب أن يفهم على أنه شعور سابق ، أو تنبؤ بالمستقبل ، وبذلك
يقدم علم نفس فريد «مقلوب» . ويظهر أن فرويد نسى أن مراحل
النشوء غير قابلة للقلب أو التنبؤ ، فالنمو طريق مرور فى اتجاه
واحد . ويوجد فى الواقع نمو موحد يربط أوجه التعبير المبكرة
والناضجة ويصلها بعضها ببعض ، فالطفل هو أبو الرجل بمعنى نشوى
لا بمعنى تنبؤى ، والطفل ليس بسيد الرجل كما يصر فرويد .

وكأنه أولى بالانسان أن يفسر ضحكة الطفل على أنها ظاهرة
مبكرة تنبى عن روح فكاهة دقيقة ؛ أو أن يصبغها بالطابع
الفرويدى ، فيراها نوعا من التمتع السرى الطفلى لطراز دعابة من
دعابات « رابليه » ؛ أو أن يضفى على دموع الطفل بسبب فقد
الزجاجة التى يرضع منها ، آلام مأساة ناضجة . أو أنه يتجاهل تمييز
الدوافع والمواقف ، فيرى فى ادمان الطفل على الرضاعة من زجاجته

نبوة عن علة ، او بعبارة أخرى يرى المرحلة الطفلية لادمان السكير . وإن تجاهلنا لكل ما يحدث بين ضمة الطفل في مهده وبين اتمام عقد الخطبة ثم الزواج ، وفهمنا للشحنات الانفعالية الناضجة للزواج على انها موجودة في ضمة الطفل ذات التأثير المهدى ، هذا الفهم بعيد كل البعد عن علم النفس . وهو بعيد بعد أى إجراء يستطيع وضعه باحث نفسى منحرف عنيد ينصح باتباعه . فمثل هذه السيكولوجية النشوئية ليست نشوئية البتة .

وما نجده من تشابه في استشارة اللذة العامة بين استهلال الطفولة وبين الختام ، ثم ما يصدر من أعمال ومناظر تعد نتيجة للنمو التدريجى العام للنفس ، ومنه مقوماته الجنسية بوجه خاص هذا التشابه لا يعطينا أية قاعدة لتكوين مأساة حب محكمة ذات تفاصيل نبنها على أساس حادثة تافهة وقعت في الطفولة . وبما أن الحياة هي النمو ، فإن الشكل الاولى لدافع ما ليس هو الشكل النهائى . والموقف الميكروبي في البويضة الاولى للجنين يختلف عن الموقف النهائى لا كتمال النضج ؛ وأن أى مبتدىء في علم النفس ، ليتجنب مثل هذه القوضى ، والبلبلية التى لا يمكن أغراء عقلية بقبولها إلا إذا كانت أصيلة في جراتها على ابتداع الافتراضات السابقة لاوانها .

وإذا ما تم ارتكاب هذه المغالطة ، وهجرنا كل ضمير منطقي ،

فإننا في الواقع نصير أحراراً في اصطناع النتائج لمثل هذه التفسيرات التي لا تستند إلى ما يبررها ، والتي تطلق في حرية لتصير لبيدية . وقد كان استعداد فرويد لقبول الشاذ على إنه مقياس السوى هو الذى بهره ودفعه إلى تسمية مظاهر الطفولة في عبارات وأسماء تدل على انحراف إذا ماطلعت هذه المظاهر في مرحلة النضج . وهو لم يعتبر حالة الشواذ كنهاية المطاف ، أو كانحراف من الحالة السوية ، وهو الاعتبار^(١) الطبيعى . وتبعاً لهذا المنطق ، فإنه صنف الطفل كمخلوق متعدد الانحرافات ، وهو شئ مخيف في الواقع لالخطيئة أصيلة بل للعدوان على المنطق .

وفي هذه السن المجردة من أنواع الخبرة ، لا يملك الطفل أى مجال للبسرة إلا جسمه . وقد سمي الطفل في هذا المجال « موضوع الحب ، خطأ ، كما أطلق على حبه لجسمه عبارة « ذاتى العشق » ، وهى لفظة اقترحها « هافلوك اليس » ، لحب الذات الجنسى ؛ وأطلقت أيضاً لفظة « النرجسية » ، على عشق الطفل لذاته ، وهى زلة ضخمة يقع فيها من هم أنضج منه ، وتتضمن الكثير . وبنفس

(١) أكرر أنه وفقاً لإصرار فرويديين على إساءة فهم ما يقبله الباحثون النفسيون ، وما يرفضونه ، فإن مبدأ سيكولوجية الشواذ التي تعد الشاذ على أنه المرحلة النهائية للسوى بما في ذلك عمليات وإجراءات التشابه والتشبيه في سلسلة التدرج بينهما ، هذا التمييز لا يمت بصلة إلى اتخاذ الشاذ معياراً للسوى . ولا يستطيع فرويديون أن يسندوا إلى أنفسهم فضل التشابه والتقارب في السلوك السوى والشاذ لأن هذا نشأ مستقلاً عن تفسيرهم النوعى لهذه العلاقة . (المؤلف)

طريقة الاستدلال التي لا تجد ما يدعمها ، فإن أية علاقة بارزة تحدث للطفل مع أصدقاء من جنسه في سن متأخرة صارت دليلاً على الشذوذ الجنسي الكامن . وسواء أكان العمر مبكراً أم متأخراً ، فإن رباط الولاء والاخلاص بين طفل وأمه قد فسر على أنه مضاجعة المحارم الجنيني ، وهي دسمة بشرية عامة فرضها القدر ، وفرويد أيضاً . وبما أن مثل هذه الانحرافات تحدث أحياناً بين الشبان الشاذين ، فإنها استغلت في الاستدلال على وجودها بصفة عامة عن طريق الوراثة . ولا يوجد ما يؤيد هذا الاستدلال إلا تشابه مصطنع في أحد أوجه التعبير المشاهد في الطفل وفي الراشد ، ولكنه مختلف فيهما تمام الاختلاف في أصله وقيمه .

وهذه المغالطة الفجة استدعتها مجموعة من «الفروض النظرية» المنطوية تحتها . فالمغالطة الخاصة بالنشوء وحدها لم تكن تكفي لظهور مسألة «غرام الأسرة» ، وما حدث هو أن فرضاً خاطئاً أدى إلى آخر . وكان أغرب الفروض جميعاً القول بأننا نحصل على حالتنا السوية بمرورنا بما هو شاذ . كأننا نحصل على الصحة الفعلية عن طريق أصابتنا على التوالي بمختلف علل الجنون أو لأننا نحصل على القداسة عن طريق الانغمار إلى أقصى حد في كل أنواع الخطايا . وكل هذه التعاليم الشاذة ليست إلا فروضاً غير نقية وغير سيكولوجية وهي تعني أنه توجد قاعدة ملائمة

لتفسير آخر مختلف كل الاختلاف ، للقصة الذشوائية . وإذا ما فرضنا وجود الجنسية الطفلية ، فإن الانحرافات المتأخرة تفسر على أنها أنواع من « الردة » إليها ؛ ومرة أخرى نجابه مدركاً مقبولا ، ولكن تطبيقه خاطئ . وهكذا فإن مدار المغالطة الفرويدية يتزايد دورة فوق دورة ، ويتوغل في البعد عن الحقيقة في تعقيداته وحركاته الحلزونية .

ويظل مبدأ اللذة قائماً كما هو ، وعلم النفس مدين لفرويد بما أضفاه عليه من معان ، ولا ريب أنه توجد في أجسام الأطفال مناطق لذة هامة في حياتهم ، ولسوء الحظ أنها سميت « شهوانية » ؛ ولو قيل عنها أنها مشيرة للذة لتجنبنا « الطفولة » الوقوع في كارثة ؛ ولبقيت لفظة « أوديب » مجرد اسم لخراقة لا يعرفها إلا الصفوة ، واللذة في أولها بسيطة ، شائعة ، وأولية . فالطفل يحتضن أمه طلباً للدفء والأمان والتغذية ، كما تفعل جراء الحيوانات اللبونة الأخرى . ولكن عجزها عن النمو الخفى البشرى ينقذها من تهمة مضاجعة المحارم الجنينية^(١) .

(١) من الواضح أن الحيوانات ذات الذكاء لم تكن معصومة من إزدراء علم الجنس الذشوائي الذى أصيب به البعير «وعندما يلفق كلب مخلبه الجريح في رفق عدة ساعات ، فليس معنى هذا أن نزعهم أنه يصنع هذا كعلاج طبي لجرحه ، أو لمنع التهابه ، أو أى شئ من هذا القبيل . والنرض الأكثر قبولا هو القول بأن قدراً =

والحقيقة القائلة بأن إحساسات اللذة الأولية والمبكرة تتدخل وتشترك مع النتائج الثانوية التي تظهر فيما بعد ؛ هذه الحقيقة لا تعطى ظلاً من التأييد لأدراك المفهومات الناضجة في المظاهر غير الناضجة . ويصف « ف. ليمان ولن » F. Lyman Wells هذه الفوضى الفرويدية في وضوح ، فيقول إنها « سوء تسمية خاطئة » . وولن هذا من أكثر الباحثين في شؤون سيكولوجية اللذة . وهو يميل بكلية إلى المبادئ الفرويدية الأكثر استقراراً . ويقول إن سيكولوجية « الانحراف المتعدد الأشكال » ، « يحتمل أن تحنوى على تفكير خاطئ أكثر من أية مغالطة أخرى من محاولاتنا المستنيرة في سعيها لفهم أنفسنا ، وإن كانت محاولات خاطئة » .

وهذه « التسمية الخاطئة الكبرى » جزء من سيكولوجية « نشوية » مقلوبة إلى حد كبير . وتبعاً لذلك فإن استخدام « الجنس » في التحليل النفسى انتشر على هيئة طبقة رقيقة حتى صار يغطي كل شيء يتصل بإثارة اللذة الجسدية ، وهذا « الجنس » رقيق منتشر حتى أننا لنسكتشف آثاره في كل مكان ، وفي كل شيء ،

== كبيراً من لبس الكلب قد وجه إلى طرفه المصاب ، ولهذا فهو يعنى به في رفيق وحنان ، مما يدخر عادة للعناية بأعضائه الجنسية » . هذا الخليط السخيف هو الرأى الجدى للحلل نفسى كبير ، وليس مجرد أقصوصة جمعت الجذ في الهزل (المؤلف) .

حتى في جرعات العلاج الصغيرة . ورغم أن هذا العامل جزئى ، فإنه يعد عاملاً يقرر العدوان في جملته ، كما يبرر الاسم الملائم للعمل الذى يعد فيما بعد . وفى ألوف المناسيب جنسياً حقاً . وهذا العبث المطلق بالألفاظ ، إنما هو دفاع غير جدير بالنظر ، فإن المغالطة المركبة أكثر جداً من أن تكون مجرد لفظية ، فهمي تتضمن قلباً كاملاً للعلاقات القائمة فعلاً للذة الجسمية عامة وللتأثيرات الشهوانية خاصة .

« أن ما يجب أن نبدأ به هو مجموعة من الاحتمالات الخاصة برد الفعل السار التي يحدث بينها نمو انتقائى؛ وبسبب أفضل دواعى التطور ، فإن ما يرجع أن يعيش وينتعث ، هي تلك التي تعمل مع غريزة التناسل ؛ ولا ريب أن دوافع الشهوة الكامنة في الحى يحتمل أن تنمو بطرق مختلفة دون أية صلة مع المناطق التناسلية ، فضلاً عن النواحي الجنسية » .

على هذا المنوال أقام ولز قاعدته الواضحة بشأن السيكلوجية العقلية لتطور اللذة . وينطوى تحت مغالطة « الطفولة » حليفتها ، وهى مغالطة اللبيد التي تشيع الفساد بطرق مختلفة في كل علم

الجنس الفرويدى . وسنعرض لنقدها فى مجال آخر تال .
ومن دهليز « الجنسية » الطفلية نقرب من قاعة عرش « أوديب ،
ملك العقد ، وما يتبعه من حاشية .

عقدة أوديب :

عقدة أوديب هى عقدة العقد فى الواقع ، فهى قصة متشابكة .
متداخلة ، متعددة النسيج ، يتطلب تتبع تحليلها المنطقى الصبر
وطول الأناة . وأيا كان تقديرك لها فهى فى رأى عقدة ولود ،
و ذات نسل كله فروض خاطئة فى مقدماتها . وإذا قدرنا أن هذه
هى الزلة المنطقية الأصلية ، ترتب على ذلك تعميمها ، وحلها ،
واحكام نسج خيوطها ؛ وإذا ما قدر لها أن تكون مصيراً محتوماً ،
لصارت مسألة « غرام الأسرة » مهزلة أخطاء مضحكة لولا أنها
مأساة محزنة ، وإذا ما فحصنا جميع نواحي هذه العقدة ، فإننا نجد
فيها خيطاً ضالاً من الصواب ؛ ولكن هذا الخيط من الحقيقة أبعد
من أن يجيز حبكة العقدة فى كل أحوالها . ولا ريب أن العلاقات
فى دائرة العائلة ذات طابع تكوينى ، وأن قبضة هذه العلاقات
على مراحل النمو المرنة قوية ، وهى التى تجعل لها ذلك الطابع
التكويني ؛ وليس مصير نزعة ذاتية فى الفرد أو الطفل إلى
الانحراف .

وفى كل ذلك الفيض الدافق غير المستساغ من

الكتابات والمؤلفات الفرويدية ، والتي تروى مغامرات أوديب .
 الفرويدى ، فإننى لم أظفر بعبارة تحدد كيف نشأت نظرية
 مضاجعة المحارم ؛ ومن الجائز أن تقرأ المرة بعد الأخرى إنها
 واكتشفت ، فى التحليل . وإذا ما جردنا هذه العبارات ، وقصرناها
 على الحقائق العارية ، لكان معناها أن النظرية كانت مقبولة من
 بعض المصابين بأمراض العصاب ممن عرضوا أنفسهم على المحلل .
 النفسانى ، وأن أحداث طفولتهم وعلاقاتها ، بما فيها خيالاتهم ،
 كان من الميسور أن توصف لهم بتلك العبارات المستعملة فى
 اجراءات الاعترافات الفرويدية العادية التى تتفاعل فيها الحقيقة ،
 والخيال ، والايحاء ، والفروض فى نشاط .

وما أن بدأت الفكرة أو النظرية حتى قبلها تلاميذ فرويد .
 فى شغف واعتبروها شعار عقيدتهم . ويمكننا أن نصف فى دقة
 أفضل الاكتشافات وأكثرها شيوعا ، بأنها مغالاة فى التعلق بالأم ؛
 وهى حالة فطام سيكولوجى ناقص . وقد كانت هذه الحالة الذسوية
 معروفة فى كل العصور ، ودليلنا على ذلك الجملة الشائعة « ابن أمه » ،
 أو « المقيد إلى خيوط مئزر أمه » . أما صيغ هذه العلاقة بالطابع
 الجنسى فهو فى الواقع تفسير جديد .

وإذا ما أردت أن أصيغ خيوط المئزر بالطابع الفرويدى ،

وأعلن أن هذه الخيوط ترمز إلى الحبل السرى ، فإن التفسير يكون جديداً ومنطقياً على الطريقة الفرويدية . فإن شئنا أن نقلب هذا الاقتراح التافه إلى « اكتشاف » نسميه « عقدة الحبل السرى » ، فما علينا إلا أن نتجاهل بيولوجياً وظيفة الحبل السرى ، ومراحل النمو التي يعمل فيها ، وكذلك نتجاهل ، سيكولوجياً واجتماعياً ، كل المناسبات التي تؤدي إلى خيوط المئزر واثقين بأن كل المعانى الجنسية . وعندئذ ، وبهذا الموضوع البديع الخالي من الذوق ، أنقب في « لا شعور » قليل من المرضى ، واستخرج منهم بعض الذكريات بالتداعى الحر ، (ولا تنسى أنه حر ، ولكنه موجه إلى العقدة) ، وبهذه الذكريات أضيف ملاحظات خاصة بالمقاومات التطهيرية ، (البورتياوية) فاحصل على « عقدة » جديدة ، وأضيف صفحات لا بأس بها إلى سجلات التحليل النفسى الذى يعد مجمع الفروض . وان تجد نهاية لا صطناع العقد ، وبنائها على هذا النمط . ولفائدة علم النفس كان يجب أن لا يكون هناك أية بداية لها .

وإذا ما انتقلنا إلى التسمية ، فإن اسطورة أوديب القديمة لا تتفق ألبتة مع المناسبات الفرويدية ، فإن أوديب هذا تربى مع والدين تبنيه ، ولم يعرف أمه الحقيقية إلا بعد أن بلغ سن النضج ، بل الواقع أنه لم يعرف أنها أمه إلا بعد زواجه منها ؛ ولو عرفها

لما تم تحقيق النبوة . أما المسئول عن مصير الفرويدية فهو ذلك
 التعلق الطفلي الشديد . ولا شأن للملك القديم أوديب بهذا كله ،
 وكان من الجائز إلا يوصم بالإصابة بالتثبيت الاوديبى . ولو أطلق
 على العقدة اسم « العقدة المجهولة » ، لأدى الغرض المطلوب ؛
 والنقطة المحيرة ، هي كيف تيسر لآى إنسان أن يدرك أن مثل
 هذه العلاقة يمكن أن تكون ذاتية فى نمو الأطفال الجنسى
 النفسى . ويظهر بجلاء أن نظرية مضاجعة المحارم نشأت أولاً ، ثم
 أطلق عليها الاسم بعدئذ .

ويعقب الدكتور « راموس » Ramus وهو أحد
 اتباع فرويد ، على هذا بقوله : يخيل إلى أنه من
 الأشياء المفتعلة وغير الطبيعية أن تفسر العلاقة
 الشديدة بين الابن والام « بأنها رغبة مضاجعة المحارم ،
 سواء بشعور أو بلا شعور . وهي توحى بأن فرويد ،
 أو أيا كان أول من فكر فيها على هذا الأساس ، قد
 بحث عمداً عن أسطورة يلائق بها نظريته الجديدة
 بشأن مضاجعة المحارم ؛ فلما عثر على أسطورة أوديب
 تبناها على أنها أقرب أسطورة تتفق مع هواه .

و « الجنسية الطفلية » وفقاً لتحليل الشخصى ، كانت المقدمة
 المنشودة لإفترض وجود « عقدة أوديب » . والمخلوق الوحيد

الذى تنشأ فيه هذه العقدة في هذا العمر الصغير هو الشاذ القوية من الناحية الجنسية . وبما أن حالة أوديب موجودة في كل رجل فلا مفر من أن نكون جميعاً مصبوغين بالطابع الجنسي الطفلي . ولو كان للدائرة مركز حقيقي ، فإن المنطق الدائري يجب أن يحصل ، على الأقل ، على فضيلة من الثبات العقيم ، والواقع أن البناء كله أقيم على فرض ، وفرض غير طبيعي .

وعلى أية حال يجب إلا نطيل التأمل والتفكير ونحن على الباب ، فإننا كرحالة مغامرين ، يجب ألا نفرغ من المسلك المنطقي الشاذ لمرشدنا ، بل يجب أن ندخل في مملكة أوديب الفرويدية .

ويقول د جونز ، أن هذا الاكتشاف المميز والهام للغاية في التحليل النفسي كله ، يتضمن الجنسية الطفلية التي تعد أحدث وأهم مساهمات التحليل النفسي . ويقول فرويد أن عقدة أوديب هامة إلى درجة أن طريقة دخول الإنسان فيها وخروجه منها لا يمكن أن تخلفه بغير أثر .

وهكذا يزعمون : أولاً أنه يوجد موقف أوديب ، وثانياً أنه هام للنمو في المستقبل ، وثالثاً ، ولاهميته البالغة ، فإن طريقة دخول الفرد فيه وخروجه منه مهمة أيضاً . وكل هذا هام لو كان

صحيحاً . وإذا ما فتشنا عن الحقائق التي يتسنى ملاحظتها ، فإننا نقابل حالات المبالغة في التعلق والمحبة في داخل الأسرة ؛ وحاجات النضج ، تؤكد أنه من الخير الخروج من هذه الدائرة . والأدلة قوية على أن فشل المستعدين للإصابة بالعصاب في الانطلاق من أسر هذه القيود ، أكبر بكثير من استعدادهم العادي ؛ وأن مبالغة الأم في تدليل طفلها تخلف آثاراً سيئة ؛ ومع ذلك فإن قيمة هذه العقبة تتفاوت من لا شيء ، إلى اعتبارها العامل الجوهرى فى أية حالة معينة .

ومن الفروض المضادة لمراحل النشوء القول بأن ضروب هذه التعلق الطفلى ، ومنها انفعالات العقدة الاوديبية ، تستعيد حياتها عند البلوغ ؛ وما يحدث فى هذه الفترة ليس « احياء » لها بأية حال من الأحوال ، وإلا لتوقعنا كذلك « احياء » حالات الرحف والحبو والرضاعة وثورات الغضب . وإذا ما تسامحنا وتوسعنا كثيراً وعزونا ذلك الأثر الثانى إلى شدة حرص الوالدين على إرشاد الطفل فى كل كبيرة وصغيرة ، وإلى المبالغة وتوله أحد الوالدين فى حبه لطفله ، فمن المؤكد أنه من النتائج البعيدة — وأن تكن غير المستحيلة — القول بأن تعلق الابنة بأبيها والابن بأمه ، يمنع أو يؤثر على اختيار كل منهما لرفيق الحياة ؛ لأن الابنة تريد أباه فى خطيبها ؛ كما يريد الابن أمه فى خطيبته . وبعبارة أخرى أن

الابن الذى أسرفت أمه فى تدليله يريد أما فى حياته الزوجية ، أكثر مما يريد زوجة له .

ومثل هذه الحالات يحتمل أن تدرس بشئ أكثر من التعقل ، لا على أنها نتائج لعقدة أوديب . فمن الواضح أنها استمرار لعلاقات أبوية وبنوية خاطئة دامت سنوات طويلة ، ولما يؤثر على الموقف من علاقات سن المراهقة ، والعلاقات ، والاحتكاكات التى تحدث فى الحياة العائلية فيما بعد . وقد افترض « يونج » ، إن فرض فرويد بشأن الرغبة فى « ضاحجة المحارم » فقال إنه تعبير رمزى يشير إلى الرغبة فى العودة إلى أحضان الأم أو رحمها . وقال « رانك » أن الافتراض الخاص بأن الحالة « الاوديبية » إنما هى « ميلاد خيالى جديد يردد صدى القلق الذى يصحب آلام الولادة » . وكل هذه الفروض سواء فى أنها فجأة طائشة قامت على غير أساس ؛ ولا يمكن أن تكون كلها حقيقية ؛ ففى جميعاً متشابهة فى صحتها ، وكلها يعوزها احتمال وجود دليل لها .

أما كيف تنمو مثل هذه الدوافع الواضحة فى موقفها ، فى الحاء مع الطفل الذى لم يتم نضجه ، فلغز محير . وهناك أيضاً مسألة انتقال هذه السمات بالوراثة ، فهى من المسائل التى تتجاوز نطاق الفهم ، وتفلت من أية دراسة . ومثل هذه الفروض تتخذ سلماً

لقفزات طموح في مجال الامور التي لا يمكن تحقيقها ، والتي يحتمل أن تؤدي إلى ما يذهل ويشير في ذلك المضمار الذي يسميه « هنشو وارد ، Henshaw Ward ، بترك العقلية ، الفرويدية . « فالهلوسة ، ، والاصطناع ، والارتجال ، بمعونة الالفاظ الملائمة يؤدي إلى الإفراط الفرويدي في مسألة الجنس .

وتنتج عقدة أوديب الفرويدية نسلا من العقد الثانوية ؛ وكلها تفهم ، وتدرک ، بطريقة التناسل بغير اخصاب ذكرى ، وبنفس الخصوبة التي في الفرض . فان فرض « مضاجعة المحارم ، بوصفه حبا للام ، تضمن أيضا « حسد الأب ، ؛ وهذا بدوره خلق حالة « عدا ، ورغبة في استبعاده واحتلال مكانه . ولكن الوالد شيء « مرهوب الجانب ، لما يتمتع به من « سلطة ، ، ولانه « يهدد ، ولكن ماذا يهدد ؟ وللإجابة على هذا السؤال تعمل عوامل الهلوسة نفسها ؛ فالإجابة يجب أن تكون تهديدا جنسيا ؛ ومن ثم تظهر في الوجود عقدة عجيبة أخرى هي « عقدة الخشاء ، ؛ وعنها كتبت المجلدات الضخمة بغير رقيب أو حسيب . وفي كل هذه المجلدات لا تجد أثر أى دليل إذا أستثنينا خيال الطفولة ، وسوء تصرف الآباء أو المربيات . ويالها من أضافة منتقام إلى نظرية جنسية ؟ !

وقد تظن أن الفرض وصل إلى غاياته ، وأنه

أحدث من الارتباك والبلبله مالا مزيد عليه ، ولكن بقيت عقبة تافهة ، فان أوديب كان ذكرا ، وبما أن التحليل النفسى يطبق على الجنسين من ذكور وأنثى ، فانه يجب أن تستقى مادته من الجنس . ولكن هذا لم يفت فى عضد المحلل النفسى ، فجعل حيكته قابلة للتغير ، ورداءً يصلح للجنسين . ولكل الحالات النفسية . وهنا تقدم إلكترا ، فى ثياب حداد خاصة لانقاذ الموقف ؛ وما تندبه هو فقد نفس الشيء الذى يهدده الوالد ؛ فان خيال الطفولة يزعم أنها المخلوق الذى أصابه الخصاص . وهنا تكشف ، وسائل الافتراض ، وقد سمت إلى أرفع مستوياتها ، عن أن اعتبارها على هذا الأساس يجعل نيران الحسد تشتعل فيها من اكتمال الحالة التشريحية فى الذكور .

وليس هذا أيضا بخاتمة المطاف فى هذا الفرض ، فان المحلل النفسى المتتبع لاحوال الاناث يكتشف وجها أنثيا فى تطور الذكور ، أى إنه اكتشف عقدة الانوثة ، وذلك عندما ينشبه الفتى بالفتاة فى اتهام الأم . والفتاة تلوم أمها من أجل نقصها التشريحي ، وتتحول إلى والدها لتجد ما يعوضها . وحتى لا يكون

المحلل النفسى المشتغل بشؤون الذكور دون زميله ،
فانه يصف « عقدة الذكور » فى الاناث التى تنشأ من
المعلومات القتالة عن الاختلاف الجنسى الواضح ؛
ولا ريب أن كشفها ليس من الاسرار الغامضة التى
تؤدى إلى لغز محير أو صدمة عنيفة .

وبينما يصبغ تذلل الابن الصغير أمام المسلك
الصارم لوالده بالطابع الجنسى ، ويسمى « بعقدة
الخصاء » (تهديداً) ، فإن تصرف الابنة الصغيرة
يتحول أيضاً إلى « عقدة خضاء » (قائمة فعلا) .
وبهذه الطريقة تعمم بنجاح عقدة أوديب والخصاء ،
وتنطبقان على الجنسين . ويقول فرويد « ولقد عرفنا
من اشتغالنا بالتحليل النفسى ان جميع النساء يشعرن
بانهن اودين فى طفولتهن ، وأنهن ، لخطأ لم يرتكبهن ، كن
موضع الاستهانة ، كما سلبن جزءاً من جسمهن . وتمتلىء
نفوس كثيرات من الفتيات بالمزارة حيال امهاتهن ،
ويلبهن لسبب لا مفر منه ، وهو انهن جليهن إلى
هذا العالم أناثاً بدلاً من أن ينجبهن ذكورا .

واترك لقرائى من الاناث اختيار ما يشأن من علامات التعجب
أو الاستفهام ، وما يجدنه أكثر ملاءمة لهذه القطعة المنتقاة من

المنطق الفرويدى . وعلى أية حال فإن مسألة الجنس عند
الفرويديين متنوعة . وعقدة « أوديب » تتأثر بالعامل المعقد
المستمد من الازدواج الجنسى .

و « عقدة أوديب » السكاملة ، موجبة وسالبة
أو مقلوبة ، تجمع بين مختلف الوان شدة الانفعالات
(الشحنة الانفعالية النفسية) من « تقمص شخصية
الأب » ، والحب الموضوعى Object Love للام ،
مع تقمص شخصية الأم والحب الموضوعى للأب ،
وكذلك أيضاً « مقدار الشحنة الانفعالية (شدة
الانفعال) الموزعة على الموقف الإيجابى أو السلبى ،
فإنها تعتمد إلى حد ما على القوة النسبية للنزعة الفطرية فى
الغلام أو فى الفتاة ، كما تعتمد على العوامل التجريبية .
« ولهذا العقد ، أيضاً أصل فى الاعتماد على الأم
Anaclitic مما لا يتجاوز معناه الاعتماد المألوف
للبنات .

وتعلق الولد بأمه باعتبارها مربيته وحاميته
« يودى إلى جعلها موضوع الحب فى مرحلة القضيب ،
وتسير الفتاة فى الطريق نفسه ، ولكنها تتحول عندما
تكشف نقص الاداة الذكرية عندها . « وفى هذه

الحالة لا مفر من أن ينزلق لبيد الفتاة إلى وضعه الجديد . ويتخذ من الأب موضوعا للحب ، وعندئذ تبلغ حالة أوديب أوجها على هيئة « رغبة طالما راودتها بأن يمنحها والدها طفلا كهديّة » . وهذا يؤدي إلى نشوء العداوة لأماها ؛ وفي هذه الحالة أيضاً يعمل خيال الطفولة حتى في الاولاد الذكور ، وتظهر فيهم « رغبة أوديب اللاشعورية فيريدون ولادة طفل بطريقة غامضة » .

ولست أجد أدنى دليل في علوم الحياة ، ووظائف الأعضاء والنفس على وجود مثل هذه الاحتمالات البعيدة لآى من موضوعات هذه العلاقات التى انشأتها « الهلوسة » ؛ ولكننى أجد مبادئ مستقرة تبين استحالة حدوثها إلا فى أنواع الخيال التى ينغمر فيها الأطفال كمخلوقات غير منطقية ، وإلا عند الفرويديين البارعين فى أغفال المنطق . وكل هذا خليط من العلاقات المرتبكة التى جمعت بحرية من جميع مراحل النمو والنشوء ثم أدمجت فى بعضها البعض بكل ما جمعت المراحل المشوشة من متناقضات .

أما الرد على هذا الاتهام فكان دائماً ، أن هذه العلاقات غير

الطبيعية ، والدوافع ، والآراء . إنما تحدث في «اللا شعور» : وهو كهف مظلم لا يرى فيه أى شيء ، ولكن فى وسعك أن تدعى أن أى شيء يحدث فيه : فيتعذر تحقيق الادعاء ، كما يتعذر تحقيق ما يحدث على الجانب الآخر من القمر : أو هو كحلم أو خيال فرض فيه أنه يتساوى مع قوة الحقيقة . وهكذا ترى أن الحجة الفرويدية تصير مجرد سفسطة . ولقد حرصت على ذكر العبارات بعبارات الاقتباس حتى لا يرتاب القارئ ، ويظن فى سوء القصد فى اختراع هذه السيكلوجية « النشوية » الفريدة التى نمت على هيئة مذهب من مذاهب العلم على أيدي أناس مدربين فى المجال العلمى ؛ وتقدم للجمهور كطعام يثير الشهية . وقد حاولت بدورى أن اخفف من غائلة حرمانه . وحتى هذا ليس منتهى هذه السلسلة العجيبة ، فلديهم أيضاً سيكلوجية انثروبولوجية نشأت بطريقة ذاتية فى الحقل الفرويدى .

ويقول فيرنزى Ferenczi « أن حياة نفوس أطفال اليوم لا تزال تسودها اللحظات العتيقة التى كانت خالبة على الحضارة البدائية . . ويؤيد هذا الادعاء المنطق الأعرج « نظرية التلخيص » التى انتهى تطبيقها فى هذا المجال من زمن طويل . ولا ريب أن التطور يترك آثاره ملخصة فى الأحياء ، كما أن

الرجعة إلى الأصل تحدث ، ولكن ليس بالطريقة المؤدية إلى تأييد مثل هذا التطبيق البعيد المدى . والمفروض في هذا المجال ، أن لا شعور ، الطفل يعيد تمثيل دوافع الناضجين التي تكونت لها — بفعل الصلات الاجتماعية التي قامت في أزمان سحيقة — نظم وطقوس معقدة .

وتحريم مضاجعة المحارم (وهو موضوع يختلف علماء د الانثروبولوجيا ، في أصله وأهميته) ، يعد كدليل على أن هذا التحريم كان د يحدث بطريقة طبيعية عامة . وإذا كنا لا نعرف مصيرنا ، فهذا ناشئ عن أن د لا شعورنا ، الذي يغلب كالمرجل من كبت حاجتنا إلى مضاجعة المحارم : هذا اللا شعور قد انتقل إلينا من أيام إنسان الكهف ووسائله . فعلم الانثروبولوجيا يوازيه علم طبقات الأرض .

د أن شؤون التريبة ، وشؤون التحليل كليهما يجب أن تكرر فترة الكمون ، وتسيرا بها إلى ختام جديد ناجح (وقد تجرات ، واعتبرت هذه الفترة كمخلفات لأنواع الحرمان البدائي التي يحتمل أن ترجع إلى عهد العصر الجليدي) . وفي هذا التدبير يجب على

الطبيب أن يؤدي دور الأب العصري أو البدائي على حين يكون المريض في حالة الاستعداد التي تتضمن النكوص إلى عقلية الجماعة .

وعلم طبقات الأرض يترك رواسبه التحليلية في سمات خلقية « جليدية » . ولعل المرحلة التالية هي تفسير « برودة » الاناث بحجة مماثلة . والواقع أن وسائل العلماء تصير مخيفة وعجيبة عندما يكون لديهم ترخيص رسمي « للهلوسة » ، كما فعل « مكبث » حين توهم « أوهاما ضخمة قادمة » .

وهكذا فان أنواع الخيالات والمغالطات الفرويدية الصالحة للنقاشات الشعبية تواصل عملها ؛ فتجمع حولها سحب المجد والعظمة ، كلما هجرت المنطق العادي في رغام الحقائق الأرضية . ويدخل في هذا المضمار نوع آخر من بلبلة الافكار ، وهو ليس نشوئيا ، ولا عتيقا ، ولكنه حديث ، وسوفسطائي ، وهو الموضوع المذهل المحير القائل بأن المحذور ينبغي أن يكون مرغوبا فيه كل الرغبة ؛ وهو كغيره من الحجج الكثيرة ينطوي على حقيقة إذا ما طبق في مجاله الصحيح ؛ ولكنه يتحول إلى سخف إذا عبر عنه في غير سياقه السليم .

وهل نستدل من العقوبات القاسية التي تفرضها على جرائم قتل النفس بأننا جميعا في صراع دائم ضد هذه النزوة ؟ وإنا قد

بدأنا كاطفال . وبنادوا فاع القتل ، ونحن فى مهدنا ؟ وهل معنى هذا أن القتلة الفعليين قد حل بهم « التثبيت » فيما بعد مرحلة النمو « الاجتماعى » ، أو أنهم أرتدوا اليه فيما بعد ؟ أو أن نقلب الحجة ونسأل : هل نستدل من عبارة « اكرم أباك وامك » على أنها تنطوى على دافع فطرى ، ولا شعورى عميق يدعو إلى الخط من شأنهما ؟ .

أن المذهل المحير فى كل هذه الخيالات المنطلقة المتحررة من قيود المنطق هو التجاهل المتعمد لمجالات الخبرة الواضحة التى تدخل فى تشكيل ما استرشدت به البشرية ، وما أهدرته ، من الوصايا العشر ، فما دونها . ويجب أن نذكر أيضا العامل الذى اكتسب الصبغة الاجتماعية فى مضمار المحرمات . فكثير من أوجه التحريم والحظر سواء أكانت نبيلة أم وضيعة ، وسواء أكانت منطقية أم غير منطقية ، فإنها انتعشت ، واستمرت بحكم التقاليد ؛ وربما بحكم التحيز الشرعى . وهذه توحى بخلق مجال جديد لمزيد من بحوث التحليل النفسى .

ومن أمثلة ذلك مسألة تحريم الزواج من « أخت الزوجة المتوفاة »^(١) التى اختلفت بشأنها الآراء ، وأثارت كثيرا من النزاع .

(١) كان القانون الانجليزى يحرم الزواج من أخت الزوجة بعد وفاتها إذ كان رجال الدين يعارضون فى الزواج من الأقرباء عن طريق النسب ، ويمدونه من المحرمات . وقد عدل هذا القانون فى عام ١٩٠٧ وأبيح الزواج من شقيقة

وهل يعنى هذا التحريم أن نفترض وجود رغبة ملحة عامة مكبوتة من الطفولة لمضاجعة المحارم الماثلة في أخت الزوجة . . ومن الغريب أن هذه المسألة لا وجود لها إلا بين الأنجليز وحدهم . ولعل هذا أيضا بحث رائع من بحوث التحليل النفسى ؟ ولعلنا نذكر أيضا أن بعض القبائل القليلة الحظ من الاستنارة تكره الاخ على أن يضم إلى عائلته زوجة اخيه المتوفى وابنائهم .

ولا ريب أن كل هذا من شأنه أن يثبت النظرية بشكل ما عن طريق قلب العلاقات والكليات المسموح بها في أيراد الحجج الفرويدية . ولكيلا نترك هذه المسألة المغرية بدون اسم فاننا نطلق عليها لقب « عقدة ليا وراحيل »^(١) ثم ننتظر من التحليل النفسى أن يؤكد لها ؛ فبمثل هذا المنطق نستطيع بكل سهولة إنشاء تقويم كامل من العقد للخطاة . ونستطيع أيضا أن نكرر ما فعله أحد

الأخت المتوفاة بعد أن أثار عدة مشكلات وعرض على البرلمان أكثر من ٣٠ مرة . وبلغ من حدة المسألة أن وافق مجلس العموم على التعديل ، ولكن مجلس اللوردات رفضه في عام ١٨٥٥ . وبلغ من حدة الخلاف أن القانون أباح لرجل الدين أن لا يعقد هذا الزواج ، ولكنه يسمح لرجل دين آخر بأن يعقده . وقد استمرت هذه المشكلة مجال خلاف بين الأنجليز نحو قرن من الزمان .

(١) ليا وراحيل الشقيقتان اللتان تزوجهما يعقوب والد يوسف الصديق .
(المترجم)

أبطال الأساطير من ارتكاب جريمة قتل كل يوم في اللاشعور
ليرضى قضاء قديما قدر عليه. ولعله من المغريات الاكثر طلاوة أن
نكتب وصايا عشرةا على لسان موسى وفرويد ونبدأها بقولنا
« لا تشته أمك ، ولا تقتل أباك إلا في اللاشعور حيث أيامك
معدودة ، ثم نختم الحوار حيث لا نعرف ؟ »

ويظهر كأن الشعر المكتوب على البيت الفرويدي هو
« أهجروا كل منطق يامن تدخلون هنا ، ومع ذلك فإن أوديب
هو حجر الزاوية في العقد : « فسائر نتائج نظريات التحليل النفسى
تتجمع حول هذه العقدة ، وعلى صحة هذا الاكتشاف يتوقف
قيام التحليل النفسى أو أنهياره . وهذا ما يقوله « أرنست جونز ،
اكثر رسل فرويد شهرة في بريطانيا ، فإن كان الأمر كذلك ، فإن
الصرح العظيم يتحول إلى كومة يرثى لها من الركام ، لأنه بنى على
الرمال ؛ فإن عقدة أوديب تكشف عن خيال مريض حل به
العطب نتيجة لا ستنشأقه لنسائم مسممة بالمنطق المختمر .

وفى رأى أن الجزء القويم من نظرية الجنسية النفسية اكثر
استقرارا بدون افتراض أن عقدة أوديب مرحلة عامة في النمو
النشئى ؛ وهو ذلك الافتراض الذى مبرر له . ولا يوجد أنسان
يعترض على أن النمو نفسى جنسى ، بمعنى صحيح هام . وإذا كان
لتحليل النفسى يريد الاسهام بأى نصيب أصيل ، فعليه ان ينبذ

الاساطير النفسية . وفي وقت ما انطلقت الهلوسة الرزينة لتعتبر كخفائق ما يظهر كأنه متفق مع النظرية الاساسية . واقبلت تصوغ عشرات المسائل كمبادئ وتعاليم توصلت إليها في عيادة التحليل النفسى : وهى مسائل تخرجها كل سنة مصانع التحليل النفسى . ومع أنها مصانع لا تعمل فى بطنه فان تخرج ما تخرج فى ثوب دقيق كل الدقة .

الشخصية ذات الصبغة الجنسية :

من الجائز أن تكون رحلتنا فى مملكة « أوديب » قد أوجت إلينا فى وقت من الاوقات برحلة سائح يقوم بتنقلات سيكولوجية بين أناس عجيبين فى طبائعهم ، غريبين فى تصرفاتهم . ويقوى هذا الايحاء إذا ما أدخلنا فى حسابنا مصادر السمات الخلقية لانواع من المخلوقات الغريبة الساكنة فى عالم فرويد ، فمن المفروض علينا أن نرى فيها نسخا مطابقة لصورنا التى نحن عليها . ومفتاح تحليل الخلق على الطريقة الفرويدية يقبع فى غير تبصر فى إبناء الطبيعة للجسم وتشريحه .

ويظهر هذا المفتاح بجلاء فيما يسميه رجال الطب بالجهاز « التناسلى البولى » ، Genito Urinary ؛ فقد اكتشف فرويد مرحلة تناسلية بولية فى الطفولة ؛ وهى تتوسع ، وتصير مهمة « إخراجية » عامة . ويخرج هذا « الاكتشاف » من الصندوق السجى للتحليل فتؤيده خيالات من خيالات الطفولة ؛ ويظهر فى أهتماماتها

وأنواع المحرمات التي تمتد من التناسليات إلى البولييات عن طريق توزيع أجهزة الجسم ونظام تشريحه . وتمتد أيضاً عن طريق القرابة الفسيولوجية إلى الوظائف الخارجية .

وهم يزعمون أن الاحساس المثير للذة والاهتمام يجذبان الطفل إليهما . ويحدد هذا الاهتمام ما يقويه ويدعمه فيما يصحب عملية الإخراج ، من سرية ، وانفراد الشخص بنفسه . وفيما يبذل من تأكيد بوجوب ضبط أمورهما ، والسيطرة عليهما . والذهاب إلى المرحاض أو الحمام أمر شرعى له أهميته لصغار الاطفال ؛ ومن العسير أن نقول أنها القدس الداخلي للحياة النفسية في أى طفل سوى : فإذا أدعينا أنها تؤثر على مستقبله لدرجة عظيمة ، حتى أنها تشكل أخلاقه ، فأننا ، في الواقع ، نشط إلى مدى بعيد حتى نصل إلى هذه النتيجة . ولو ظهرت هذه الفكرة بطريقة شعبية ، أو كاعتقاد عند مربية ، لا اعتبرت نوعاً من الخزعبلات الغريبة ؛ أما ظهورها في كتاب فرويد ، فيجعلها رسالة علمية !

واستهلال القصة يقوم على أساس وطيد ؛ فالكتاب الأول — التكوين — من كتب هذا النمو يتفق اتفاقاً تاماً مع علم النفس النشئى ؛ وأول المراكز المثيرة للاهتمام الفعال هو الفم . والحياة النفسية ذات السمة الفمية أصيلة في مستوى الطفل كالغدة و السعترية Thymus أو اليافوخ Fontanel . فالفم بحكم اسبقيته

في مجال الحس ، وباعتباره المنفذ إلى داخل الجسم يصير مركز الإدراك ؛ وهو في ذلك يسبق اليد . واللذة هي شرك الطبيعة المغرى في عالم الحس ، فهي كالشهد بالنسبة إلى النحل . وإذا ما سمينا نتيجة مدى الاهتمام وما يصحبه من أحاسيات ، شبقاً فياً ، بدل أن نسميه « باللذة الفمية » ، فهنا تبرز أولى خطوات الخطأ الفرويدي ؛ والزلة الأولى في المنطق تنذر ، بالنتائج الخطرة كل الخطر .

ويتفق أيضاً مع المبادئ النشوئية ، استمرار هذه المناطق الأولية للذة الفمية ، وتطورها ، وعندما يقع الشبان السويون العاديون في الحب ، فانهم لا يعودون إلى مص أصابعهم ؛ وإذا أنتعش الدافع الشهوى ، فانه يستخدم المجال المبكر للذة ، ويزج بالشفاه في الوسائل الشهوانية ، ولكن بطريقة ناضجة . وتمر مراحل كثيرة من سيكولوجية الشفاه عند الطفل ، وعند الشاب ؛ وهي مراحل شائعة معروفة . ولا يستطيع تجاهلها إلا رجل عالم مغرض يتناسى كل شيء في سبيل تحقيق هدفه . ويظهر أن الفرويديين نسوا أن الشفاه تستخدم في عدة أغراض غير جنسية . وبحكم الافتراض القائل بأن كل شيء هو الجنس وأن الجنس هو كل شيء ، فانه ينشأ لدينا علم نفس نشوئي شامل ، وعلم أخلاق . ويؤسفني أن أثقل على القارئ وأعرض عليه بعض سبل الفرويديين .

والخبير في «الخلاق الفمى» هو إبراهيم Abraham وقد اكتشف «مرحلتين فرعيتين طفليتين في منطقة الفم : الأولى في الشفاة . والثانية في اللثة والإسنان . فإذا كان «الأنثى» الذى لم يفطم بعد قد أصابك التثبيت في مرحلة الرضاعة ، أو انغمر بشدة فيها ، فإن تأثير هذه «اللذة في الأخذ» ينمو إلى نمط عام من حيث «الأخذ» ، حتى إذا ما نضجت صرت شخصية متفائلة . أما إذا كان «الأنثى» الذى لم يفطم بعد يغالى في انهماكه ، فإنك تنمو كشخصية «خلية البال» عديمة الاهتمام بما يجرى حولها ، ومنعقدة النشاط . ومن الجائز أن لا تبذل أى جهد حتى لكسب رزقك . والاتجاه العام عند أمثال هؤلاء الأشخاص هو انتظار شخص عطوف يمثل الأم ليغدق عليهم النعم إلى الأبد . ويحدث الكرم عادة عن طريق تقمص مكان الأم السخية ، (هيلى، نقلا عن إبراهيم) .

وإذا كان «الأنثى» غير الفطيم يخفق في الظفر «بارضاء رغباته في فترة الرضاعة» ، فإن هذه الحمية الطفلية يحتمل أن تؤدي فيما بعد إلى المطالبة بالمركز الاجتماعى (متواضعا كان أو مزاحما) ، كما تؤدي

إلى الميل إلى التعلق بالآخرين ، وكرهية الوحدة .
وسرعة نفاد الصبر من السمات البارزة في هذا الطراز
من الناس . وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه
الشخص المتشائم الذي يصل بكل شيء إلى أدنى
درجات السوء ، ويجد الصعوبات في كل مكان . أما
أولئك الذين يخفقون في الظفر بالإرضاء الملائم للرغبة
« الفمية » ، فإنهم « من الجائز أن يسايروا الناس شفويا
عن طريق الفم » . وهذا يؤدي إلى وجود دافع ملح
عند لكثرة الكلام ، وفرض قيمة كبيرة لكل
ما يقولون ، فكثرة الكلام ، فضلا عن التشاؤم ،
والغرور ، تنشأ عن رضاء ناقصة غير كافية .

ومرحلة العض ، وهي الثانية في الشهوة الفمية ،
« تخلف آثارها المحددة في الشخصية فيما بعد » ، وتنبئ
عن سيكولوجية مقابلة لسيكولوجية اللثة والإنسان
عند الشبان . وهذا الطراز من اهتمامات الطفولة ،
ينبئ عن التصرفات العدائية ، وحالات الكره ، والنمو
الشاذ للحسد . وكل مسلك الفرد ، من اختياره لمهنته
إلى هواياته ، يحتمل أن يجد جذوره في الشهوة
الفمية . وفي اللغة الانجليزية تطلق لفظة الرضيع

(Sucker) على أصحاب المناصب العامة ، وإنهم
 « رضع متشبثون » . أما كيفية تعليل حالتهم الشهوية
 في مرحلة الطفولة ، فمسألة لم تعين بعد .

وهذه الاشتقاقات والاستنباطات مذهلة عجيبة ؛ وسبق
 أن خدعت « جال » (Gall) من أكثر من قرن من الزمان ،
 فقرأ سمات مماثلة في تضاريس الجحمة . . . الواقع أن الأرض
 تدور ومعها يدور العلم .

وعندما يناقش طبيب يحمل أجازة الدكتوراه في الطب مثل
 هذه الفروض المضحكة في رسالة مؤلفة من ١٤ صفحة من الرطانة
 العلمية ، ويملاها بفروض مثيرة للسخرية ، وما يعد أموراً صيدانية
 حتى ولو كانت مجرد مزاح ، عندئذ يجوز للإنسان أن يقذف
 بالحزم والفظنة في الهواء لتذروها الرياح . وإنه لمن الاصوب
 أن نصف مالا معنى له بنعته الفعلي ، فنصرح بأنه هراء مثلها
 نسمى الأعور أعور ؛ فبحال الاختيار ضيق بين قراءة الخلق
 بطريقة متعالة مزهوة ، وبين التخمينات اللبقة « والنبوات »
 المندفعة من فم نورية من قارئات البخت ، أو بين تلك التصريحات
 الخرافية التي يطلقها منجم مخبول في نشوته . وما انطوت عليه
 تلك التعاليم يجعل مهنة الجهلاء أفضل ، لأنهم قد لا يعرفون

ما يفعلون ، أو يعرفونه ، ولكنهم يستغلون البسطاء والجهلاء .
وليس هذا كل شيء ، وسنقدم إليك ما هو أشنع ، فالكتاب
الثاني في علم نفس الخلق الفرويدى هو « الخروج » . وقد وقف
سفر « التسكوين » ، أو نشوء سمات الخلق عند المدخل ؛ وجاءت
المرحلة الثانية عند مخرج القنوات الغذائية ؛ ففي النمو النفسى
الجنسى ينتقل الاهتمام من إجراءات الفم إلى إجراءات الشرج ؛
والتفسير واحد ، أما الاصطناع فأكثر تعقيداً ، ولعله يكفى للاقتناع
أن نسرد النتائج .

والثالث الأكبر الفرويدى لخلق الشرج يتألف
من (١) النظام (نظافة الجسم ، والاستيثاق ، وتوفير
مراعاة الضمير فى أداء الواجبات الصغيرة) فإن كانت
من نوع متطرف ، فهى حذقة ، وإدعاء علم . (ب)
البخل الذى يجوز أن يتحول إلى شح . (ح) العناد
ومن الجائز أن يتحول إلى تحد ، ويحتمل أن ينطوى
على سرعة الغضب والحقد . وهذه الصفات الثلاث
للشخصية توجند معاً بانتظام ، وتؤلف الصفتان
الآخرتان عنصراً ثابتاً .

وإذا كانت شهوة الشرج قوية فى طفل ، فإنه
يظهر بلذة كبرى من الشهوة الذاتية والرجسية فى

أثناء عمليات إخراج الفضلات : وهو يتأثر تأثيراً شديداً بضروب الحرمان التي تصحب تدريب العضلة العاصرة ، وأنواع المحرمات التي تفرض لمنعه عن الأعراب عن الاهتمام بشهوته الشرجية . ويوجد نوعان من تكوين الخلق الشرجي : وهما يستمدان — بالترتيب — من اللذة في العملية ، واللذة في الفضلات « ولون سمات الشخصية في المستقبل يتقرر في الغالب تبعاً لنوع الاهتمام الأصلي الذي يسود » .

لم يوضح فرويد عمليات التطور الحيوية البيولوجية التي تؤدي إلى نمو الصفات المخية على أساس أجهزة التخلص من الفضلات في عمليات الاحتراق الغذائي !

ومن السمات البارزة في العلاقات الموضوعية التي ظهرت في خلق الشرج ، ميل « الانا » العام إلى الاحتكار والملكية ؛ ومن الميسور رد هذا الميل إلى النشوة النفسية الأصلية في عملية حبس البراز . وغالباً ما يعبر الحب الشرجي عن نفسه بمنح الهدايا ، ويفضلها على أظهار الود للحبوب . ومن الجائر أن ينفذ هذا التعبير في العلاقات الاجتماعية بوجه عام ،

فيتخذ في الغالب مظهر تقديم الهبات والحسنات ومناصرة الناس . وتظهر أثره الحب الشرجى بوضوح في هواة جمع الأشياء . وهذه الأشياء ترتبط بالبراز ، فلذة الإنسان في النظر إلى مبتكراته العقلية ، وفي الرسائل ، والمخطوطات . وفيما ينجزه من أعمال شتى ، نجد نموذجها الأول في « نظر الإنسان إلى برازه » .

ولا يمكن فهم البخل كسمة للشهوة الشرجية إلا إذا أدخلنا في حسابنا عملية الرمزية ؛ فإن اعتبار البراز ، والهدايا ، والنقود ، شيئا واحدا عند اللا شعور ، يؤثر على كثير من العلاقات الاجتماعية الخاصة بالنقود فيما بعد . والاهتمام بامر النقود يلعب دورا في الخلق الشرجى ، وقد اجتذب إليه « الاهتمام النفسى الذى كان فى الأصل خاصا... بمنتجات منطقة الشرج ، ومن مميزات الرجل « الشرجى » كرهه للفضلات ، وبذل الجهد فى الاستفادة منها ، وابتكار الأجهزة الموفرة للوقت ، وأداء عملين فى وقت واحد . ولزيادة الاحتياطات العملية ، فإنه يتعرض لنسيان الديون الصغيرة . فالشخص المحافظ « شرجى » والحر « فمى » .

ويلعب الأعلام دورا كبيرا في العناية باهتمامات
الطفولة البرازية ودوافعها التي تعسد بالطبع من
المحرّمات على الكبار بنوع خاص . ويسود
الاعتقاد بأن الاهتمامات المتأخرة بفنون الرسم ،
والنحت ، والطهى ، وتشكيل المعادن ، والنجارة ،
يمكن تتبعها إلى اللذة البرازية القابعة في عمليتي التلطّيح
والتشكيل . وعلى هذا الأساس ، فإن اختيار
المهنة والعمل يعتمد في الغالب على عملية إعلاء
الاهتمامات الشرجية .

والفرد الاجتماعي اللامع الذي ظفر بارضاء
رغبته في المرحلة الفمية المبكرة يناقضه الشخص
العدائي الحقوق الذي يمكن تعقب سماته في هذا الصدد
إلى مرحلة العض ، ويتناقض الاجتماعي أيضا مع
الفرد المكتئب الحاد الطبع المحب للوحدة ، والكتوم
الذي استمد سماته من المرحلة الشرجية .

هذه الاقتباسات ليست منقولة من نسخة غير منقحة لكتاب
« صدق أولا تصدق » ولكنها منقولة من المجموعة العلمية الرشيدة
لتعاليم فرويد التي نسقها وجمعها « هيلي وبرونر وبورن » ، ولا ريب

أن علم الصرف مسئول ، ويجب توجيه اللوم اليه لدعابته المسيخة
العديمة الطعم لأن تركيب اللفظة اللاتينية للتحليل النفسى تضمنت
لفظة الشرج أيضاً ، وهى Psycho - anal - yses ^(١) (لفظة anal
معناها شرج) ومن اللائى الثمينة التى لا تقدر بثمن والتى تصرخ مطالبة
بسردها ، مسألة تأليف شخصية القناة البولية ، التى تظهر كنتاج
فرعى لمرحلة الشرج .

ويظهر أن ما اكتشف من السمات المعينة المستمدة
من شهوة القناة البولية قليل جداً . ويتحدث فرويد
عن الطموح ، المتوقد ، الذى ظهر أنه شديد الصلة
بتبول الأطفال . ويدعى هيتشمان Hitchman أن
الطموح ، والميل إلى اللعب ، أو الاشتغال بالماء ،
كالمبالغة فى الاستحمام ، والغسل ، قد أشتقت من
شهوة القناة البولية .

ويذكر د جلوفر ، Glover أن الطموح ، والحسد ،
ونفاد الصبر ، من أصل قنوى بولى . أما د أبراهام ،
فيرى أن الطموح يستمد من الشهوة الفموية . ويقول

(١) Psychoanalyses لغويا : تتألف من Psyche ومعناها نفسى
و Analysis ومعناها تحليل ولكن سخرية المؤلف جعلته يقسمها إلى ثلاثة
مقاطع (الترجم)

أنه يزداد قوة بفعل دوافع القناة البولية . و يروى
فينك Fink حالة لاعب كرة كان قذفه للكرة يشعره
بنفس اللذة الكبيرة التي سبق أن أحس بها في
صغره عند التبول .

ويقول " فيرنزي " ، " أن رجلا مهذبا كان يذكر
جيذا ضعف مثاقته ، وقد صار بعدئذ من رجال
المطافئ المتطوعين والمحبين لهوايتهم . وهذا لا يدهشنا
كثيرا بعد ما ذكره ، أما عمله بعد أن شب ، ونما ،
فلا يزال " مشروطا ، بحالة طفولته ، لأنه عندما
تحول إلى مضمار الطب كان من الاخصائيين في
المجاري البولية .

وهذا الفصل المبتكر حقا في علم الخلق يوحى ، بانه لو ان
مريضا بالبرنويا من المرضى اليقظين المبتكرين الذين يؤلفون
صفوة نزلاء مستشفيات المجانين ، دفعته تأملاته المريضة لتأليف
نظرية تقول بأن سمات الخلق كالعناد ، والتمرد ، والبخل ،
والادعاء ، وغيرها من السمات التي ذكرت ، إنما هي نتيجة لتردد
ظاهر في إخراج البراز ، ويصعبه ميل إلى الإمساك ؛ لو ان هذا
حدث لأنشأ الابتكار فصلا هاما جديدا اسمه " بارانويا الشرج ،
ليضاف إلى سجلات الامراض النفسية الحافلة . والعينة الفرويدية ،

إنما هي برنويا مصطنعة عن عمد : وهي الجنون المنطقي للعقلية
الأكاديمية . ولعله من الضروري في المستقبل أن نصنف الناس
في ثلاث مراتب هي العاقل ، والمجنون ، والفرويدي .

عرفنا الآن كيف يتألف جزء من الخلق في غرفة الأطفال ؛
بينما يتألف الجزء الأكثر تأثيرا في الخدمات المنحطة الخاصة
بالمراهض . والباحث الفرويدي في نفسية الطفل يتتبع حب الطفولة
في مجراه المضطرب من الفم إلى الأعضاء التناسلية ؛ وهو يرى
سمات الشاب حتى لو كانت معقدة كالادعاء ، والتحرر . كنتاج
لعمليات البنية الجسمية التي تؤدي في الحياة الخاصة . وهذا الفصل
الدخيل يسميه « فيرنزي » ، « ما وراء علم نفس العادة » . ولا ريب
أن مثل هذا الاشتقاق لا مكان له في أى أنواع علم النفس التي
عرفها أبناء البشر العاقلين حتى الآن .

وللتحول إلى المرحلة التناسلية سيكولوجيته الخاصة
وما يتفرع عنها .

ويقول جونز Jones أن شهوة الشرج تظهر في
« الميل إلى الانشغال بالجانب المقلوب للأشياء ،
وبالمواقف المختلفة . ومن الجائز ظهور هذا الميل
بوسائل شتى ، ومثال ذلك ما تثيره فينا الناحية العكسية

من فضول واضح ، فتريد معرفة ظهور الاشياء ،
والاماكن : ونرغب في السكنى على الجانب الآخر
للتل لانه يعطى ظهره لمكان معين . ومن هذه الامثلة
أيضاً الميل إلى ارتكاب عدة أخطاء فيما يختص باليمين
واليسار ، والشرق والغرب ؛ وكذلك قلب الكلمات
والرسائل في الكتابة وغيرها ، ويضيف ابراهام قوله
« ولا ريب أن أزاحة اللبيد من المنطقة التناسلية إلى
المنطقة الشرجية هو الأصل في كل هذه الانقلابات » .

ونصل بسلام كثير أو قليل ، إلى المرحلة التناسلية عند البلوغ
وهي على أية حال يكون ذلك مصحوباً بإحياء المرحلة التناسلية
الأولية للطفولة (الخاصة بعضو التناسل ، وعندئذ يستعيد اللبيد
سيادته ، وتصير القاعدة الموجهة تناسلية كما أعلن « فيرنزى » في
خيلاء وزهو ؛ ومن ثم يتحرف علم النفس « النشوءى » إلى مركز
تناسلى ، وعندئذ يظهر مورد « جنسى » آخر لسمات الشخصية .
وهو ليس الموقف الأوديبى وحده ، بل أنواع أخرى للانحرافات
الجنسية تهدد ، وتصبغ نضج الذات التى صارت جنسية إلى الأبد .
وفى هذا المضمار تشترك النرجسية (عشق النفس) ، والسادية
(اكتمال اللذة بايلام الغير) ، والمازوكية (اكتمال اللذة بالتالم)
كل هذه تشترك مع الاوديوية فى تشكيل الإنسان الفرويدى .

«والترجسية» لفظ مفيد ، ولكن الفرويديين زودوه بعلامات توحى بإهانة علمية دقيقة . ولذا عجاب بالنفس مضمار فسيح عامر يتضمن لذة الفرد من عرضه لمقاتته الشخصية ، ومقتنياته وأعماله ، ومن زهو الطفولة إلى تملق الجماهير . والاعجاب بالنفس يمتد من الذات الشخصية الحميمة إلى « الإنا » الاجتماعى المبنى والمكتسب . والتنافس الجنسى هو أحد أوجه التنافس الاجتماعى وهذه السمة تتضمن تأكيد هذا الوضع الذى يجوز أن يسود حقا .

وإلى هذا المدى ، والاتفاق مع الفرويدية عادل ؛ أما المثير للنزاع فى طريقة التطبيق والتشخيص ، فهو فرض الطابع الجنسى على كل وجه من وجوه السمات لأنها تحتوى على مقوم جنسى . ومن ثم تنصهر جميع الوجود فى الأصل الجنسى وتتسم بطابعه . وهذه سيكولوجية خاطئة ، فالترجسية لفظ أكثر فائدة إذا ما اقتصر على اتجاهه المحدود وتأكيده . وينطبق التعقيب والتصحيح بطريقة أقوى على السادية .

ومن تحريف المنطق القول بأن كل انحراف جنسى فطرى ، وإنه يتمثل فى جملة الحياة الجنسية . ومن عوامل الفوضى «الانشوائية» أن نجعل كل أنواع القسوة مستمدة من سادية فطرية ، فنطوى فى (م ٩ — الأحلام)

هذا المضمار عملية جذب الطفل لجناح حشرة، وأنواع المشاكسات. والمعاكسات، ونعتبره كقسوة عاملة وغلظة نحو المرضى أو المسجونين. ويظهر هذا الاتجاه الذي لا مبرر له أيضا في المازوخية أو اكتمال اللذة بالتألم؛ ومن الجائز أن تتحول سمتها إلى عقدة «الاستشهاد». وتعميم أنواع التطرف الجنسي لا تستخدم أى غرض نافع؛ ولكنها تنزل أقصى أنواع الارتباك وبليلة الأفكار بسلوكولوجية الانفعالات النفسية. والمغالطة السكامة هنا مستقرة، لأن لفظي سادية ومازوخية غير مألوفتين، ومن ثم فهما تحملان قوة الشيء المبهم، والاكتشاف العميق، وما يجرى من ادعاء.

واصل هاتين الكلمتين هو أن المراكز أو الكونيت «دى ساد» (١٧٤٠) (١٨١٥) عاش حياة مضطربة؛ وقد أتهم باستخدام السم، وارتكاب عدة اعتداءات غير طبيعية، وكان ضحية انحراف جنسى مصحوب باللذة عن طريق استخدام القسوة الجسدية مع موضوعات عشقه. وبينما كان سجينا فى «الباستيل» كتب مجموعة قصص بذيئة، وأرسل منها نسخة إلى نابليون بونابرت. وقد نقل إلى مستشفى الأمراض العقلية، ثم أطلق سراحه، ثم اعتقل ثانية، وأعيد إلى السجن باعتباره ممن لا يرجى شفاؤهم، وأمضى

الاحدى عشرة سنة الاخيرة من عمره في سجن
«شارنتون» . وقد ظفرت رذيلته (أو ظفر جنونه)
بتمييزها باصطلاح علمى هو اسمه .

وكان «زاخر مازوخ» Zacher Masoch كاتباً
صغيراً ، تناولت كتاباته الحياة فى «جاليقيا» وتضمنت
حكايات عن شهوة النساء وظفرهن باللذة عن طريق
استعمال القسوة معهن فى أثناء العملية الجنسية .
وهذه ولا ريب سمة سقيمة نقلت أوصافها من مجال
العلم باطلاق اسمه على نوع الرذائل التى سجلها .
وتصير المغالطة أكثر وضوحاً عندما تطبق على انحراف
أكثر شيوعاً هو الجنسية المثلية (الواط أو السحاق) وكل
إنسان يعرف أنها شذوذ ، ولكنها لا تتخذ هذا الوضع
فى النظرية الجنسية الفرويدية ؛ فهى تفرض أن هذه الجنسية
المثلية اتجاه شائع فى كل الناس ، وإنه لا مفر من كبته ،
والشبوب عن طوقه . أو تحويله ، وتحليله ؛ وهى تفرض أيضاً
أن اللبيد يحتوى على عنصر جنسى مثلى ، وهو فرض غير نشوئى ،
كما هو منحة ، تبرع به فرويد ؛ فاللبيد يُفرع اتجاهات وميولاً كما
لو كان المحلل واقفاً خلف كل منظر ليدبر حبكة المأساة البشرية .
ويتبع ذلك أن عصابات الاولاد ، وأندية الرجال ، ومجتمعات

الفتيات . ومؤسسات السيدات ، كل هذا يضم اتجاهات لواط
أو سحاق متسترة : أما كيف حدد التطبيق ، ولم يشمل كل هذا
النطاق الواسع . فيرجع إلى الرقابة التي تفرض على الفهم العام ،
والذوق السليم .

وبالمنطق ذاته صارت كل مودة ابن لاه تنطوى على
مضاجعة المحارم : وكل محبة شهوانية ، وكل قسوة صارت سادية .
وكل اغتباط بالالم مازوخية . وبهذا المنطق صارت كل
الاجتماعات القاصرة على الرجال . أو الأندية الخاصة بالنساء ،
لواطاً أو سحاقاً . ولو كنا من الفرويديين المتشبهين لا اعتبرنا كل
جاءات العالم الخاصة بالبنين كليات « لواطية » ، رغم أن هذا
الوصف لم يذكر بعد في الكتب والوجات . ولو كنا فرويديين حقاً
لاستبدلنا كلمة التعليم المختلط الذي يضم الجنسين ، باللفظة
الفرويدية الأكثر ملاءمة وهي « الجنسية المختلفة » ، Heterosexual

وتظهر النتائج الخطيرة التي ترتبت على الخطوة الأصلية في
تطبيقها فيما يلي من مسائل ، وهي : رؤية سمات النضج في الطفولة؛
استخلاص سمات النضج من إحداث الطفولة المصبوغة بالطابع
الجنسي ؛ وجعل عنصر الجنس غالباً في كل ما يدخله من انفعالات
وعلاقات . وتبعاً لهذا فهم يؤكدون لنا أن اختيار مهنة ما يتقرر

من ناحية بالافراط في العلاقات الحبيبة : أو نواع التثبيت في المراحل الشرجية ، والفموية ، والقنوية البولية ، وبالسلمات الجنسية المبكرة ؛ ومن ناحية أخرى تتساوى في هذا المضمار أيضاً دواع السادية ، والمزوخية ، والنرجسية . فالجنود ، والحلاقون ، والجزارون والجراحون والخياطون أيضاً يجدون منافذ لسماهم السادية في عمليات التقطيع ، وتناول الأسلحة المختلفة . وبفعل هذه القوى نفسها فصل إلى النتيجة القائلة بأن أبناء أولئك « القطاعين » يتعرضون للإصابة بأمراض العصاب التي تعد « مبالغة ضخمة للخوف من الخصاء » . فالزلة الابتدائية أفسدت الصورة العامة كلها ، وجعلت تلك الأوجه في التحليل النفسى مجرد صورة مشوهة سخيفة .

والشخصية المصبوغة بالصبغة الجنسية ، تصبغ بسلمات تناسلية بنفس الخطأ الذى أساء كل الإساءة إلى مدرك اللبىد ؛ وبسلوك هذا الطريق اكتشف فيرنزى « عقدة كورنيليا ، Cornelia Complex » وقال أنه عندما أشارت أم جراكشى Gracchi إلى ولديها ، وقالت إنها جوهرتها ، فإن لا شعورها كان يعرض اغرامها الجنسي .

وهكذا فإن الفرويدى البارع يطبع كل عمل ، وكل شئ بالطابع الجنسي ؛ ويجد باعثاً مشيناً لكل شئ . واضح فى أعمال

اليوم العادية ؛ فيجد أحداثا . وتصرفات جنسية في وقفة لاعب الجولف ، واوضاع قد فيه ، وكيف يتناول مضربه . وهو يفحص عن براعة ، وعلم ، إن كان التدخين فيها ، لاننا نمسك السيجارة بفمنا ، أو أنه شرعى لأن السيجارة تخلف رمادا ، أو أنه تناسلى بسبب شكل السيجارة . وهو يهبط بكل الاهتمام الخاصة . ويجعلها فروعا للأعمال الجنسية ، ومشتقاتها ؛ فالرغبة في المعرفة ليست إلا نوعا مقلوبا من التطلع إلى معرفة المزيد من النواحي الجنسية ؛ والاهتمام بالحركة سواء أكان أيجائيا أم سلبيا ، وسواء أكان توافقيا أم نشازا ، إنما هو مستمد من الدائرة الجنسية . وممارسة الرياضة ، والفن ، واختيار المهنة ، والهوايات ، وأنواع المعتقدات ، سياسية كانت أو دينية أو خرافية ، وكذلك أنواع المخاوف ، والخجل ، والكراهة ، والعلاقات ، كل هذا إنما هو إنتاج فرعى لنشاط جنسى أولى .

كل هذا يوضح ما سبق أن قلته عن عملية الاختزال والتبسيط؛ و(خطأ) سيكولوجية « ليس إلا » . وكل هذه الاتجاهات ، وأوجه النشاط الفرعية سواء أكانت تافهة أم جدية هامة ، فإنها حلت على أنها « ليس إلا » ، أعمالا جنسية عدلت ، وتستر . وإذا كانت هذه هى فكرة فرويدية عن الاعلاء فإنهم قد جعلوها لفظة سيئة ، وجردوها من كل فضائلها . فالاعلاء الصحيح هو جعل

الحياة النفسية ثرية بإحاطة الدوافع بأعمال حياة مهذبة . وهذا
فصل آخر في القصة التي كان يجب على فرويد أن يسردها .

ولكى أوضح عملية الاختزال وأبسطها ، وكيف
كانت موضع عناية جديدة ، فإنني أذكر بحثا للبرحوم
الدكتور كارل إبراهيم ، الزعيم السابق لحركة التحليل
النفسى فى ألمانيا . والموضوع يتألف من ٦٥ صفحة
عن « قيود وتحولات السكبتوفيلية (لذة مشاهدة
العراة) فى العصايين النفسيين مع ملاحظات عن
ظواهر مماثلة فى السيكلوجية الشعبية » (١) .

« والسكبتوفيليا ، أو لذة مشاهدة العراة رطانة
طبية كلاسيكية بشأن الرغبة واللذة الشديتين
الناشئتين عن الرؤية ، وهى فى التحليل النفسى تشير
إلى التلذذ بمشاهدة المناطق الشهوانية ؛ ويعبر عنها أهل
بلاد الغال بلفظة Voyeurism كما يعبر عنها الانجلوسكسون
فى أحاديثهم بعبارة (Peeping Tom) . وعندما يوجه
هذا التطلع أو الفضول إلى أى شىء آخر مهما كان
بعيدا ، فإنه يقال إن هذه اللذة الجنسية الأصلية

(١) (Restrictions and Transformations of Scoptophilia in Psycho-
Neurosis, with Remarks on Analogous Phenomena in Folk-Psychology)

تحوّلت . ونقلت من مكانها ؛ فإن باعت الشكل
الاعلى للفحص ينخفض ويصير باعثا أوليا . وهكذا
فإن الكيمائيين ، والجيولوجيين ، والفلاسفة يعدون
متطلعين متحوّلين .

ولكى يتيسر للقارىء أن يتتبع مجرى هذه
الاشتقاقات العلمية ، ، فإنى أذكرها بالتفصيل ،
من وجهة نظر التحليل النفسى :

« إن أكبر شيء أثار اهتمامه فى الكيمياء ، هو
حالة التكوين أو التفاعل (Status Nascendi) ؛ وإذا
ما فحصناها بدقة ، فإنه يظهر أن اللحظة التى تألفت
فيها مادة ، أو التى اتحدت فيها مادتان لتولفا أخرى
جديدة ، قد جذبت به بطريقة إيجابية ؛ فإن اهتمامه
بعملية الإنتاج (اتحاد مادتين لتأليف أخرى جديدة) ،
والولادة (حالة التكوين أو التفاعل) ، قد انتقل
إلى الاهتمام بالمشكلات العلمية بطريقة ناجحة .
وعن طريق لاشعوره ، اكتشف فى كل علم المشكلة
الأكثر ملاءمة لتقديم ما يمثل اهتمامات طفولته
بشكل مقنع .

أما مجال « علم الحفريات » (Palaeontology) ،
 فقدم مثلاً مفيداً بارعاً بشأن هذا الميل الإعلاني ،
 فالحقبة الجيولوجية المعروفة باسم « البليوسين » ،
 (Pliocene) ، والتي ظهر فيها الإنسان لأول مرة .
 فإنها زادت من اهتمامه بنوع خاص ؛ فإن السؤال
 المعهود الذي يسأله الطفل بشأن أصله قد حل به
 الإعلام ، وتحول إلى اهتمام عام بشأن أصل
 النوع البشري .

« ونحن مـدينون لـ « ثون وينتر شتاين »
 (Von Winterstein) ببعض الملاحظات الرائعة عن
 البواعث اللاشعورية في التفكير الفلسفي ؛ ففي رأيه
 أن الفيلسوف يريد منا أن نرى آراءه هو ، فإن ليده
 لم يعد موجهاً إلى الغاية المحظورة (مضاجعة المحارم) ،
 ولم يعد متجهاً إلى ما يجب أن لا يراه أحد ، بل إلى ذلك
 الذي لا يستطيع أحد رؤيته ؛ وهو في الوقت نفسه
 يعود على « الأنا ، بطريقة لا نستطيع تفسيرها
 إلا على أنها ردة إلى موقف النرجسية الطفلي .

هذه هي تشعبات النمو النفسي الجنسي في الإنسان الفرويدي .

ولاريب في أنه يوجد نمو نفسى جنسى في النوع البشرى ، وأنه بالغ الأهمية في تشكيل النفس ، وإن له الأهمية نفسها بالنسبة لعملية الحياة في مجموعها ؛ ولاستكمال الاعتراف بهذه الحقائق ، وأهميتها ، سيظل العالم دائماً مدينأ لعبقرية سيجموند فرويد . وفي رأيي إن هذا الاعتراف قائم رغم ما قوبل به البرنامج الجنسى من رفض يكاد يكون تاماً ؛ فإن النمو النفسى الجنسى الحقيقى ، كما فسرهُ علم النفس ، يخالف ما قال به فرويد ؛ وهو يتركز في مدرك الأَعْلَاء الذى ميزه فرويد في حينه ، ثم نسيه تقريباً ، إذ عمل على تضخيم الناحية الجنسية وإهمال النفسية ؛ فإن لم يكن هذا ما حدث بالضبط ، فإنه أذاب الناحية النفسية في الجنسية ؛ وصبغ النفس بطابع جنسى . وكان مجراه الفعلى هو إشباع الحياة الجنسية بالقيم النفسية . وهذا العمل يؤلف نواة القصة الحقيقية للبيد ، وسيكتبها نفسيون تحرروا من عقدة فرويد القائلة بأن الجنس هو كل شيء .

الباب الثامن

طرق التحليل النفسى

تعودنا أن نستخدم عبارة « التحليل النفسى » كلفظ عام يشمل كل البناء الفرويدى ، فيضم نظريته ، ومبادئه ، وحجته ، وتطبيقاته . وتشير هذه العبارة بصفة خاصة إلى عمليات سبر أغوار الحياة الشخصية ، والاعتراف ، والفحص . والمريض الذى تطبق عليه هذه الإجراءات أو المحن يقال أنه قد حلل نفسيا . وبهذه الطريقة تتضح مصادر مرضه العصابى ، وعلى هديها تتقرر تدابير علاجه أو تخفيف حدته ، وهى اجراءات عيادية ؛ ولنعرض الآن طرق هذا الفن ، وعمليات تطبيقها ، وممارستها على بساط البحث .

المذهب « الاسنادى » ، Attributism

للتحليل النفسى وسائل منطقية استخدمت للوصول إلى المبادئ التى يسترشد بها سبل ممارسته . والملخص الحالى يتحدى هذه الوسائل المنطقية باعتبارها كثيرة المغالطات ؛ ومنها واحدة تتخلل صفحات ومجلدات مما يكتب فى التحليل النفسى . وهى

مغالطة « الإسناد » وتتلخص في قبول المفكر المدرك عام مجرد يصطنعه بنفسه ولمصلحته الخاصة ، ويجعله كحقيقة يستند إليها في تفكيره . وعندما يبحث بيجماليون^(١) Pygmalion «العالم، الحياة في تمثاله «جالاتيا» Galathea فإن هذا الخيال الرائع يتحول إلى وهم ختال . والمدرك عند المفكرين لا يتجاوز شأنه شأن قالب أو نموذج في معمله ، ولكن « الهو » و « الانا » و «الانا الأعلى» ، تحتل في العيادات الفرويدية مركز الأحياء الحقيقية ، وتستمد حيويتها من الأدلة العيادية .

ومن الواضح أن « الهو » يوجد في التكوين البشرى كاسم مريح لما أوتر أن أفكر فيه ، واتحدث عنه ، من تجمع ، وتكامل للوظائف الأولية؛ وهذه حقائق ثابتة، فإن تفكيرى فيها ، وحديثى عنها على هذا النمط يردنى إلى أساسها في الجهاز العصبي من غير أن أقع تحت اغراء التفكير فيها كبيان عليا ، أو « كموجودات » من أى نوع كانت . ولكن القوى الخيالية التى عزيت إلى « الهو » وإلى مجموعة المدركات المرتبطة به ، أن هى إلا عدوان صارخ على القسم « الطبيعى » Naturalistic الذى يضارع قسم أبقرط فى الطب والذى يجب أن يرضخ له النفسيون ويتبعوه .

(١) بيجماليون — فى الأساطير اليونانية — هو ملك جزيرة قبرص . وقد نحت تمثال فتاة من العاج فعشقه . وفى هذا التمثال نفخت الألهة افرودى الحياة فصار تمثال فتاة تزوجها بيجماليون وانجب « بافوس » .
(المترجم)

وإذا ما جعلنا "القارى" ذلك "الإسناد" نصب عينيه . وهو يعاود قراءة ما افترض من وجود "الحور" . و"الأنا" ، و"الآنا الأعلى" ، وما تفعله ، فإنه سيدرك أن القصة "الإسنادية" خيالية كلها . فإن كان هذا لا يقنعه فعليه أن يقرأها كلها في مطولاتها في الكتب الأصلية غير المختصرة : ففيها يصل "الإسناد" إلى ذروته في مناقشة موضوع البناء الأكبر ، وإن كان يظهر مبكراً ، وفي كثرة ، فينتشر في الحديث عن اللاشعور في حالات كثيرة ، وأوجه متعددة لذلك المدرك الشامل المراوغ الذي يقوم بعدة أدوار في الدراما الفرويدية . فالمرحلة "الأوديبية" ، "إسنادية" في شتى اتجاهاتها ، وكذلك "الأمور الطفلية" ، والرقابة على النفس الباطنية ، و"الليبد" أيضاً في سجلاته العليا .

وعمل "الإسناد" في تكوين المدركات هو آفة الحجة الفرويدية ، لأنه مجموعة من تماثيل "جالاتيا" ، وقد بعثت فيها الحياة . ومع أن لفظة "إسناد" من وضعي ، فإن الاعتراف بخطرها على التفكير سبق أن حاز قبولا كبيراً لدى العقول الناقدة قديماً وحديثاً . وقد استخدم اليونانيون لفظة تماثلها وهي Hypostasis ، وصاغ جوته Goethe ذو العقل التيوتوني الكبير ذلك الإغراء على النحو التالي فقال :

« إن الإنسان ليكدر ليظفر بالاصطلاحات ،
ثم يستخدمها اتقى بأغراضه الخاصة ، فيحصل على
ما يؤكد فهمه للموقف ، أو ليستطيع أن يقول شيئاً
على الأقل . . . وأى شيء يمكن الاستمسك به ،
إذا ما انطلقنا بحرية في استخدام الكلمات مرة بمعانيها
الواسعة ، وأخرى بمعانيها الضيقة . أو إذا ما طبقناها
بحرية ، وفي معانيها البعيدة . »

ويبدو من هذه العبارة كأن جوته كان يتنبأ بالنظرية الجنسية
الفرويدية . ولحسن الحظ يمكننا أيضاً أن نقتبس بعض ما قاله
« بروير » بنفس الحيلة والحذر ، فإن بروير يعد من أكبر رواد
التحليل النفسى : وقد قال :

« من السهل أن ينزلق المرء من عادة التفكير
السليم ، فيفترض أن وراء اسم ما مادة حقيقية ،
وبالتدريج يفهم عن الشعور ، إنه شيء موجود .
فإذا كان المرء معتاداً على استخدام العلاقات المحلية
بطريقة استعارية ، مثل لفظة « تحت الشعور » ، فإن
فكرته ستتمو بمرور الزمن ، وينسى أنها استعارة ؛
وعندئذ يسهل عليه تناولها ، واستخدامها كشيء
مادى . وعندئذ تكمل الأسطورة . »

ود الإسناد ، يغزو الجهاز المخى ، ويتحول إلى عادة ذهنية خاطئة ، فإذا ما زج به في حجة أفسد كل بنائها ، مما يصدق عليه وصف د وليام جيمس ، أنه خطة لمشروع د ليس إلا ، . وتبعاً لهذا فإن الباحث لا يستطيع تشريح الحجة إلى أجزاء ، ويقول إن هذا الجزء أو ذاك خطأ . فالاعتراض جوهرى أكثر من هذا ، وهو يقرر بأن العقل المنطقى الذى تعود على التعبيرات المنطقية لا يفكر بمثل هذه الألفاظ ، ولا يسمح لنفسه بالانغمار فى مثل هذا الاصطناع .

وقضية فرويديين قضية ميثوس منها ، إلى أن يفكروا بمزيد من المنطق والحذر ، فإن سفسطة د الإسناد ، تتسرب فى خبث وشناعة ، وبطريقة شاملة إلى كل وجه ، وكل جملة فى وسائل التحليل النفسى ، ولقد نسى المحلل الحقائق ، ووضع مكانها أساطير لقوات د اللا شعور ، ، ود الهوى ، ، ود الأنا ، ، ود الأنا الأعلى ، ، وأوديب ، والليد ؛ وجعلها فى عدة صور خفية ، ومدركات بعث فيها الحياة ، ثم استخدمها لتعليل البيانات العيادية التى أوحى بها . وتبعاً لهذا ضاعت الفروض ، واحتل مكانها تأكيد الحقيقة ، وهذا هو روح الوهم .

والبيئة الثقافية التى نمت فيها الفرويدية وازدهرت تحتوى

على إغراء خاص أدى إلى مخالفاتها. رغم عدم التشجيع الأكاديمي الذي كان مبعثه زيادة الريبة في النتائج وليس في الطريقة . وكل لغة يمكن تناولها بشكل يؤدي إلى إخفاء الفكرة أو غيابها، ويظهر أن اللغة الألمانية الأكاديمية مجرزة بطريقة خاصة لتحقيق هذا الغرض . فهي تجعل الغموض المقصود يبدو في ثوب معنى هام ، وباستخدام الأوضاع « غير الشخصية » ، والمبنية للجهول ، وصيغ المطاوعة تنقل مسئولية عبارة إلى شيء يظهر موضوعيا ولا سيادة لأحد عليه ، كالطقس مثلا ، على حين تكون العبارة في الواقع ذاتية تماما ، وخيالا لا مسئولية فيه ، وتأملا خلا من كل منطق .

ولا يقتصر الأمر على التأمل وحده ، بل هناك ميل إلى الانغمار في التراكم المتعاطلة ، والتعليمية التي كلها تفهق ، ما ينسجم مع التقاليد الأكاديمية . وحتى الاعلانات التوتونية نفسها تظهر كمقتطفات من بحث أو مقال . ويعد التأمل المطلق في بعض الأوساط ضرورة لازمة للباحث التوتوني . ويظهر أن هذا قليل التأثير بالعلاقات الواقعية التي يصادفها الطبيب في عيادته . ومن السهل تشغيل أجهزة النسيج الذهنية ؛ وكل نساج يزهو ويفخر بأن نسيجه أصلي مبتكر . وتبعاً لهذا ، فإن آلاف الكتب والمقالات ظهرت في وقت قصير بشكل ماحوظ . ويتناول اعتراضى

كل الوسائل للجانب النظري من الفرويدية ، فسيكولوجية التحليل النفسى شىء خاطئ ، ويضاف إلى ذلك مخالفاته الأخرى الكثيرة الناشئة عن خطأ ما أسميته « بالاسناد » .

العصاب

أن الطرق التى تسيطر على أهتمامنا المركزى هى تلك المندجة فى الاجراءات العيادية . وكان الأمل فى فهم مرضى العصاب وتخفيف آلام المصابين به هو الأمنية العملية التى دفعت إلى الترحيب بالنظام الفرويدى . ومشكلة العصائين فى أضخم صورها هى ميراثنا السىء الحظ من العصر المعقد الذى نعيش فيه — عصر آلى فى ظاهره ، وعصابى نفسى فى تحليله العميق ، أو إن شئت ، فهو عصر التحليل النفسى ، بالمعنى القديم الأول للكلمة . ولقد صار انسان القرن العشرين حاد الشعور بما يواجهه من عقبات داخلية تقض مضجعه ؛ ففى داخله توجيه نفسى مضطرب .

وفى العصور الماضية كانت التأملات الدينية وما تتضمنه من تعزية تمتص انفعالاته المضطربة ، وتصرفها ؛ وهى عملية التنفيذ فى الفرويدية . وبما يثير الاهتمام فى العالم كله بالصحة العقلية ،

مسألة إدارتنا ، لنفوسنا ، المحية لتحفظ بالسلام في عقولنا .
 وكان المشروع الفرويدي قد التجأ مباشرة إلى هذه الحاجة
 الماسة ؛ وما أن عرف ما يرجي منه حتى وجد الاتباع والمؤيدين
 من بين المضطربى النفوس ، ومن بين المشتغلين بالاشراف على
 أنواع ادواء البشرية النفسية . ومشكلة العصابي التي شاء الحظ أن
 ترتبط فترة باسم فرويد يجب أن تدرس على بساط بحث فسيح
 حتى يمكننا إدراك مساهمتها الخطيرة ؛ فالأمراض العصابية النفسية
 تعكس قسما كبيرا من قلق العالم ومتاعبه .

وقد قيل لنا أن حالات الأمراض العقلية في المصحات
 وما يشبهها من مؤسسات تزيد على عدد جميع حالات الأمراض
 الأخرى مجتمعة ؛ وتلقينا النذير أيضاً بأنه إذا استمرت
 زيادة الاضطرابات العقلية بمعدلها الحالى ، فلن تمضى فترة
 طويلة حتى يكون عدد أصحاب العقول قادرين في صعوبة
 على العناية بمعتليها ؛ ولن يكون هناك من مهنة أخرى
 يمارسها الناس . ولنواجه هذه النبوة الكريهة ، فمن الأفضل إن
 نعرف مدى العجز ، وما نخسره من جهد في العمل اليومى ،
 وأنواع التدخل التي تطرأ على برامج السلوك والعمل ، وألوان
 الشقاء الشخصى ، والتعاسة البائسة ، وشتى صنوف الاحتكاك ،
 وانقسام العلاقات مما ينشأ عن الأمراض العصابية النفسية .
 والمفروض أن العدد الفعلى لهذه الحالات يزيد على ما سجلته

الأحصاءات التي تيسر الحصول عليها. ومشكلة الأمراض العصابية يجب أن تدرس بنفس الروح الكبيرة، والتسامح، والبصيرة التي نتناول بها مسألة نزع السلاح في العالم، فهذه الدراسة أشبه بنزع سلاح نفسي، وغزو لدمر طاغية لسلامنا الداخلي. ولو أن فرويد تمكن من حل هذه المشكلة أو زحزحها لتقرب من الحل لكان مكانه مضمونا بين الخالدين ممن أحسنوا إلى البشرية.

وهذه الآراء يجب أن تضاف أدراكا معقولا من الإحساس بالمسئولية على المساهمين في التحليل النفسي. وهذه المسئولية يجب أن تراعى حق المراعاة أن جماعة كبيرة من أدق الهيئات تنظيما، ومن أكثر المواطنين فائدة وابتكارا معرضون بصفة خاصة لمثل هذه الأمراض؛ إلا وهي الانحرافات عن الطرز النفسية التي يتجلى بعضها في شكل أمراض نفسية عصابية. وأنا لنقدر هذا الاتجاه سواء أخذنا أو لم نأخذ برأي برجسون القائل، بأن كثيرا من أهم الأعمال في العالم أنتمها أشخاص بهذه النزعة، فقد كانوا في الواقع ضحايا علل نورستانية.

كانت أول خطواتنا في دراسة الفرويدية هي تتبع فرويد في أولى حالاته عن العجز الهستري. ولقد وجد مفاتيح مشكلات العصاب في مجرى اللبيد. ومن ثم نشأ موضوعان: أولهما أن سبب هذه الأمراض العصابية النفسية هو صراع الدوافع التي تعمل

بطريقة لاشعورية ، والثانى هو أن الصراع ليبدى . وقد جمع فرويد الموضوعين فى معادلة واحدة أطلق عليها اسم « تكوين الأعراض ، Symptom - Formation ؛ فكان اهتمامه الكبير بامر الأعراض خطوة خاطئة أبعده عن أن ينظر بنصيب أوفى من العدالة والنزاهة ، إلى مشكلة العوامل التى تساهم فى خلق العصاب . وهى مشكلة أكبر .

ومن الجائز أن لا يعرف المرء كثيرا عن اللجلجة ، واحمرار الخجل ، والارق ، والسير فى أثناء النوم ، أن هو أفرط فى اهتمامه بدقائق ما يبدو من وقفات صغيرة أثناء الكلام ، واحتقان الوجه ، وكثرة تقلب النائم فى الفراش ، ومسلك السائر فى نومه ؛ وهى أيضا من أنواع العصاب النفسى . والتكوين العام لمن تنتابهم هذه الأعراض — أو الاحداث النفسية — بالغ الاهمية بالنسبة « للأسباب » ، حتى فى حالة خداع الاسباب العميقة ومراوغتها لنا . وهذه الأعراض الفسيولوجية شرعية أيضا فى تقدير التحليل النفسى . وهى كالأعراض الخاصة التى اختارها الفرويديون لأنها تلائم مبادئهم . ومع ذلك فإن هذه الأعراض لم تضم بعد إلى مجال المحلل .

والطريقة الفرويدية لا تعاون على النظر الواسع إلى المشكلة الأساسية لأمراض العصاب ، ولا إلى حلها حلا مرضيا ؛ فهى تلقى

بضوئها على وجه واحد هام من الاعراض الهامة . ولا ريب أن وضع الجزء موضع البكل في مثل هذه المشكلة الهامة ، إنما هو بداية خاطئة . وفي وسعي أن اكرر قول فرويد الذى سلم فيه بأنه بعد عشرات السنين من البحوث التحليلية لا يزال محتارا في أمر العامل المسبب للأمراض العصبية ، ، وهذا ينطبق أيضا على بقية أعضاء المهنة . وهو على أية حال اعتراف تناقض فيه مع نفسه في اثناء ممارسته للتحليل ، وفي عدد آخر من الاقوال . وهذا الاعتراف هو قوله بأنه يوجد عامل مسبب لأمراض العصاب لا يزال لا يدري ما هو على الرغم من مضي ثلاثين سنة على التحليل النفسى : ولنفرض أنه يوجد عامل مسبب للمرض ، ولعله اندماج عدة أسباب مصحوبة باختلافات كثيرة معقدة . أما كيف تؤلفها الطبيعة فهذا هو السر الغامض للأمراض العصبية .

ولعل عبارة المحلل النفسى جونز تصاح كاستهلال في هذا الشأن إذ قال :

« كانت هذه الحالات تفسر في الماضى على أساس التعاون بين عاملين : عامل الضعف الوراثى للبنية العصبية ، وعامل بعض العقبات التى تحدث ، ومنها خيبة الامل في الحب ، وارهاق العمل ؛ بما كان يعد أكثر النماذج شيوعا . وبين هذين العاملين أدخل

فرويد عاملاً ثالثاً هو «تأثير بعض التجارب المعينة في أثناء فترة النمو الجنسي المبكر» . وهو لم ينكر أهمية العاملين الآخرين بآية حال من الأحوال ، بل بالعكس أنه صنع الكثير ليعرف الطبيعة الجوهرية للعوامل الثلاثة في جلاء أكثر ، وليقدر بالضبط مايقوم بينها .
من استمرار .

فهل صنع هذا ؟ أن العامل البنائي في الجسم يعد المعين الأكبر عند الأطباء « الأرتوذكسيين » للأمراض النفسية . وهم يأملون أن يظهر في المستقبل عبقرى في علم الأعصاب ليكتشف الأساس الكيميائي الحيوي الذي يجعل الناس أكثر تعرضاً للإصابة بالأمراض العصبية . ومصدر الاستعداد للإصابة بالمرض إنما هو مشكلة واحدة ؛ وظهور المرض نفسه مشكلة أخرى ؛ وكلتا المشكلتين واجبة الدراسة . وتصنف الأمراض العصبية النفسية في عالم الطب تحت اسم « اضطرابات عصبية وظيفية » ، Functional Nervous Disorders ؛ ولم يحدد لها أى أساس عضوى . فالجهاز العصبي عند المريض بالعصاب لا يعمل عمله كما يجب . وبما أننا لا نعرف السبب أو الكيفية ، فإن احتمال تناول الأمر من هذه الناحية ضعيف . ومن السمات السائدة في العصابي أن أعراض

الاضطراب تتغير بطريقة مقررة بواسطة التأثيرات النفسية (الانفعالات) .

وتوجد أدلة مقنعة بأن الاضطرابات العصبية الوظيفية تمثل طرزاً معينة من الاستعداد للإصابة بالعصاب ، ولا سيما في حالات الهستيريا والنوراستينيا التي لا تعد مرضاً واحداً رغم تشابه أعراضها وتدخلها . ولفظة هستيريا^(١) في حد ذاتها من الجائز أن تتضمن مراتب معينة من العجز الوظيفي ، ولكن الاتفاق لم يتم بشأنها بعد . وما ينطلق على حالة الحصار العصبي (القلق) لا ينطبق على حالة « القهر » Compulsion . وكلا النوعين يظهر في الحالات العيادية عند فرويد .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن العاملين المسيبين الذين سبق ذكرهما ، هما الفشل في العمل ، وفي الحب ، واضحان أيضاً . فالعمل يشير إلى التعب ، وهجوم التعب على المصادر العصبية إنما هو عامل وظيفي محدود ؛ ولكن القلق أكبر تأثيراً من

(١) أت البحث القائل بأن الأمراض العصابية النفسية تنشأ من صراع جنسي ، يؤدي إلى اكتشاف الأجهزة والحركات التي تثير الأعراض وتدفعها إلى الظهور . وقد درست هذه الأجهزة والحركات في المواقف ، وأخطاء كل يوم ، والأحلام ، والعصاب . وهذا الجزء من الحجة يجب تذكره في الحكم على صلف قاعدة العصاب عند فرويد .
(المؤلف)

إنفاق الجهد ؛ وكلاهما ارهاق ، وإذا ما مارسنا العمل ، ونحن مرهقون ، تزايد الاجهاد عدة مرات .

والعمل لا يعد صراعاً إلا إذا كان الفرد مشمئزاً منه ، أو به رغبة قوية إلى عمل سواه . والإخفاق في الحب ليس تعباً ، ولكنه من الجائز أن يعرقل مسار عمل مفيد . والمعادلة العصابية معقدة ، والعوامل ، وقيمهما من المسائل التي يغلب أن تكون غير معروفة ومتغيرة . فعنصر التأكيد لا سبيل إليه في هذا المجال .

وبرغم الاحتجاجات المتكررة هنا وهناك ، فإن التشخيص الفعلي لحالات العصاب عند فرويديين ، يكاد يقتصر على أن الناحية الجنسية في الطفولة هي وحدها المسببة للأمراض ، وأن أشار إلى العوامل الجسمية . حتى المسائل الخلقية التي تظهر عند العصابي قدمت كنتائج للانحراف المتعدد الاشكال ، وكنتيجة للتثبيت الجسدي القادم عن طريق تسلسل الجهاز التناسلي البولي . ويتعذر على أي قارئ لفرويد أن يخرج بأية نتيجة بشأن الدور الحيوي الحاسم الذي تلعبه العوامل المزاجية الجسمية في اتجاهها إلى تكوين الأعراض ؛ وعلى هذا الأساس فإن شخصية هاملت (١)

(١) هاملت هو بطل إحدى مسرحيات الشاعر الإنجليزي شكسبير . ويقول بعض شراحها أن الشخصية التي أضفاها عليه الكاتب تمثل شخصاً مريضاً بالعصاب وقد دفته أوهامه إلى ارتكاب كثير من الأعمال . (المترجم)

تظفر بنصيب ضئيل أقل من نصيب حفار للقبور .
وتواجهنا الآن مسألة التأكيد الليدى . فتحتط من قدر
الموضع الذى يجب أن يكون لعامل العقدة الذى يؤلف العمل
الجرهري الذى أسهم به فرويد ؛ ومن أجله سيذكر اسمه دائماً ،
ولا سيما عندما ينسى العالم تشخيصه^(١) الذى اقتصر على
جانب واحد .

وهذا التحديد يحول بطريقة ما دون التشخيص الصحيح حتى
من وجهة النظر الفرويدية . وفي هذا المجال نجد أن يونج قد اختلف
مع فرويد ؛ فإن أنواع الصراع من مراتب كثيرة ؛ وما هو حاضر
منها يسود رغم ما فى الماضى الذشوى . وقد أصر يونج على ضرورة

(١) أدعو القارئ ، ولا سيما من كان مطلعاً على أوجه النظر السائدة الخاصة
بالعصاب ، إلى أن يعتبر النوراستينيا والهستيريا كأنهما يشيران بطريقة عامة إلى
اضطرابات من هذا الطراز ، ودون أن تنطويا على الأشكال النوعية الخاصة للأمراض
التي يقال عنها أنها كذلك . وكاننا يمتد بالخاصة إلى ألفاظ كالتى وضعها كرتشمير
Kretschmer مثل كلتى Cycloid. Schizoid اللتين تشيران إلى طرازين من الشخصيات ،
وتتملان على مجموعات من السمات الحلقية الموجودة فى كل منا من غير أن تتضمن
أنا سنبدى أعراض جنون المراهقة أو « الجبل الهبوطى » Dementia Praecox
وذهان الجنون الاتقباضى أو « الهوس » Manic Depressive Psychosis ولجعل
هذه المفكرة شعبية ، فإن « أوفرستريت Overstreet تسكلم عن الاتجاهات
أو عن الأشخاص الذين يصنفهم بأنهم Micromanic و Micro - depressive
وأرى أنه من الأيسر أن نترك هذه الألفاظ ، ونوسع المعنى ليشمل ما فى
الشخصية من النظم والاتجاهات الصغرى وأمثالها . (المؤلف)

تفسير أمراض العصاب ، من حيث النضج . وعندما حلل ريفرز — وهو فرويدى محدث — حالة دكلوستروفوبيا ، أو الخوف المرضى من الأماكن المغلقة ، وهى حالة سبق أن حللها أحد أنصار فرويد ، وبحث فيها عن مفاتيح جنسية بدون نتيجة ، فإن ريفرز وجد مصادر الحالة قابضة فى اختبارات الطفولة ، ولكنه لم يعثر على أى مفتاح جنسى لها ، وتبعاً لهذا فإنه قال : ان قصر الاهتمام كله على الناحية الجنسية يحتمل أن يسفر عن عرقلة فعلية تعرض سبيل اكتشاف خبرة الطفولة التى تمدنا بمثل جيد لما هو مطلوب من خبرة اللاشعور ، ومن احتمال استعادتها إلى الذاكرة الظاهرة .

ويسجل ريفرز أن المبادئ الفرويدية كانت دائماً النفع له فى أثناء عمله فى الطب النفسى خلال الحرب . وهو يسجل هذه الخبرة ليبين نقص النظرية الفرويدية فى أمراض العصاب ؛ فإن الحرب أظهرت مجموعة كبيرة من أنواع العجز المسترى التى يمكن مقارنتها بما أكده فرويد . فهناك ظهر الصراع النفسى . وكان هجوماً على غريزة عميقة جوهرية مشحونة بالانفعالات الحادة ؛ ولكنه لم يكن جنسياً ، فإن أزمات الحرب والسلام تظهر بوضوح أنواع صراع مختلفة . والواقع أن ريفرز لاحظ أن العوامل الجنسية

فى العصائين من الجنود لم تكن هى العوامل الشائعة^(١) .

وغريزة الشعور بالخطر ، وتهديد الحياة نفسها أبرزت النكبة العصابية ؛ وفى هذا المجال انطبق أحد المبادئ الفرويدية : فإن هذه العوامل أظهرت أعراض عجز جعلت المجند غير صالح للخدمة العسكرية . وفى هذا السبيل فإنها تكون وسيلة هرب لاشعورية بانتحال المرض . ومن الواضح أن عقدة أوديب الخادمة لا يمكن

(١) لا أستطيع أن أزج بمسألة كبيرة مثل اضطرابات الحياة الجنسية - ولا سيما الاخفاق فى التعبير الجنسي - فأجعلها من أسباب الأمراض العصابية ، كما تدعى تعاليم فرويد العامة . وأن المصاب مستحيل الحدوث حيث الحياة الجنسية السوية العادية . وينال أنه سمع ذلك من شاركوه الذى يظهر أنه وضعها فى صيغة إيجابية (ليس نفس الشيء بالضبط) ، ولعله قال ما معناه أنه يوجد دائماً شذوذ جنسى يصحب الأمراض العصابية . والنظرية الأقرب إلى العقل ، هى القائلة بأن الميل العصائى قد يمتد اضطرابه إلى النشاط الجنسي . وهذا شئ طبيعى لأن هذه الاضطرابات مشحونة إلى حد كبير بالتوتر الوجدانى . ومع ذلك فإن هذا لا يستبعد العلاقات الأخرى فى أسباب المرض .

ويمع بك Peck وهو أحد المحللين النفسين فيقول « أن قوله فرويد بأن الحياة الجنسية السوية تمنع ظهور الأمراض العصابية ، يمكن أن تتغير إلى القول ، بأن الحياة الجنسية السوية دليل بين غياب الأمراض العصابية » وتوجد أدلة متعددة على حدوث الأمراض العصابية بين الأفراد السويين فى الحياة الجنسية ، لأن بين الأفراد الذين يتمتعون بالحرية فى علاقاتهم الجنسية من يصابون بالعصاب وهذا البحث جدير بالعناية والفحص الشامل من معهد بحوث عصبية ، فتتدنى فقط يمكن تكوين قاعدة يصح الاعتماد عليها والثقة بها ، أما عبارة فرويد الحاسمة فتعد سابقة لأوانها .

(المؤلف)

أن تظهر فجأة تحت تأثير أصوات طلقات الرصاص . وانفجار القنابل ، والحرمان ، والتعرض للبوت . وقابلية الإصابة بالمرض التي أخرجت المصابين بصدمات القنابل من بين صفوف الجنود لم تكن « تثبيتاً » إلى الأمام ؛ أما قاعدة الصراع ، فتظل قائمة ، وكذلك مسألة أجهزة التحول ، وهما تقودان ريفرز إلى التحدث عن الهستيريا كأعراض عصاب « استبدالية » . وقد أيدت أمراض العصاب في الحرب مبادئ معينة في التحليل النفسي ؛ ولكنها تعارضت في جزم مع أنواع التشخيص المحدود الذي تغلغل ليؤلف القاعدة الأساسية لوسائل التحليل النفسي بين تلاميد فرويد المعتدلين .

وقد لاحظ ريفرز وسواه أن مدرك الصراع ، واعتباره عاملاً قوياً في العلاقات السوية ، وفي تشكيل العقبات العصابية ، ليس من الأمور الجديدة ؛ وينطبق هذا أيضاً على كلا مرتبتي الصراع اللتين تثيران الاضطراب في السلام الداخلي ، أي الصراع بين الدوافع وبعضها البعض ، والصراع في أجهزة الرقابة الشخصية التصاعدية أي بين الهو والأنا وبين أنواع الدوافع الفردية ، وتقاليد المجتمع وقيوده أي بين الهو والأنا والأنا الأعلى .

ويقول ريفرز إن السمة التي تجعل نظرية فرويد جديدة بالعناية هي مشروعه بشأن طبيعة « الخصوم » في الصراع ،

وبشأن الحيل التي توجه هذا الصراع . وهذه السمة ، في رأيي ، تجعل المشروع مثير شك وارتباب ، بقدر ما نجعله جديراً بالعناية : فإن صبغ « الخصوم » بالطابع الجنسي صبغاً كاملاً من حيث تثبيت الطفولة ، يسيطر على النظرية الفرويدية للعصاب سيطرة تامة حتى أنه يغلب على كل شيء آخر . وبمثل هذا الغموض ، فإنه يحجب ما في نظريته من أضواء . والواقع أن الأدلة قليلة على أن الفرويديين درسوا مشكلة العصاب في مجالها الواسع دراسة تقدر المسئولية .

إن الفرويديين يتجاهلون الأعراض النفسية لوجية الشائعة في العلل العصابية تجاهلاً يتسم بعدم المبالاة بما لا يتفق مع مهنة عيادية . وقد حدث أن قليلاً من هذه الأمراض شائع حتى أنه يبدو بجلاء ، فالنوراستينيا تحدث في نحو ٩ حالات من ١٠ صداعاً حاداً في قاعدة المخ . فهل درس أطباء الأمراض العصبية من الفرويديين ما يحدث في مأساة أوديب — عما يستدعي ظهور الآلام في الرقبة في مختلف جميع حالات الرجال والنساء ، في شتى الأعمار؟ وهل درسوا حالتهم السابقة؟ ولماذا لم يصب كثيرون بهذه الآلام رغم أن خبرتهم في الطفولة تشبه إلى حد بعيد خبرة أولئك الذين

أصيبوا بهذه الآلام التي تعد في الغالب من العلاقات
المميزة للنوراستينيا؟

ومن الظواهر التي يمكن اعتبارها مفاتيح
للأعراض ، ظاهرة العجز الذي يصاب به مريض
النوراستينيا في الصباح المبكر . فإن العارض يزداد
سوءاً عند اليقظة ؛ فأى عامل خفى ينم عن رغبة
مكبوتة في الطفولة ، أو في « غرام الأسرة » ، ينتعش
في الصباح ؟ إنا لندرجو أن يتقدم فرويدى من
العقريين حل هذا اللغز ، رغم أن حله سيكون عن
طريق علم الصنعة النفسى ، ذلك العلم العجيب الذى
لا أساس له ، مما يجعل من تشخيصه مجرد عرض هزلى
في ميدان العلم .

ومن مجموعة الأعراض الكثيرة المعهودة للهستيريا
« ابتلاع الهواء » . وهو إحساس خائق ، وابتلاع
تشنجى^(١) يشعر فيه المريض كأن كتلة تصعد من

(١) ربما كان تفسير فرويد لهذا العارض من أحسن التفسيرات ؛ وقد عزاه
إلى تعدد هستيرى في المعدة ، وهو يستجيب للإيحاء ، أو التنويم المغناطيسى . وقد
فسر هذا التمدد على أنه توهم حمل . فإن كان الأمر كذلك صدق التفسير الفرويدى .
ومع هذا فمن الجائز أن يكون التفسير من نفس مرتبة ابتلاع الهواء . والتشخيص
ملء بالريب (المؤلف)

معدته إلى حنجرتة ، فبأية مؤامرة اتفق ضحايا
 « أوديب » من الجنس الناعم على أن يستبدلن بوجه
 من وجوه صراعهن الإنفعالي هذه الظاهرة الشاذة
 في قصبتهم الهوائية ؟ وأكثر أنواع « التحول » فردية
 حتى أنها تحتاج إلى تحليل للعثور على مصادرها ؛
 ولكن العارض السابق يتبع نموذجاً شائعاً ، وليس
 لدينا من خبرة عامة لتعليقه . وماتينيه هذه الأعراض
 فعلاً ، إنما هو استعداد عام في الجهاز العصبي للإصابة
 بالمرض . ولانزاع في أن بعض الأعراض التي تظهر
 كوظيفية إنما تظهر بفعل الأجهزة النفسية التي فسرهما
 فرويد تفسيراً هاماً له دلالاته ، ولكن أهم من ذلك
 أن كثيراً من الأعراض ليس كذلك .

ولم يقتصر فشل قاعدة فرويد على تحليل أمراض العصاب ،
 بل أخفق أيضاً ، وبطريقة مماثلة في تحليل مدى الأعراض كله ،
 فإنه اختار الأعراض التي تنطبق عليها قاعدته ، كما انتقى الحالات
 التي يمكن أن تنطبق عليها نظريته . فلا عجب أن كان أطباء
 الأعصاب والنفس المحافظون ينظرون إلى هذا المشروع الطموح
 بحذر ، فيرونه خطوة ضالة ، وحدثاً منكوداً في طريق تقدم
 مهنتهم .

التحويل

تظهر في نطاق الإجراءات العيادية «حقيقتان» يعتبرهما فرويد ثابتة دعائم^(١) للتحويل النفسي، وهما: التحويل، والمقاومة. والواقع أننا نجد «حقيقة» خلف المدركين، كما نجد قدراً طيباً من الناحية النظرية. والمقاومة تشير إلى الميل الطبيعي إلى إخفاء الذات الخاصة، وحجبها خلف ستار. ومن الجائز أن لانكون مغمورين في الآثام، ولا مثقلين بكثير من أوزار الماضي؛ ولكنتنا نحرص على أن لا نظهر ذاتنا الدفينة في مظهر غير مقبول، حتى لأصدقائنا الذين نثق بهم. ولعله من الأفضل أن نتجاهل مسألة تشكيل الذات بالشكل الذي تريده القيود الاجتماعية، أو نسلم به كما هو، وفقاً لرغبتنا.

وتلقى مطالبة الفرد بالاعتراف في صراحة تامة تكريماً، وتأيداً، سواء تمت في انتهاكها أو مراعاتها. ولا ريب أن عنصر المقاومة النفسية حقيقي، وأن سبل الإصرار على ضرورة التغلب على هذه المقاومة لها ما يبررها.

(١) إذكر في هذه المناسبة أن فرويد أشار في آلاف الصفحات التي كتبها إلى كثير من تعاليمه على أنها «دعائم» نظامه. وعلى هذا الأساس فإن بيته يصير بهو أعمدة. ولعل الداعي إلى هذه النزعة الفرويدية هو خصوبة الابتكار، والنظرة المتغيرة إلى الموضوع.

(المؤلف)

وهذه السبل فن جدير بالنمو والصقل ، فإن اكتشاف المخبئ ،
ومراكز العدوى النفسية المكبوتة تكون في الغالب محجوبة بطريقة
لا شعورية ، ولكن كثيراً مما يسمى بالمقاومة النفسية ، إنما هو في
الواقع نسيان عادي ، وليس بكبت يعترض طريق التحليل . وبهذه
التحفظات نسلم بمبدأ المقاومة الفرويدية في الاعتراف ، وإن كنا
لا نقبل العذر الشائع القائل بأن سبب عدم وجود العقد هو شدة
المقاومة التي حالت دون اكتشافها ، فهذا العذر يجعل النصر الدائم
من نصيب الفرويدية على الناقد أياً كانت أوراقه وأدلتها .

ومن الجائز أيضاً أن نسلم ، ونرحب بالفكرة النيرة القائلة .
بأن كثيراً مما ننساه الآن ، وبما نرفضه ، كان في وقت ما فعالاً
ومقبولاً ، ولا سيما في حياة الخيال الحافلة التي خلفها كثيرون منا
وراء ظهورهم ، ولكن فريقاً آخر لم يرها البتة . ويوجد فينا طبقات
مقاومة مختلفة تطوق سرائرنا الداخلية المقدسة الماضية منها
والحاضرة . وهذا التمييز مفيد ، وبغيره لا يمكن إجراء أى تشخيص
نفسى . وقد كان معروفاً من قبل ، ولكن وضوحه لم يصل البتة
إلى المرتبة التي وصل إليها في الصياغة الفرويدية . ومن أجل هذا
الوضوح لها الشكر والامتنان .

« والتحويل ، مسألة أخرى . » والحقيقة ، فيه هي علاقة الثقة
بين المريض ومحلله . والتحويل ، أما أن يكون ذا معنى نوعى محدد

واجب التبرير، وإما أن يشير إلى ما هو معروف جيداً، فلا داعي عندئذ للفظه خاصة ولا لتأكيد. وينطوي مبدأ «التحويل» عند الفرويديين «الآرثوذوكسين» على نظرية من المقرر أنها مثار نزاع وريسة، وهى نظرية «النكوص» Regression و «الآحياء» Reanimation وهى تطبق بشكل تعسفى معين^(١). والتحويل جزء من «الوسائل» الفرويدية، ومثله التداعى الحر، وتحليل الأحلام والتفسير العام للعقد للرضى.

والتحويل هو، على التحديد، قيام علاقة شهوانية؛ وهو باللغة البسيطة يوجب على المريض أن يعشق محله، باعتبار أن هذا العشق مرحلة من مراحل العلاج؛ ثم يخرج المريض من هذا العشق، ويفصم العلاقة لإتمام العلاج. وأنا أعرف جيداً أن العلاقة بينهما توصف غالباً بأنها عاطفة حارة وتقدير كبير؛ ولكن أينما اتجهتُ أجد أدلة قليلة على وجود ظلال عاطفة عذرية فى التقديرات الجنسية عند الفرويديين. والتعقيدات، والمضاعفات التى تنشأ عن العلاقات بين رجل ورجل، أو بين رجل وامرأة،

(١) تستخدم لفظة «التحويل» فى التماثيل الفرويدية لتعنى أيضاً تحويل الشاعر الشهوية من شىء أو شخص إلى آخر. ولهذا التحويل يفضل فرويد استخدام لفظة «نقل» (Transference). ويفسر التحويل على العلاقة بين الطبيب والمريض.
(المؤلف)

إما أن تهمل في سذاجة وحسن نية ، وإما أن تتخذ أوضاعاً محايدة بحكم الموضوعية الحذرة الملازمة للمهنة : ومع ذلك فإنى ألاحظ وجود التحويل المضاد ، ، وفيه يستجيب المحلل النفسى لما يقدمه المريض من مقترحات أو يعرضه من مفاتن . وهكذا فإن علم الصنعة ، الانفعالى يظهر كفن ، مرن ؛ فقد قيل لنا من قبل أن كل العواطف (تقريباً) من أصل أو اتجاه جنسى . أما الآن فعلينا أن نعرف أن علاقة انفعالية قوية يحتمل ، بل يجب ، أن تتم بدون مثل هذا الاتجاه الجنسى .

ومرة أخرى نواجه السؤال الطريف عن كيفية ظهور هذا العامل فى «الوسائل» الفرويدية . وهوليس من البيانات المستخرجة من ماضى المرضى الخبوء ، ولكنه عامل خلق ، وشجع على الظهور لمواجهة العقبات القائمة . ولا يخفى أن هذه العلاقات سرعان ما تنجلى بحكم طبيعة الجلسات الحيمة . ويظهر أن هذا الموقف كان أحد العوامل التى دعت «بروير» إلى الانسحاب من أول «حالة» تحليل نفسى .

وروى «ويتلز» Wittels القصة بعد مضى سنوات كثيرة ، وأفصح فى تفسيره عن مفتاح الموقف ، فقال أن «بروير» كان الشخص الوحيد الذى كان يعرف ،

اللغة الإنجليزية ، في الوسط المحيط بالمريضة حين
اقتصرت كلامها على هذه اللغة ؛ فكانت هذه العلة التي أنستها
لغة بلادها ، الألمانية . بمثابة حيلة من لا شعورها لكي
تنفرد بطبيبها المحبوب الذي تم إليه « التحويل » .
ونفس هذه الأعراض التي ظهر أنها « تشككت » خلال
تجارب الطفولة ، تخضع أيضاً لهذا التفسير الإضافي
ولكنها فسرت على أساس آخر . وهكذا تؤثر الوسائل
العبادية تأثيراً سيئاً في تشخيص العلة .

ويشرح فرويد الموقف بصراحة فيعترف بأن
هذا الاهتمام النسوي أذهله في أول الأمر ، ولكنه
مالبث أن أدرك أن سره لا يعزى إلى مفاتنه الشخصية
في اجتذاب النساء ، بل يرجع إلى أنه اتخذ بديلاً من
غيره ليكون موضع الغراميات العلاجية للمريضة .
وكل هذه تفرعات مثيرة للعجب والفضول .

وعلى أية حال ، فلنعد إلى موضوعنا ، ففيه ما يصح أن يكون
مشاراً للنزاع ؛ فالفسكرة كلها ، ومنها تلك الألعاب البهلوانية العاطفية ،
تقوم على أساس نظرية إحياء العاطفة ، وهي نظرية تثير المشكلات .
ولا ريب أن المصابين بالهستيريا يعانون من ذكرىاتهم العاطفية كما
قال فرويد . والقهر حقيقى لا شك فيه ، ويمكن تعليله بطرق شتى ،

كما وجد «هولنجورث» Hollingworth في نظرية «إعادة التكامل»^(١) فالندب النفسية يجب أن تفسر بطريقة ما . ومن الميسور الدفاع عن فكرة الاحياء أو البعث ، ولكن يتعذر استخدامها لتأييد وسائل التحويل .

ويقوم التعليل المنطقي للتحويل على أساس مبدأ الاحياء . ولا يكتفى التحويل بعودة المريض إلى احياء ذاكرته ، بل يتطلب أيضاً عودته لوجداناته السابقة ، فيميز من جديد العلاقات الشهوانية التي سبق أن خبرها في طفولته أو في حياته المبكرة ؛ والفرق الوحيد هو أن المحلل يحتل مركز موضوع الحب الأصلي . وهذه السيادة على الانفعالات تشبه مسألة الإيمان بأكسير الحب . ولكن فرويد يثق بهذا الإجراء وبالغرض العجيب القابع وراءه ، وهي ثقة بعيدة كل البعد عن الأوضاع النفسية ، كما تجمع بين البدائية والخطورة . وهي من أغرب معروضات المجموعة الفرويدية الخيالية كلها .

« ويتم الجزء الحاسم من العلاج الشافى بواسطة

(١) إعادة التكامل Redintegration اصطلاح اقترحه سير «وليام هاميلتون» W. Hamilton لبدأ أو قانون التداعي Association المائل في إعادة صياغة شيء كامل من إدراك جزئي أو فكرة جزئية . ويدعى بعض النفسانيين أنه مبدأ حوهرى يمكن تفسيره على أنه يشمل كل القوانين الأولية .

التحويل ، فعن طريقه تظهر نسخ جديدة من الصراع القديم . وفي ظل هذا الموقف يود المريض أن يسلك نفس السبيل الذى سلكه من قبل . ولكننا نستدعى ، أو نشير كل قواه النفسية ، لنكرهه على اتخاذ قرار آخر مختلف . وبهذا يصير التحويل ميدان المعركة ، حيث تلتقى كل القوى المتنازعة ؛ ومن ثم تتركز قوة اللبید الكاملة ، وجميع القوى المقاومة لها ، وتحشد في العلاقة بين المريض والطبيب ، ولهذا فلا مفر من كشف أعراض اللبید .

« ويظهر المريض اضطرابات التحول المصطنعة بدلا من اضطرابات الأصلية ؛ وبدلا من أن يتجه اللبید إلى موضوعات شتى غير حقيقية ، فإن المريض لا يجد أمامه إلا فرداً واحداً هو الطبيب ، وهو أيضاً يعتبر شيئاً خيالياً . وعلى أية حال فإن الصراع الجديد على هذا الموضوع يرتفع إلى أعلى المراتب النفسية بمعونة الطبيب ؛ ثم يستمر كصراع نفسى عاوى ، فإذا ما تجنبنا كبتاً جديداً ، فإن النفور بين الأنا واللبید ينتهى ؛ وتستعيد الشخصية وحدتها النفسية . وإذا ما عاد اللبید ، وانفصل عن الموضوع المؤقت . وهو الطبيب ، فإنه

لا يمكن أن يعود إلى موضوعاته السابقة ، بل يستمر
تحت إمرة الأنا ، .

وهكذا يتألف فرضان : الأول هو أن الصعوبة الأولى بعثتها
كلها صدمة مبكرة ، والغرض الثاني ، هو أن فرداً ناضجاً عاقلاً
يمكنه بإجراء ما أن يعيد أى موقف انفعالى مر به فى مرحلة
الصفولة ، ثم بمجرد مشيئته ، أو بالجهود يستطيع أن يغير أدوار
المأساة التى يمثلها . والفكرة من الناحية السيكلوجية مضحكة .
بقدر ما هى عديمة الفائدة من الناحية العيادية . ومهزلة التحويل
أو مأساته و تمثل أدنى مراتب الانهيار المنطقى التى انحط إليها
الفرويديون المتزمتون ، فإن تخطيط « فرويدى فى بلاد الخطأ ،
لأقرب شهاً بالقصة الخيالية « أليس فى بلاد العجائب » .

إن المحللين يندفعون فى هلوستهم الكثيفة
فى سرعة ، وكل يضيف إلى الوصفة ، وكل يبتكر
وسائله الخاصة بتحويل العواطف الخسيسة إلى ذهب
ثمين مقبول . وهم يتناقشون بلسان العارف فى مسألة
المحلل ، إن كان يجب أن يكون فعلاً موضوع
الحب ، أو أنه يجب أن يحتفظ بنفسه موضوعياً ،
بعيداً عن الناحية الغرامية تماماً ، ويعتبر نفسه مجرد

« لوحة بيضاء تعرض عليها صور حياة الطفولة عند المريض » ، أو أن يعتبر المحلل نفسه « تمثالا خفياً ليضفي عليه المريض أوهامه وخيالاته : وهل على المحلل من البداية أن يتخذ دور الأب ، ثم يتحول ليمثل دور الأم ، وهل يولد المريض فعلاً من جديد لأن خيالات الولادة في هذه المرحلة يمكن اعتبارها أكثر من مجرد استعارة » .

لم يقبل يونج شيئاً من هذا السخف ، ويتناول علاقة المحلل بمريضه كصلة سيكلوجية ، هي « موضوع علاقة بشرية يتمتع فيها كل فرد بضمآن احتلاله لمركزه الملائم » ، فيحس المريض أنه مقبول كما هو ، وأنه سيُرشد لينسجم مع نفسه بطريقة أفضل مما هو عليه ، ليستعيد ذاته السوية العادية ، ويتكيف بالظروف القاسية في حالته .

ولكن هذه الواحة المحبوبة لما فيها من سلامة الذوق والمنطق تختفي في عجلة وسط سراب التخمينات عندما يقدم لنا « اللا شعور الجماعي » ، وما شابه ذلك من ألوان خياله ؛ فلا يزال يلزم وسائله لإحساس مصطنع بشيء يعد ابتكاراً فنياً في علاقة تستلزم قدراً كبيراً من اللياقة والمستلزمات العادية التي تقتضيها استقامة عقلية ومسئولية مهنية . والواقع أن مجرد الاعتراف « بالتحويل » ، كجزء

من الوسائل يلقي ضوء قائماً على العبادات التحليلية . وكان من الأجدر أن يقبلوا بدلا منه العلاقات الوثيقة على أساس ما هو مقدر لها حتما .

وفي هذا المجال بالذات يدخل عنصر الخطر . ولا أستطيع أن أغمض عيني وعيون القراء بشأن القصص عن سوء استخدام العلاقة بين المحلل والمريض مما يروى عن البعيد والقريب ، وفيها ييسر « التحويل » وسائل سوء الاستعمال . ويضاف إلى مسألة التشبث بالجنس كسبب لأمراض العصاب ، مسألة الوسائل المتبعة لإيجاد علاقة شهوانية ، ولو من ناحية الشكل ، ففي هذا المجال يجب أن نذكر أن كل المحللين ، أو حتى الأطباء من حملة شهادات الطب ، لا يتمتعون بالقداسة ؛ ولنذكر أيضاً أن جميع المرضى لا يلزمون جانب الحذر . أما ما يزيد على هذا فإني أتركه لتقدير القارئ وبغير تحديد أو رقابة على خياله .

وأؤثر في هذا المجال أن لا أتحدث طويلا عن أخطار الوسائل العيادية ؛ وهي وسائل بغير أساس على الرغم مما لبحتها من أهمية لتقدير الخطر الكلى الناشئ عن شيوع تعاليم خاطئة ، وتطبيقات خرقاء ، مما يحيط بالتحليل النفسي بالشكل الذي هو عليه ، فأنواع السفسطة ، والشروع الكامنة في وسائل هذا التحليل

وروحه ، إنما هي أجزاء من نبيع خبيث واحد . وليس في مجال العمل الذى اخترت أن اضطلع به أن أوجه التهم إلى ممارسى التحليل أو أَرْضِ عما وجه إليهم من تهم ، رغم أنى لن أتجنب الحديث فى شأنها .

وأثر فى هذا المضمار أن أؤكد ، أن هذا اللون من الممارسة يشبه كثيرا سواه من المهن التى لم يصقلها العلم والحقيقة . وهذه الممارسة تصير سليمة العاقبة أوسيتها تبعاً لما يمكن أن نسميه بالمستوى الاخلاقى لممارسى المهنة ، أو شرف المهنة نفسه . وقد وضع المحلل الفرويدى نفسه باختياره فى هذا المركز المزعزع . واعتقد أن هذا الوضع نشأ نتيجة لسيره فى طريق القروض الضالة ، ومحاربة الناحية «الجنسية» التى يمكننا أن نضيف إليها أيضاً مدى الانحطاط الشاذ الذى بلغ الحضيض بابتكار «التحويل» ، وجعله إحدى الوسائل المقدسة .

والمريض لا يحتمل أن يحب أى محلل ؛ وهذا مما دعا إلى اتخاذ التدابير لانشاء «التحويل السلى» أو النقل ليتبادل فيه المحلل والمريض البغض سواء أكان أيهما من الذكور ، أم من الاناث . (فى مهنة التحليل اليوم سيدات) ، أم كان كلاهما من جنس واحد فى عملية خلط عادلة من الجنسيتين ، والعلاقات ؛ وفى هذا

المجال لا يسعنا إلا أن نتساءل كيف يستطيع محلل مشغول في عدة حالات أن يتتبع كل ما لديه من عمليات «تحويل» ، ويعرف مدى ما وصل اليه مع كل مريض من مرضاه في طريق العواطف المستقيم . أو الملتوى ، فمثل هذا العمل يبدو كأنه يحتاج إلى أكثر من الحصافة الدبلوماسية التي يتمتع بها زير نساء من ذوى الميول المدربة على السطو عليهن) .

والتحويل السلي أو النقل يمتص قصة البغض في «غرام الاسرة» أو يعيد عرضها . أما «التحويل» ، نفسه فانه يؤدي إلى حالة عصاب يحتمل مكان العلة الاصلية التي تعد منحلة ومنتهية . ومن الواضح أنها تشفى بنفس مبدأ طبيب بيطرى نحري في استخدام الدود ، ومن ثم حول علل حيواناته المريضة لتدخل في دائرة اختصاصه التي يعرف دواءها الاكيد فان أردنا تشبيهها أكثر احتراماً فاننا نجده في عمليات «مسمر» Mesmer في المسأبة (وهي كالتحويل فيما يحيط بها من ريب) ، وكانت هذه العمليات تتألف من أحداث أزمات ، ثم تسويتها بالملاطفة ، والملاينة ، وإيجاد الثغرات . ويظهر أن قاعة أزماته قد وجدت

لها خليفة في عيادات التحليل النفسى .

« وجهد المحلل من البداية فى سبيل شحن الموقف بالانفعالات يتجه إلى زيادة صبغة بالوان الطفولة ؛ ومن ثم فإن ألوان الخيبة والسادية التى منى بها المريض فترة ما قبل التناسل تتحرك من مكانها وتطفو ، فيعمل المريض على ربط كل هذه الانفعالات بالمحلل ، ، وهكذا ينشأ التحويل العصابى . وهو القائل أيضاً « أن تاريخ نمو المريض يعاد تمثيله فى غرفة التحليل ، فهناك يعاد إحياء « رغبات مضاجعة المحارم وخبرتها وعقباتها ، .

ويعاد الاعتقاد الواعى عن طريق الخبرة العقلية بحقيقة أوديب الطفلية بكل ما فيها من قوة ورعب . . وهذا ممالا يمكن حدوثه فى أى مجال آخر من الخبرة البشرية .

ولا شك والحمد لله أن الأمر ليس كذلك .

ولا أستطيع أن اختتم موضوع « التحويل ، بهذه الملاحظة المتساعحة المسلية بشأن نكهته الوهمية ، فإن مذاقه غير مقبول بأى معنى كان ؛ وبما أنه يقع فى دائرة نقدى فإن تفاهة طرقة المتبعة

المستمدة من مبدأ سخييف تضع ممارسة التحليل النفسى فى مركز قريب جدا من أعمال الشعوذة التى يدعيها من يطلقون على أنفسهم اسم «السيكولوجيين التطبيقيين» الذين يهرفون بأنواع القوة والذبذبات والعواطف المتبادلة بين المشتغل بعلم النفس وبين مريضه أو تلميذه . وهؤلاء أيضا احتضنوا التحليل النفسى واطافوا مسألة التحويل إلى مستودع دجلهم . وعلم النفس الطائش لا يقتصر على صفوف الدعاة والانتحالين .

التحليل

من الخير أن نصل إلى قاعدة فرويدية تحظى من حيث المبدأ بالقبول فى غير تحفظ ، فالدراسة التحليلية عن طريق الفحص العميق للتاريخ الشخصى ولاسيما من حيث ما فيه من أزمت وصراع ، ستظل إسهاما قيما خالدا من البصيرة التحليلية النفسية التى عند فرويد ؛ وعلى أية حال فهى ليست الإسهام الوحيد ، فالتحليل طريقة فنية كبيرة القيمة لفهم أنواع العجز العصابى وضروب النقص الخلقى ، فى نشوئها ، وفى عملها ، وعند ما تفصح عن أشباهها فى النفس العادية السوية .

ولا غنى عن الدراسة التحليلية فى هذا السبيل ، لأن معلوماتنا ناقصة عن الأسس السيكلوجية للاضطرابات العقلية بصفة عامة ،

وعن العصاب النفسى بصفة خاصة . وقد عرفت الدراسة التحليلية من زمن طويل ، من حيث هى عون على تشخيص العلل ، وكفصل هام فى قصة المريض الدفينة . وكان نصيب فرويد أنه وضعها فى مكانها المناسب فى مجموعة الطرق الفنية المتبعة . وقد تثبت أنواع الصراع ومجالاتها فى النهاية أنها مضاعفات أكثر مما هى أسباب ، وهى أشكال مخارج للسلوك المنحرف وتعبيرات عنه أكثر مما هى المصادر النهائية لذلك السلوك الذى يحتمل فى بعض الحالات أن يكون اضطرابا فى وظائف الغدد (أن أردنا فرضا محسوسا) . وهى على أية حال على جانب كبير من الأهمية . واكتشاف هذه الأعراض المرضية وإزالتها يؤلف جزءاً لا يتجزأ من مهمة الطبيب النفسى .

ويعد التحليل الشخصى الطريقة الوحيدة الميسورة لكشف كثير من أنواع الاضطرابات العقلية الخفيفة والخطيرة ؛ ولا يمكن أيضا الاستغناء عنه كعامل مساعد للكشف عن هذه الاضطرابات واقترح أن نستخدم عبارة التشخيص النفسى Psycho - Diagnosis لتجنب التعقيدات والمضاعفات التى تضيفها قصة فرويد والفرويدية على التحليل النفسى ، والعبارة التى اقترحها محايدة وشاملة لاجراءات التحليل ؛ وتبين هدفها وتنظيمها فى صفوف الاجراءات الأخرى

للتشخيص ؛ وتترك وسائل التحليل حرة لتنمو وتصل وفقاً لتقدم المعلومات العامة .

أما المحلل النفسى الفرويدى فإنه مقيد بلون واحد من التشخيص النفسى ؛ وهو للأسباب التى ذكرناها غير مقبول فى مجموعته من عدد كبير من الباحثين النفسيين وأطباء الأمراض النفسية . ويرحب التشخيص النفسى بمبدأ التحليل كل الترحيب وسيتحرر خلال نموه فى المستقبل ليضم كل ما هو مستقر مقبول من النظم التحليلية عند فرويد ويونج وادلر والفرويديين الحداثيين ومن تبعوهم ؛

ونلتقى فى برنامج التشخيص النفسى بوسيلة « التداعى الحر » ، عند فرويد ، وهى أيضاً إجراء ثمين . وقد اتبعها كثيرون من المحللين الذين يعدون أنفسهم فرويديين مع شئ من التحفظ ، ولأن مجالها فى عمليات تشخيص الأمراض أكثر اتساعاً من طريقة يونج ؛ ولهذا الطريقة أيضاً ميزاتها التشخيصية الخاصة . ولكن المسألة تتوقف على استعمال طريقة التداعى الحر بشكل يتجلى فيه الحدق والموضوعية ، وأنا أؤكد أهمية الاثنين معاً . ولقد قيل لنا مرات فى عبارات جازمة بأن « الحقائق » تظهر فى التحليل ، وأن من أهم موارده « التداعى الحر » ، ولهذا فإن القيمة

الاستدلالية لطريقة التحليل كلها إنما تكون في صلاحية
أجراء التداعى هذا .

وأنا لا أرضى عنه بالشكل الذى استخدم به ، فليست راضيا
عن أسسه ، ولا تعميم استعماله ، فان التداعى الحر كما يسمى ليس
حرًا كامل الحرية ، بل يخضع في جملة لتوجيه الموقف الذى يتخذه
المحلل ، ولأسئلته ، ووجهة نظره المعروفة ، ثم بعلاقته بالمريض ؛
وفرص الايحاء في هذا السبيل متوفرة ، وهى تتسلل في خبث
مهما كان الإنسان حذرا . ولست أشير بهذا إلى أشكال الايحاء
الفجة التى تنشأ عن العلاقة بين الطبيب والمريض ، والتى خدعت
طبيبا نفسيا بارعا كشاركوه ، فجعلته يدعى « اكتشاف ثلاث
حالات معينة للنوام المغناطيسى . ولست أشير ايضا إلى ألوان
الايحاء الاولى التى دفعت الدكتورة « ليس ، Luys السريعة
التصديق إلى « اكتشاف ، أن العقاقير الموضوعة في انبوبة مغلقة
إذا ما وضعت على رقبة مريض بالهستيريا أو عرضت في حضوره ،
أدت إلى حدوث نفس الاعراض التى تنشأ عن حقنه بها .

وما أعنيه هو أن عملية سبر الغور والفحص العميق يحتمل
أن تؤدي إلى تأثير إيحائى أن كان وراءها نظرية ابتسارية ، كما هى
الحال في الحالات التى ذكرت ؛ كما يحتمل أن تؤدي إلى أدراك
المرضى لما هو منتظر منهم . ويحتاج تحرير تسلسل خواطر

المريض وانفعالاته وخيالاته من التأثير بتفكير المحلل ومبادئه إلى كثير من الحذر والتحفظ ، والرقابة على شكل التشخيص النفسى .
ومن الواضح أن طريقة التحليل هى أفضل ما وصلنا إليه .
وليس لدى ما اقترحه كبديل لها ، واعتقد أنها يمكن أن تنق بوسائل رقابة مناسبة لتعطى أدلة يمكن الاعتماد عليها بشأن أنواع الصراع الداخلى وأجهزته مما يحتمل الظفر به . ويؤسفى أن تعوزنى الثقة بطريقة استخدام الغالبية العظمى من المحللين للتحليل النفسى ، وغزارة أسهامهم فى مؤلفات التحليل النفسى مذهلة ، فالأحوال التى ينتقلون بها من المبادئ التى يضعونها إلى تطبيقها تزيد عدم ثقتنا بالنتائج التى يصلون إليها ، نخطط العملية صحيحة ، ولكن تنفيذها خاطئ .

ويجدر بالقارىء أن يلاحظ فى عناية ودقة الدائرة المنطقية الاثيمة التى تسير فيها الحججة الفرويدية ، وليكن مثلنا فى هذا السبيل مسألة الأدلة الاوديبية ، فهم يزعمون أنها مستمدة مما يقدمه المريض إلى التحليل ، ولكنها ما كادت تظهر حتى فسرت الأعراض المرضية ، والخيالات ، وأنواع القهر ، والعقبات والأحلام ، والسمات الشخصية على أساس وجود عقدة أوديب هذه . فليس هناك من رقابة أو ضبط حتى فى تحليل الحالات

المتحررة من أمراض العصاب مثلاً ، وليس هناك من موضوعية ولا معايير ثابتة . ومن المعروف أن قيمة التسلسل إلى النتيجة تقدر بقوة أضعف حلقاتها ، وهذه القيمة مصابة بضعف فتاك هو التدخل الذاتى .

والأحلام بالشكل الذى تعرض به خالية فى الواقع من التدخل ، ولكن « التداعى الحر » بالشكل الذى يطبق عليها يتعرض للاعتراضات نفسها ؛ ويسرى ذلك أيضاً على مسألة تفسير العقد على أنها سمات خلقية . ومع ذلك فإن كلا من طرق التداعى الحر ، وتفسير الأحلام ، وتشخيص الخلق كلها طرق قيمة ، وتنطوى على مبادئ قوية ، ولكن التطبيق المغرض يجعلها تؤدي إلى نتائج غير صحيحة . وفى رأى أن وضع نظام لإصلاح التشخيص النفسى فى المستقبل سيلغى جانباً كبيراً من الاكتشافات الفرويدية ؛ وبرغم هذا الإلغاء فإن فرويد سيعاد مؤسس طريقة نفسية عظيمة القيمة .

ونعود الآن إلى عامل آخر فى طريقة التحليل ، وهو « العلاج الكلامى » أو « التنفيس » Catharsis ويقصد به كشف العقد وإظهارها فى وضوح النهار بغية طردها كما لو كانت أشباحاً . وقد اكتشفه فى الأصل « بروير » ، وكذلك أثار السؤال الناجم عنه : وهو « لماذا يتم الشفاء فى حالة الشعور ؟ » وهذا السؤال الجوهوى

تحكم في توجيه كل اجراءات العلاج النفسى ، ومع ذلك لم يتعرض له أحد حتى من المحللين النفسيين من طائفة فرويد ، ولكن «شمالهوزن»^(١) Schmalhausen ناقشه في براءة . و«شمالهوزن» من المشتغلين بعلم النفس ومن يرحبون بالأراء الفرويدية المنسقة في أوضاعها المنطقية .

ومن العسير عرض رأى شمالهوزن « في مناقشة مختصرة لأنه شديد التعقيد ، إذ يتضمن الراحة من التوتر ، وحسن التقدير ، وإعادة التربية ، ودفع الفرد إلى التحكم في عواطفه وانفعالاته عن طريق الموضوعية الذهنية التى تنطوى اجراءاتها على أن يختلف الموضوعات لها قدرة مختلفة وأن تكن محدودة في العادة ، ولكن الناس الذين تتوافر فيهم أكثر من غيرهم يحتمل أن يكونوا أقل الناس حاجة إلى خدمات المحلل النفسى . وليس كل شعور شاف بل أن الحالة التى نسميها بالشعور إنما هى مرض فعلى ، وعمليات التنقيب في جذور النواامى الحساسة مؤذ ، وهى جميعاً تنطوى على عملية التنفيس أو العلاج الكلامى البسيط عند «بروير» ، ولكنه نما وتضخم إلى جلسات يومية منظمة تستغرق شهوراً وأعواماً

(١) في كتابه « طبيعتنا المتغيرة » Our Changing Human Nature في فصل « هل حالة الشعور شافية ؟ » .

وتدرار باحاً طيبة ، وفي هذه الجلسات تضخم أبسط الحوادث
وتحبك لتكتسب دلالة واهية خيالية .

والتحليل الطويل الذي صار دعامة مهنة التحليل النفسي
بأكثر من معنى ، إنما هو إسهام أشخاص يعبدون الطقوس .
فبأى حق وجب أن تستغرق عملية التحليل عدة أشهر أو سنوات
في المسامرة ، وأن يدفع فيها أجر المحلل بالساعة ؟ ومن الطبيعي
أن يشير هذا الاجراء كثيراً من الريب بشأن العلم ، وعماً إذا كان
وسيلة سخية لجلب الدخل الحسن . وقد علمت وأنا أكتب هذه
السطور أن حصن التحليل النفسي في دينا ، قد اقتضب فترات
التحليل بسبب الأزمة المالية . وعلى أية حال ، فالعلم ليس قليل
التبصر في مطالبه كما يظنه الناس .

ويجيبون على هذا الاعتراض بتحويلنا إلى مسألة المقاومة
وطبقات التغليف الكثيرة في اللاشعور . وهي طبقات يجب
إزالتها بالتدريج ، وبعناية قبل الوصول إلى النفس الحقيقية ،
العارية المتسمة بطابع الطفولة . ويقول أحد المحللين أنه لا يجرؤ
على المغامرة بفحص تعقيدات حياة الأحلام قبل الشهر الثالث
من بدء التحليل . ولكل محلل وسائله وقواعده الخاصة ، وكلها
تعسفية توحى بأوهام هذه الفئة وعبادتها للطقوس .

وهناك أيضاً من يدعون إلى التجليل المختصر ، ولكنهم غير محبوبين من زملائهم في المهنة . أما أدلر فكان واثقاً أن أسمى العقوبات — في الأطفال على الأقل — يمكن أن تشخص في جلسة واحدة . وكان من الأفضل عنده أن لا يشاهد المريض ، ولكن أدلر يعد مرتداً كافراً . وعلى أية حال فإن هذه قصة أخرى . أما نقطة الضعف المركزية في طريقة التحليل النفسي فهي تعسف إجراءاته القائمة على فروض مغرضة ، وهذا مما يجعل الفرويدية إحدى النحل التي تنبع مذهباً خاصاً له طقوسه ، ولكنها ليست علماً

« حالة فرويد »

من الواجب أن نتخيل بطريقة ما مشهداً لعملية تحليل كاملة ونعرضها في الصورة العيادية . وتتضمن حالة أى مريض تفاصيل مطولة بملء ، أما تحليل فرويد نفسه فعملية ممتعة حقاً ، ولا سيما أن صراحته في الكشف عن سماته الخاصة أتاحت له أن يضع نفسه على المشرحة . فمن كتاب تاريخ حياته استخلص أحد المحللين المواد اللازمة لكتاب « عقدة فرويد الدرامية »^(١) .

The Tragic Complex of Freud

(١) مؤلف هذا الكتاب هو « تشارلس مايلان » Charles E. Maylan من مدينة ميونخ وقد طلب إلى فرويد أن يتقبل كتابه العدائى بروح الصداقة الأبوية . وهذا التقبل غير محتمل الحدوث لأن موضوع الكتاب انتقى مسائل مثيرة =

ويقول د. مايلان ، مؤلف هذا الكتاب إن
 المأساة تتفق في كل تفاصيلها مع الدراما التحليلية
 النفسية التي ينطوى عليها « غرام الأسرة » فهي تبدأ في
 الطفولة — وقد خلقت الصديقة التي حدثت له فيها
 ندوباً نفسية دائمة . وتلك هي العقدة المحزنة ؛ فعندما
 كان الغلام « سيجموند » في الحادية عشرة أو الثانية
 عشرة من عمره ، قص عليه والده ما وقع له في يوم
 عيد بحى اليهود . وكان هدفه أن يوضح له في جلاء
 كيف أن عهده أفضل من عهد والده . قال الأب
 « عندما كنت شاباً ارتديت أفضل ملابسى في مساء
 يوم سبت ، وكنت اسير على أفريز الطريق ، فأقبل
 مسيحي ، وطوح بقبعتى المصنوعة من الفراء ، وألقاها
 في الطين ، وهو يصرخ . ابتعد عن الإفريز أيها
 اليهودى . »

وكانت معرفة فرويد بأن والده « القوى » استسلم
 بغير أى احتجاج على هذا الاعتداء المشين سبباً في

== للبقاء، ويجد لذة خبيثة في الخط من شأث التفسيرات المختلفة . وإذا ما نظرنا
 إليه من حيث هو مثال يوضح الفضائح المحتملة ، فإن الكتاب يعد شرعياً إذا
 ما قورن بكثير من حالات التحليل التي لقيها المرضى على أيدي ممارسى التحليل .
 (المؤلف)

نشوء صراع في نفس الابن الذي كان يخشى والده
 بقدر ما كان ينقم منه ويكرهه . وأدى به التأمل في
 هذا الحديث مع ما يعتمل في نفسه من التناقض
 العاطفي الذي جعله التحليل النفسي من السمات البارزة —
 أدباً إلى نمو الخيال ، الهايبالي ، أو التعاون معه ،
 وفيه كانت روما عدوة هانيبال^(١) الذي تقمص فرويد
 شخصيته . وكانت روما تعد رمز المسيحية بما تضم
 من منظمات قوية تقف كلها على طرفي نقيض من
 اليهودية المتواضعة . وقد لازم هذا العداء فرويد في
 حياته حتى أنه عند زيارته لإيطاليا رفض أن يزور
 روما الممقوتة وسافر مباشرة إلى نابولي .

وفي مناسبة أخرى زار فرويد روما ، فأخذ
 بالظرة العابسة التي رسمها الفنان ميشيل أنجلو لتمثال

(١) هانيبال Hannibal (٢٤٧ — ١٨٣ قبل الميلاد) وهو من أشهر
 ملوك قرطاجنة ، ومن الغزاة الفاتحين . وكان قد أقسم وهو إلى جوار فراش
 موت والده أن لا يكن لروما إلا كل عداء . ونازلها بالفعل في عدة مواقع
 عسكرية هامة بعد أن اجتاز جبال الإلب في حركة حربية بارعة خلدت اسمه في
 التاريخ . وقد توغل في إيطاليا مسافة طويلة ، ولكنه لم يتمكن من مهاجمة مدينة
 روما نفسها ، فإن حاكمها كان مراوغاً شديد الحذر حتى أنه ألا يشنك
 مع هانيبال في معركة حاسمة . وأخيراً اضطر هانيبال إلى العودة إلى أفريقيا
 بسبب المنازعات التي نشبت فيها .
 (المترجم)

موسى : فهو فى رأيه يمثل تهديد الأب ، وهو التهديد المعروف عنده بعقدة الخصاء . وقد ظهر تمثال موسى ، لميشيل أنجلو ، كشىء مجهول ، وهذه مسألة كبت لها دلالتها ، فإن تحليل فرويد لوقفه التمثال تدل على الخطيئة الكامنة فى ضمير فرويد ، رغم أنه كان فى الثامنة والخمسين من عمره ، وهذه الخطيئة تكشف عن آثامه الجنسية فى صغره ، فإن سبابة اليد اليمنى لتمثال موسى كانت تمسك بالجانب الأيسر للحيته وتوجهها إلى ناحية تلفت النظر إلى اللوحة اليسرى للوصايا العشر ، وما هو يسارى فى عرف فرويد هو المحظور ؛ ومعنى هذا الوضع الفنى للتمثال فى رمزية التحليل النفسى هو أن اللحية تمثل الأم ، والرأس يمثل الأب ، وأن رغبة الإبن فى أمه ، ثم نظرة الخوف الدالة على الخطيئة فى مواجهة لوم الأب وتقريعه هما مبعث التأثير الانفعالى فى التمثال .

وفى مناسبة أخرى تقمص فرويد شخصية « هاملت » [أحد أبطال مسرحية الشاعر الانجليزى شكسبير وكان والده يظهر له كشبح يطالبه بالثأر

لمقتله [إذ كان شبح والد فرويد يتدخل في حياته ،
 فينزل به رعباً يشل حركته ، ويحدث به صراعاً
 عصائياً . ويتكشف سر حياة فرويد الخاصة ،
 ومهنته ، وما يقال عن نظامه الموضوعي في التحليل
 النفسي ، فتعرض كلها بشكل يجعلها تفصح عن وجود
 مركبة درامى يتألف من أوديب ، وهانيبال ،
 وهاملت ، والتشيع للسامية ، وتأنيدها ، وعقدة
 التضحية ، وكل ما فى هذه العقدة من حقد مرير ،
 وحب فى الانتقام . وهكذا تضاف الأحداث الواحد
 إلى الآخر مما يقع فى الحقيقة أو فى الحلم ؛ وفى عالم
 الواقع أو فى عالم الخيال ، ثم تفسر من الناحية الجنسية
 أو بالتحقير من أمرها .

ويفسر كتاب فرويد « الأنا والهو » على أنه
 عملية انفعالية عصابية لتبرئة ساحة الذات ، وفيه يمثل
 « الأنا » فرويد ، ويمثل « الهو » أمه ، والجزء الهام
 فى الكتاب هو « الأنا الأعلى » ، ويمثل الأب ؛ وعدم
 ضم « الأنا الأعلى » إلى المجموعة هو كبت يدل على
 رغبة فرويد فى أن يتفرد بأمه ، ولو على صفحة .

عنوان كتاب^(١) والواقع أن تدير صف حروف الطباعة كان بطريقة ماكرة خبيثة حتى أنه لم يخلف فراغاً لإضافة لفظة أخرى .

وفي هذا المجال يتلاقى التحليل الجدى ، مع التهمك المغرض الخبيث ، والمعارضة الساخرة ، فيسير كل منها كالآخر حتى يتعذر تفريق حالة عن الأخرى ، ومن ثم نعثر على العقد فى كل مكان . حتى اختيار فرويد لمهنته لم يكن مسألة تقدير عقلى ، بل جاء نتيجة عاطفة عميقة ، ومرض نفسى شخصى ؛ أو بعبارة أخرى جاء نتيجة لتدخل شيطانى من « اللا شعور » . وهكذا نجد أن الدافع الذى حفزه إلى احتراف الطب يحتاج إلى تفسير . وهو يقول « بعد مرور إحدى وأربعين سنة على ممارستى للطب دلتنى معلوماتى عن نفسى على أنى لم أكن طبيباً حقيقياً فى الواقع » . ويقول عن فترة اتخاذه لقراره ، « لم أكن شاعراً بالحاجة إلى معاونة البشرية فى آلامها ، فإن ميولى السادية لم تكن قد ظهرت ، ومن ثم فإن السمات التى تستمد منها لم تكن تتطلب أى نمو » .

(١) يلاحظ القارىء أن فرويد أطلق على كتابه « إسم إلانا والهو » ولم

(المترجم)

يضيف إليه إسم « إلانا الأعلى »

وتبعاً لهذا المحلل فإن الباحث الفعلى لدراسته للطب
كان رغبة منه فى الظفر بما يرضى فضوله بشأن ما يدور
فى الحياة الخاصة بين والديه ، إرضاء مؤيداً بالأدلة .

وخلاصة الموقف أن فرويد . وكل أعماله ،
ليست إنتاجاً ناشئاً عن براعة علمية ، أو فضول ذهنى ،
ان هذه الأعمال فى جوهرها إنما هى إنتاج فرعى
نشأ من عداوة فرويد الخاصة لكل ما هو عظيم
ومرح وحر ؛ فهى نتيجة حقه على والده وكل من
يشبهه ، ثم بغضه للمسيحية وديهود ،^(١) بسبب اليهودى
التائه . وإذا ما تحدثنا مستندين إلى النصوص المقدسة ،
وإلى التحليل النفسى فى وقت واحد ، فإن هذا الإنتاج
نشأ عن رغبة اليهود الملحة فى تحقيق الوعد البعيد
المنال ليرجعوا إلى الأرض الموعودة ، ، المعروفة
جيداً لهم ، ولكنها ظلت مرحلة تناسلية ، ولكنها
بعيدة المنال : فيراها مركب موسى - فرويد ،
من بعيد مكتفياً بأن يرشد إليها الشعب اليهودى دون

(١) Jehovah يهوه : أحد أسماء الله عند اليهود وهو مذكور فى التوراة . (المترجم)

أن يدخلها موسى^(١) أو فرويد بسبب الخطيئة الوراثية التي ظهرت كحب جنسى يتمثل فى خوف رهيب من الأب ، واتجه إلى الأم ، ثم انحرف ، وتحول إلى ممارسة العادة السرية .

والغرض من ذكر هذا المثل الفج الطائش من التحليل هو أن نوضح ضروب التلاعب المختلفة بالالفاظ والحقائق عند قراءة بواعث اللاشعور ودلالاتها ؛ ومعنى هذا أن قليلين منا سيكونون أفضل حظاً أن هم عنوا بتسجيل بواعثهم الدفينة ، وألوان سلوكهم فى لحظات الغفلة المختلفة . وهذا يعزينا عما نحس به من غموض . حقيقة أننا جميعاً نعيش فى بيوت من زجاج ، ويحتمل أن نغيبط لأن الأشعة الفرويدية لا تخترقنا وتتغلغل فينا إلا بموافقتنا ورضانا .

ومن الواضح أن الهرم مايلان ، يعد أشد تطرفاً ، وأقل احترازاً مما لا يمكن أن يكونه ممثل للحركة الفرويدية . ومن الجلى أن هدفه الظاهر هو الاستهانة بأمر فرويد ، ولكن من العسير أن نجد منطقاً أكثر تكلفاً من منطق فرويد فى بعض الحالات ،

(١) تروى التوراة أن موسى لم يدخل أرض فلسطين ، وإن كان قد رآها من بعيد لأن الله حرمه دخولها بعد أن كسر لوحة الوصايا العشرة حين غضب على قومه لعودتهم إلى عبادة الأصنام (المترجم)

ولا سيما حين يشرح فرويد نظامه لمرضاه ، وحين يطبقه على نزواتهم الخاصة ، أو على متاعبهم . وعملية تشويه شخصية فرويد بيد أحد النقاد المغرضين ليست في جوهرها أكثر شناعة من السب العلني الذي وجهه فرويد إلى البشرية ، وهذا ما أرفضه على أسس من علم النفس العلمى لا على أسس أخلاقية .

ومجال هذا النقد هو تحدى المبادئ الفرويدية ، فإن كانت سيكولوجية فرويد خاطئة ، فإن خطأها يشيع في كل ما أنتج فرويد ، لأن الدافع على نشوء مشروعه كان القول بأن علم النفس لديه مفاتيح الاضطرابات العقلية . ومصير الطرق الفنية التي استخدمها فرويد يتقرر بالمبادئ التي قامت عليها . ولقد ركزت اهتمامي على معتقدات المحلل وأسبابها ، لأنها تؤثر على تصرفاته حيال المريض . وطرق التشخيص النفسى يمكن تطبيقها بحرية على الشخص السوى العادى ، وعلى سماته الخلقية ؛ كما تطبق أيضاً على المريض العصابى . أما مسألة العلاج فمشكلة أخرى ، فإن الطرق التشخيصية هي التي تسود سيادة قامة في الإجراءات العلاجية ، وبهذا يستطيع الانسان أن يميز في الحال أنه سيجد من يصغون إلى فحص التحليل النفسى . ومن ثم نصل إلى نقطة التقاء المبادئ وتطبيقها ، أو بعبارة أخرى إلى نقطة التقاء هندسة البيت الذي بناه فرويد بالأعمال التي تجرى فيه .

وتقع على عاتق الخاص نتيجة حكمى على محاسن كل منهما
وهذا الحكم يتخذ هيئة نبوءة بمستقبل هذه الحركة الخطيرة فى التاريخ
الذهنى . وسأبدأ نبؤتى بالوجه الخاص بالعلاج ، وبالمزاج السائد
فى عمليات التطبيق ، فإن المبادئ والحجة والوسائل والعلاج كلها
من طبيعة متساندة . وهنا ينتهى ما فى جمعيتى .

ولقد رأيت أنه من الهام إن أعرض منظرا عاما لمجموعة البناء
الفرويدى بما يضم من ابتكارات رائعة ، وبما فيه من تحد لعلم
النفس المعاصر . ولما وضعت الفرويدية فى الميزان ، وجدت
تنقصها المادة التى تجعلها طبيعية ؛ فعن طريق هذا النقص ،
وبمعونة التحرر من السبل المنطقية الجوهرية التى قامت على أساسها
العلوم الطبيعية صارت الفرويدية قلعة من الأوهام . ورغم تناقض
النتيجة — وهى ظاهرة ليست فريدة فى نوعها — وأن تكن
جائزة فى مضمار الأهمية ، فإننا نجد كنزا ثميننا فى قصر التيه
الفرويدى ، ومسالكه الملتوية . وهو كنه جدير بأن نواصل
البحث عند باستمرار .

الباب التاسع

مستقبل فرويد

المـزاج

إن القوة التي دفعت حركة التحليل النفسى إلى موجة عاتية من الظفر بانتباه السواد الأعظم من الناس والتي خلقت لها عدداً كبيراً من الاتباع ممن لم يقنعوا بالسبل التقليدية واتجاهاتها ، هذه القوة تكمن فى التوجيه الصريح للأدوات السيكولوجية الفاحصة بغية حل مشكلات العلاقات البشرية الحيمة الملحة . وسواء أكان التحليل النفسى خاطئاً أم مصيباً فى نتائجه ، وضعيفاً أم قوياً فى حجته ، وناجماً ، أم قاصراً ، أم مدمراً فى تطبيقه ، فإن رسالته كانت انسانية إلى مدى واسع . ولقد عرض التحليل النفسى على أنه منهج للنجاة والخلاص . وبغير هذا الإغراء ، فإن علم النفس ذاته ما كان ليظفر بمكانته الحالية من التمجيد والإجلال .

ويظهر أن رسالة فرويد كانت تدعو المرء وتقول آمن وبرهن فى نفسك بالذات ، تظفر بالراحة والخلاص ، فالأمل فى المعونة الشخصية كباعث ودافع نفسى أقوى وأكثر تغلغلا وانتشاراً

من التحمس للفهم والغيرة على حسن الإدراك ؛ فمن يحسون بالعقبات الكأداء تعترض سبيلهم ، ومن يشعرون بالخطر النفسى المؤلم ، سيستمعون لآى صوت ، ويشتركون فى أى مشروع يعدم بفك قيودهم ؛ وأولئك الذين لم يتلاءموا مع بيئتهم ، وفى الوقت نفسه يحسون بانحرافاتهم مستعدون لتقديم كل تضحية ليتساووا مع غيرهم ؛ وأولئك البائسون والمنزعجون واليائسون يحنون ويتحرقون شوقاً إلى السعادة ، ويشتد حنينهم حتى أنهم ليبذلوا آخر قطرة من جهدهم .

ولقد جاءهم العلاج الموعود فى التحليل النفسى ، فكان أحدث أنواع العلاج وأقواها أملاً ، وأكثرها إطلاقاً للرضى من أسر أنظمة العلاج التى سجلها تاريخ علاج الامراض العقلية . وكان موقف التحليل النفسى من الاتجاهات المعاصرة فى علم النفس هو اللوم والتحدى واعتبارها فاشلة ، وفى حاجة إلى تكملة ؛ أما تصرفاته الفعلية ، فانطوت على تجاهل تلك الاتجاهات فى غير لباقة .

ولم يكن للتحليل من صلة مباشرة بالاغراض العملية المتجهة لدراسة مدى القدرة البشرية بواسطة علم النفس التطبيقي ، ومن ثم فلم يحدث بينهما صدام ؛ ولكن هذا لم يكن إلا فتات المأدبة . وكانت الحلول التى عرضها المذهب السلوكى تسعى أيضاً إلى نيل التقدير والاستحسان الشعبى بالدعوة لفكرة خفض عملية التلاؤم

مع البيئة إلى برامج الافعال المنعكسة الشرطية ، فكان من الضروري أن تجده غريباً بعيداً عن المطنوب ؛ وعلى هذا وجد السلوكيون أن تعاليم التحليل النفسى غامضة ، وخيالية ، واقتراضية إلى حد بعيد . حتى مبادئ الصحة العقلية القريبة منه — كما مر الحال في صلاتها بمجالات علم النفس المتصلة بها — فإن التحليل النفسى لم يتخذ أية خطوة في سبيل التوفيق بينه وبينها .

وكان موقف التحليل النفسى من طب الأمراض النفسية عدائياً رغم القرابة الواضحة بينهما ؛ وكان بكل صراحة يعرب عن اشمئزازه من قريبه غير التقدمى . وامتدت الخصومات بينهما حتى تناولت العقل وأمراضه ، ووصلت إلى الذروة في العمليات التطبيقية . وكان التحليل النفسى حدثاً جديداً في تهجمه ، وثورياً في اجراءاته ، ومطلق الروح يفكر ويعمل كما يشاء ؛ وهذا هو الذى قرر مزاج المعركة الكلامية . ومن طريقة استقلال هذه الحركة في ماضيها وحاضرها ، يجب أن نستخلص معياراً لتقدير مستقبلها . واصطدام الفرويدية بالنظم المستقرة يعد أساساً للتنبؤ عن هذا المستقبل ، ويضع العلاج التحليلى النفسى في الخطوط الامامية للهجوم والدفاع .

ولقد سارت الفرويدية في طريقها الخاص منذ نشأتها وفي

أيام كفاحها المر حين كان أنصارها قلة متناثرين ، وظلت محتفظة بحريتها حتى بلغت أوج عظمتها ، فكانت تتناول بعض المشكلات والاهتمامات التي كان علم النفس الأكاديمي ينظر إليها شذرا ، ولكنه كان في الغالب يهملها ؛ وقليلًا ما تحدث علم النفس المألوف عن الأحلام والفلتات وأمراض العصاب . وكان ثاني الأسباب الهامة لما خلفه التحليل النفسي من أثر ، هو تمييزه لعلم « نفس الأعماق » ، وذلك منذ ظهر وصمد لمقاومة الأكاديميين الذين هاجموا ، فالتحليل أوثق صلة بالنفس من تحليل العوامل العقلية وتركيب عناصر العقل .

وبهذا قدم التحليل النفسي لعلم النفس مركزا جديداً من المرجح أن يحتفظ به ؛ فالتحليل النفسي في جملته سيبقى ، من حيث ما يرجى منه ، ومن حيث ما القاه من أضواء . وسيظل العمل الذي بدأه فرويد نقطة تحول في تاريخ علم النفس ، وفي زيادة المعلومات عن منابع السلوك البشري ، وكيفية إدارتها ، وضبطها . وهذا المستقبل مضمون لفرويد ، ومن الجائز أن نتنبأ به .

والمزاج الذي وجه الحركة الفرويدية في الماضي والحاضر عامل هام في التنبؤ عن مستقبلها ، وخاصة عن المستقبل القريب ؛ فإن تصرفات المدعى عليه ، كما هي الحال في المحاكمات القضائية ، لها قيمتها إلى جوار أدلته وحججه . وستظل قضية الفرويدية تعرض

للحكم المرة بعد المرة رغم أنها غالبت حركة التحزب ضدها لمنع النظر في أمرها في حياد وعدالة ، ورغم ما تتمتع به من سعة الانتشار في السنوات الأخيرة .

والرأى العام المعاصر يتألف على أساس الخبرة الشخصية ، وانتشار ما هو حسن ، أو سيء ، من فم إلى فم . وهو يسير في هذا الطريق إلى أن يصدر حكمه ، فتقوم السمعة على أساس أنواع العلاج أكثر مما تقوم على النتائج المنطقية . والحركات المماثلة للحركة الفرويدية تنتعش وتضمحل بحسب مدى أنباه الشعب إليها ، وانصرافه عنها لأسباب غامضة يصعب تحديدها . ولهذا فانه من المناسب أن نقدر المستقبل أولاً وفقاً لمدى تأثيره بالنجاح الذى تلاقيه عمليات ممارسة التحليل النفسى ، ووفقاً لصداه في البيئة العامة المحيطة به

وتلجج السنة أكثر المعتلين بالشكر إذا ما ارتاحوا من علمهم دون أى فحص أو اختبار انتقادى للنظريات التى شفوا بها . وأى مطلع على وسائل العلاج سواء أكانت ناجحة أم فاشلة — ومنها تلك الادوية المزعومة ، والعلاجات السخيفة التى يذيع أمرها بين الناس بواسطة الدعاية البراقة التى اتسم بها العصر الحاضر — فانه ليس فى حاجة إلى من يخبره بأن الأساس العلمى لآى نظام علاجى ، إنما هو أقل العوامل أهمية فى هذا الشأن . وينشأ كثير

من هذه النظم — وهى تؤلف مجموعة خاصة — على هدى التجارب والخبرة فى أثناء الممارسة لأنها تعطى نتائج إيجابية فيما يبدو لنا .

ومن الجلى أن هذا لا يصدق على حالة التحليل النفسى الذى ينتمى إلى مجموعة النظم العلاجية التى تستمد إجراءاتها كلها من نظرية نشأت فى أصلها وفى مراحل نموها من إحياءات صدرت عن الملاحظات التى يتم الحصول عليها فى العيادة الطبية . وفى هذا المجال يقول مبدأ سيكولوجى ملائم : أخلق اعتقاداً فى النظرية تخلق الحقائق نفسها . وقيمة هذا الرأى تختلف بالنسبة للتحليل النفسى عن قيمته بالنسبة للروحانيات ، ولا نزاع فى أن تقدير التحليل النفسى تقديراً وافياً ، وإذا أثر ناجع سيكون على أساس المبادئ التى يقوم عليها . ومع ذلك فسيظل مصيره معلقاً على ما يوفق إليه فى نواحيه التطبيقية نحو عشر سنوات أو أكثر . ولا أملك إلا أن أكرر بأننى لا أرى فى هذا السبيل ما يدعمه ، بل أرى كثيراً مما يضعفه ؛ فآزمة التحليل النفسى قريبة الحدوث حين تصل موجة نقده وتقديره إلى ذروتها ، بل أن النقد الذى أقدمه الآن إنما هو من وحي هذا الاعتقاد .

ولقد ظهر العلاج بالتحليل النفسى فى برنامجى فى هذا الكتاب لأنه يوضح بعض وجوه التعاليم الفرويدية ، ومنها عملية التنفيس أو العلاج الكلامى ، وهى إجراء قديم عرفناه فى مسألة الاعتراف

الدينى . ولها فائدة راسخة : فإن : العقول الملتأمة عندما تبث أسرارها إلى حشية نومها الصماء ، تستطيع أيضا أن تنخلص منها بطريقة أقوى . وأكثر تأثيرا ، بالافضاء بها إلى مستشار حصيف .

وفي عمليات الفحص الفرويدية تحول الاهتمام إلى الكشف عن العقد ؛ وهذا بدوره تحول إلى البحث عن أنواع التوقف في مراحل الطفولة ؛ وكذلك تحول العلاج إلى القضاء على المقاومة أو إلى مداورتها ؛ ثم تحول مرة ثانية عندما أدخل مسألة العلاقات المعقدة الخاصة ، بالتحويل ، . وفي كل من هذه التحولات زاد تغلغل اجراءات العلاج في المقدمات الافتراضية . وفي رأى أن هذا أبعد عن القاعدة السليمة التي يمكن تحقيقها . وعن أن يكون فنا له مستقبله .

وهكذا صارت الاجراءات موضوع نزاع ونقاش ، ودخلتها البدع . وأثار الموضوع المنازعات والمناقشات — وهي مناقشة خطيرة في نتائجها — فتناول الناس مدى خضوع اجراءات إعادة تكوين الخلق ، والتلاؤم مع البيئة — ونحن جميعاً نتفق على هدف العلاج — إلى العامل الذهني الخاص بالذكر ، وإلى أى مدى تحتاج إلى عامل الانفعال الخاص بأن يحيا الإنسان تلك التجارب من جديد ، فيفصح عنها ، ويستبدل ما يرضيها بغيره ، أو أن يستسلم لنفوذها .

وقدم لنا « فيرنزى » ، « علاجاً فعالاً » حدد فيه أوجه نشاط معينة تعمل على إطلاق البواعث النفسية المكتومة ، وهذا يتفق مع المبادئ المقررة للصحة العقلية ، ولكن ما قدمه « فيرنزى » كان حافلاً بالفروض الخيالية مما أخرجه من نطاق الأمور المعقولة . وكذلك قدم « رانك » نوعاً من الفوضى عندما جعل كل ألوان العلاج الخاصة تتوقف على نظرية « إعادة إظهار الحالة التي داخل الرحم » . ومن الواضح أن الأمل ضعيف في الوصول إلى علاج منطقي ثابت في هذا النوع الكثير النزاع من التحليل النفسي .

أما « يونج » ، فيؤلف اجراءات علاجه في اتجاه مختلف كل الاختلاف . فإذا انتقلنا إلى « أدلر » فإننا نجده يخرجها من مجال التحليل النفسي ، رغم أن هذه الاجراءات موجودة فعلاً في العلاج النفسي العام . والتغيرات التي استحدثها تعد ذات أهمية عظيمة ، فهو يجعل العلاج النفسي قوى الصلة بالبرنامج الأخلاقي التربوي ، ويدمج فيه إلى حد كبير حتى أنه ليفقد مميزاته ، ويتخذ مظهر دعوة تبشيرية ؛ وهذا الاتجاه ينتشر انتشاراً كبيراً ، ويصير أشبه بالطقوس الدينية . وهو يصر كذلك على اتباع طريق واحد ، وحل معين للصعوبات العصابية ؛ وهذا الحل جعل الشعور بالعظمة — وهو دائماً ما يخفى النقص أو يكون تعويضاً جيداً ،

أو شيئاً له — هو الأساس العام الشامل : وهو أساس ضعيف قلق ، وغالباً ما يكون عديم القيمة ، سيء التكوين شأن أى دواء بوصف اشفاء جميع الأمراض .

وخطأ موقف أدلر جسيم فى أنه يبسط بطريقة خاطئة مشكلة من أكثر المشكلات تعقيداً ، حتى أنها لتسكاد تفقد كل مادتها وقوتها . ولا تترك إلا القليل الغامض مما لا يمكن تناوله أو استخدامه كأساس للعلاج . فليس فى وسعك أن تحول مهرباً إلى مبشر دينى مخلص بمجرد لفت نظره إلى نمط حياة ، خاطيء صعب تربيته بوصفه أكبر فرد فى الأسرة . وفى هذا المجال يسود اتجاه النحلة الطقسية مرة أخرى ، ولكن ناحية واحدة مرموقة من النواحي التى تأكدت ظلت باقية . وإذا ما سرنا فى الطريق الدائرى عند أدلر ، فإننا نصادف أولاً النقص العضوى ، ثم النقص النفسى ، ثم التعويض ، ثم نمط الحياة ، الذى يسود . ومن هذا الطريق الدائرى أكد أدلر أهمية الهدف ، واعتبره كالل دليل المرشد للعلاج ، وعليه حشد كل وسائل علاجه . ونتج عن هذا علم نفس أهداف ، يؤكد أهمية الغايات ، ويتناقض مع علم نفس الدوافع ، الذى يوجه اهتمامه إلى المنابع ، ولا ريب أن النهايات ضرورية ولا غنى عنها . وفى مجال علم النفس الحديث ، لا توجد فكرة واحدة ذات نتائج جوهرية أكثر من هذه الفكرة . ولا يمكن لأى علاج أن يستمر بطريقة فعالة

منتجة بدون التركيز على الأهداف ؛ وسيوجه علم النفس في المستقبل اهتماما متساويا إلى كل من الأهداف والدوافع . وأنى أقدم هذه الصورة عن حالة علاج الأمراض النفسية لأبرر تقديري الضعيف لهذه الناحية ، أما العلاج في المستقبل فسيعتمد على ادماج منطقي للبادئ التي تبدو اليوم بالغة الفوضى والتناقض .

وسيتحول التيار وفقاً لتحول الاهتمام الشعبي بطريقة مشروعة بفعل ما يحققه العلاج بالتحليل النفسى . ويجب أن نعى في عقولنا الخبرة العيادية في مجال أمراض العصاب النفسية بصفة عامة . وإذا ما قدرنا الحالات الاستثنائية ، فلهذه الأمراض فترة حددتها بنفسها ؛ فلها فترة حضانة تكثر فيها المتاعب ، وأنواع القلق ، وتفاقم اليأس والارهاق إلى أوجه ، وأن تخللته حالة تذبذب ؛ ثم تأتى فترة استسلام ، ونقه ، وتدرج في استئناف ومزاولة حالة الانسجام السوى العادى بأوضاعها ؛ فالنموذج يشبه تدفق الموجات وانحسارها ، وهو يختلف باختلاف الأمزجة ، وبين الفترة والاخرى ، يحدث فيه تحول مفاجئ . ولكن المريض يجتازه .

وجدير بنا أن نقدر بواعث الراحة الواضحة الناشئة عن التأكد من أن متاعب المريض تبحت بطريقة جدية ، فإن هو

انسجم مع هذا اللون من العناية . ظفر بالارتياح المشجع . إذ يجد نفسه مركز الاهتمام ؛ وإذا ما أدخلنا في حسابنا الفترات الطويلة التي تحتاجها عملية التحليل، ثم قدرنا الاستعداد وهو — في الواقع — قابلية الايحاء في بعض ألوان الأمراض العصبية (المستريا)، ثم قدرنا أيضاً أنه لا يوجد نظام لا يتضمن حُظّات فعالة من الناحية العلاجية أياً كان اتفاق هذا النظام أو تنافره مع النظم المنطقية ؛ والواقع أنه لا يوجد نظام علاجي أياً كان بعده عن المنطق العلمى أو استحالة تنفيذه إلا وهو ضار ، ولكن هذا لن ينفي أن له أرقاماً واحصائيات تبين قدرته على العلاج واحداث الشفاء ؛ إذا ما قدرنا كل هذا وسخونا في تقدير النجاح الفعلى الذى ظفر به التحليل النفسى فإننا لا نجد أعظم أو أفضل مما قدر له .

ولاريب أنه توجد حالات كثيرة تتلام مع مختلف طرق التحليل النفسى فى أشكالها الدقيقة المحبوكه . أما القول بقابليته للتطبيق على أمراض العصاب عامة ، أو على مجموعة منها بنوع خاص ، فهو أحد الاجراءات الكثيرة التى أقيمت على نظريات مختلفة أو أفكار تعسفية صريحة . وفى هذا السبيل يقول هولنجورث ، « أن فرويد أخفق فى أن يوضح سبب نجاح طرق العلاج الاخرى المغايرة لوسائله . وإذا كانت نظرياته تعرض

وفقاً للعلاجه، فماذا سنقول عن نجاح العلاج الذى سجله « بابينسكى ،
 وهرست وروزانوف »^(١) وهم من غير الفرويديين بلا جدال . .
 ولا يوجد فى الخبرة العلاجية ما يبرر الوسائل الفرويدية
 أو يدحض متناقضاتها وعدوانها على النظريات القوية أو المعلومات
 المستقرة . ويجدر بنا فى هذا المجال أن نكرر أن معلومات كثيرة
 عن أنواع أمراض العصاب النفسية المختلفة ، والعوامل الكثيرة
 التى تؤلف صورها المتباينة — كثير منها معلومات حديثة — قد
 تجاهلها فرويد تجاهلاً تاماً . وفى هذه الدراسات المتنافسة تقبع
 لمح إيجابية تفسر بالضبط الظواهر التى لفتت نظر فرويد ، وفيها
 كثير من المقتنع إلى حد كبير .

ولن نظفر بمقياس نزن به الصلاحية الفعلية للتحليل النفسى
 إلا إذا أعلن المحللون النفسيون على اختلاف مذاهبهم إحصائيات
 محايدة دقيقة عن حالات فشلهم ونجاحهم ، وهو إجراء لا يُحتمل
 تنفيذاً فى حركة التحليل النفسى الآن لما يغشاها من تعصب كل
 مذهب لشيئته . وأفضل أن أترك مسألة الحكم فى هذا الموضوع
 إلى المحترفين فى علم الأعصاب والطب النفسانى .
 ولكنى لا أعفى نفسى من نقد أرى ضرورة تقديمه وتأنيده .
 وهو الاعتراض المألوف القائل بأن إنساناً لا يستطيع الحكم على

نظام التحليل النفسى ، وتقدير مزاياه إلا إذا مارسه مدة طويلة بصبر وجلد ، فعاش فيه حتى صار جزءاً شديداً الصلة من مهنته . وهذا دفاع أعرج ، ونوع من المراوغة يستخدمه أنصار الشيع والنحل والشعوذة باستمرار ، كما يذكر المنجمون أن فى الأرض والسماء أكثر مما تحلم به فلسفاتنا ، غير مدركين ما تحاول هذه الفلسفات أن تفسره على أساس من العقل والمنطق .

وتوجد عدة مهن مربحة تبرر هذه التضحية المنطقية ، ولكن الناقد العميق ، صاحب النظرة الفاحصة ، يستطيع من برجه المنعزل أن يرى ما يحقق فائدة . ولو ضوعفت حياتى تسع مرات ، وفقاً لما تردده بعض الأقوال ، فإنى لن أحس بأى التزام لى أخصص حياة منها للممارسة كل من علوم فراسة الوجه ، وفراسة تضاريس الرأس ، والتنجيم ، وعلم الاعداد ، وعلم الشفاء بالإيمان ود الفكرة الجديدة ، وعلاج الداء بمثله ، وقراءة خطوط الكف ، والتحليل النفسى الفرويدى ؛ لو تكررت حياتى تسع مرات فلن أغامر بواحدة منها فى ممارسة أى من هذه العلوم بغية تبرير الوصول إلى تقدير القيمة الجوهرية لمبادئها وتطبيقاتها ، أو بغية أظهار ما تعرضه من عدوان أئيم طاغ على المنطق والسلامة العقلية .

ومن الواضح أننى لن أستطيع تدوين هذا الكتاب أن كنت
أومن بغير هذا ؛ ولا أستطيع أن أوافق بأية حال من الأحوال
على إخلاء سبيل أولئك المؤيدين والانصار من التزامهم ووجوب
اثباتهم نظرياتهم بما يرضى قضاة من ذوى العقول العلمية .
ولا ريب أن عرض الدليل والحجة هو الذى يبرر صدور
أى حكم .

وقبل أن تترك هذا الموضوع يحسن أن تتناول
عاملا آخر ، باعتبار التحليل النفسى علاجا هدفه
تخفيف الآلام عن طريق الاعتراف بحقيقة العلل
النفسية . وهذا العامل هو علاج رجال الطب
لأمراض العصاب النفسى بشيء من الاستخفاف
والتهاون . ويظهر هذا العامل بجملاء فى علاجهم
الاشكال الخفيفة للمرض مما يحدث لأكثر الناس
فطنة وأرجحهم عقلا ، رجالا كانوا أو نساء ؛ فإن
كثيرين من ممارسى الطب فى مختلف فروعه تصرفوا
كلهم بغير فطنة أو حصافة حيال المرضى الذين تقدموا
إليهم ، وليس فيهم أثر لا ضطرابات عضوية ، فعندما
فحصوا أعضائهم لم يعابأوا باخفاء تعبيرات العطف
والرثاء والتعالى والسخرية .

وكثير من الأطباء يعالجون حالات واضحة
تثير فيهم اهتماما خاصا بها لأهميتها، ولكنهم يفشلون
في تمييز مراتب الذكاء والضمير والشجاعة بين
مرضاهم ممن أمضوا ساعات طويلة من القلق والآلام
وهم جالسون في غرف انتظار كثيفة لا أثر فيها لما يبهج.
ويروى أن طبيباً مشخصاً كبيراً فخص
مريضاً له مركزه الخطير دون أن يجد فيه أى أثر
لمرض، وعند انصرافه شيعه بملاحظة أبوية، قال
فيها أن انسانا في ذكاته يجب أن تكون معلوماته
أفضل من أن تجعله يستسلم لأعراض أمراض
العصاب النفسية. ومثل هذه المعاملة الحققاء غير المميزة
تتكرر عدة مرات في كل يوم إذ توجه إلى مواطنين
جديرين بكل احترام عادة.

ومهنة الطب مسئولة إلى حد كبير عن التجاء
المرضى اليائسين إلى الدجالين والمشعوذين بغية
معوتهم، فإن أولئك المرضى كالجوا طويلا بشجاعة،
وكان من الممكن أن يبلغوا مرحلة النقه والشفاء
لو استخدمت معهم وسائل طبية أكثر عطفاً وفهماً
مما أتبع. ولعل التواضع يوحى إلينا بحمل أفضل لانقاذهم

فيعترف الاخصائي في تشخيص الأمراض بأنه ليس من البارعين في مثل هذا الداء ، وأن على المريض أن يلجأ إلى استشارة من تخصصوا أكثر منه في علاجه . وهذه المشكلة موجودة أيضاً بين أطباء الأمراض النفسية ، فإن أولئك القادرين على تشخيص الأمراض العصبية الوظيفية إنما هم قلة منتقاة .

وليس في وسعنا أن نتجاهل خطر الفحص التحليلي النفسي ، بل أن هذا التجاهل غير جائز ، فإن أحد وجوه القصة ، هو أن « الأثرياء الخاملين ، أخذوا بالبدعة الجديدة ، فوجدوا فيها « مودة ، جذابة . وأن أصحاب الآراء الشهوانية والشخصيات القلقة تلقوا هذا الفحص كعامل مثير للجنس أو عشق الذات والترجسية . وتروى أنباء فينا^(١) قصص الأزواج الأمريكيين الذين لجأوا إلى أقسى التدابير لينقذوا زوجاتهم من عملية « التحويل ، في التحليل النفسي . وهي تروى أيضاً قصص مرضى أجبروا على اعترافات أثارت جراحهم

(١) كتاب جورج سلد George Selde « هل يمكن حدوث هذا ؟ »
Can These Things Be ? الذي صدر في عام ١٩٣١ (المؤلف)

العاطفية أكثر مما شففتها . وتقص هذه الأنباء أيضاً حكايات عن مرضى استولى عليهم اليأس بسبب آثارة انفعالاتهم .

ومثل هذه القصص يمكن أن تروى في نيويورك ، أو في أى مكان يمارس فيه المحللون النفسيون مهنتهم ، أو حيث يسترعى التحليل انتباه أمثال هؤلاء المرضى . ولقد كان من أيسر الأمور لآى محترف أن يمضى أشهراً قلائل في فينا ، فإذا ما عاد أعلن أنه محلل نفسى يجوز له العبث بقدر الأقداس في حياة المرضى المشدوهين . وهكذا تجمعت الشائعات الكريهة لتروى قصص التجرد من الفطنة ، والخروج على الآداب ، والفضائح ، ولتناول أحاديث ألوان الحياة المحطمة ، وما تبعها من حوادث الانتحار .

وهكذا فتح باب الاتهام على مصراعيه ، وكان التحليل النفسى من أكثر المهن تعرضاً للاتهام بسوء استخدام الثقة^(١) ، وبالخط من قدر الجنس ، بما فسر خطأ بأنه من قبيل الاستزادة بمعلومات جديدة . وكانت أخطر التهم هى الانهيار التام الذى حل

(١) نشر الدكتور . تانتوم . حادثة لو أعيد نشرها فى هذا الكتاب لتعرض

(المؤلف)

ناشرها إلى عقبات محيرة

ببعض المرضى المحترمين ممن قست الأمراض العصابية في
تعذيبهم فأجهز التحليل النفسى عليهم .

وحسبى فى هذا المجال أن أشير إلى قصة واحدة
مما ورد فى بريدى . والكاتبة امرأة منيت بالمتاعب
المؤلمة فى زواجها ، وحصلت على الطلاق من زوجها .
وقد كتبت تقول : أقنعنى طبيبى الذى أثق به إلى حد
كبير بأن أجرب التحليل النفسى . ولم أكن أشعر بأية
حاجة إليه ، ولكن جهلى التام بالاضطرابات العقلية ،
وما منيت به من يأس ، دفعانى إلى قبول اقتراحه مما
سبب لى اليأس من الحياة . واستمرت عملية التحليل
أكثر من سنة . ودفعت أسرتى آلاف الدولارات
كنفقات لها ، فكانت النتيجة أن صرت فى أسوأ
حالات المرض . والواقع أن إحدى صدمات
التحليل أدت إلى اختلال فى توازن عقلى حتى أن
ميولى صارت انتحارية ، وإذا ما عدنا إلى شغشية
المحلل وسألناه لماذا يعتبر اكتشاف « صدمة نفسية »
مفيداً فى حالة أزمة نفسية ؟ فإنه يجيب بأن الأزمة
إنما هى « هرب من الواقع » ؛ ثم يستمر ليجعل
الحقيقة أسوأ مما يمكن أن تكونه .

والواقع أنه من الصعب أن نميز النعاج من العنز عندما نعتبر ما تنطوى عليه نظريات الإخفاق الجنسي كنصيحة مشروعة ، بينما هي في الغالب مهزلة سخيفة ، وإهانة لا تغتفر المريض إذا ما لاحظنا مركزه الاجتماعي وظروفه ؛ ولعله من الغبن أن نضع أوزار المحللين النفسيين المزيفين ، أو الأغبياء الذين لا يتقيدون بأى مبدأ ، على كاهل الاتباع المحترمين . وليس معنى هذا أن قادة الحركة أرباباً من نتائج المغالاة والإفراط ، ولا سيما إذا شاع بينهم كثير من العبارات المجردة من تقدير المسؤولية ، ثم كثرة ترديدهم لمسألة الانحرافات الجنسية .

وفي الحركة الفرويدية كثير من عمليات التحليل الطائشة التي تتفاوت في خطرها لتشمل كل المراتب والدرجات في مهنة التحليل النفسى . وبأى منطق نتوقع مزيداً من التعقل في ممارسة المهنة إن كانت المبادئ نفسها في حاجة إليه ؟ ويقول شماهوزن Schmalhausen : أن ألوان الجراحات الفجة التي يرتكبها المحلل العادى المتوسط القدرة تدل ، على أن إجراءاته يجوز أن تحدث أضراراً لا حد لها ، . وموقف شماهوزن ، أزاء تشخيص الأمراض النفسية موقف عام نقدى فاحص لا يمكن اتهامه بالتحيز في مناقشة المسائل الجنسية .

وهو يقول : « والحق أن الأضرار الفادحة التي أنزلها بعض جراحى النفس غير المدربين — ممن يطلقون على أنفسهم اسم المحللين النفسيين الحقيقين — قد وضعت في المرتبة الأولى ، عملياً ونظرياً ، ضرورة اختبار قدرة العقل على احتمال عمليات الفحص التي يجب أن يجتازها بأى ثمن ، وعلى حساب انسجام الشخصية ؛ فإن المحلل بتأكده من تعاليمه تأكداً تحكيمياً ، يرضى أن يتخذ قرارات تنزل المحن بعقل يقاسى فعلاً من آلام تعذبه وتتجاوز نطاق قدرته المعقولة على الاحتمال . »

« ولو تذرع الخبراء الذين يمارسون التحليل بالشجاعة الفلسفية ، وقدموا تقاريرهم عن الحالات التي أساءوا تديرها ، أو لم يستطيعوا فهمها (والمحلل لا يعدو أن يكون إنساناً كغيره من البشر) فإن علم التأهيل الجديد ، والذي يبشر بمستقبل باهر ، سيظفر بفائدة ضخمة من اعترافهم الصريحة . »

ومما يعزز التهمة تلك الحجة التي ينطوى عليها كثير من عوامل انعدام ثقتى بوسائل التحليل ، مما يوازى اعتراضى على المبادئ بأنها غير قوية من الناحية المنطقية ، وغير طبيعية من وجهة النظر

السيكولوجية . وهذه التهمة عبر عنها شماهوزن بصيغة موجزة محدودة إذ قال :

« وتوجد في وسائل التحليل « الأصل ، أساليب إجراءات تقضى على الغايات السامية المرجوة ، إذ تعبث بالاحترام الشخصى للمريض ، وتضعف ثقته بنفسه ، وتثبط من شجاعته . ولهذا فلا غرابة في أن يصير التحليل في الغالب كثير التعقد والخلط ، حتى أنه ليخرج مشاعر المريض وآراءه الحساسة ويهيجها ، فيخرج من التحليل وهو في حالة أسوأ بكثير مما كان عند بدايته ، .

« وحالات الأمراض العصائية النفسية من الحالات التي يجب أن تتوفر في تناولها الدقة واللباقة ، وهذا العامل لا وجود له في الغالب في إجراءات التحليل . ومن الحقائق المرة التي تضعف من قوة العلاج بإجراءات التحليل النفسى ، ما انطوى عليه من تحكم ، وإرهاب ، وسلطة سحرية ، وتفسير لبق لا معنى له ، ثم صمت مثير ، وألفاظ ضخماء جوفاء . والتشدد بعبارات فرويدية مبهمه لا تغنى شيئاً على وجه التحديد ، .

وإذا ما حاولنا أن نضع ميزانية حسابية للتحليل النفسى فيجب أن نوجه اهتماماً خاصاً إلى الجانب المدين فيها ، فقد يمر الناس به في غير احتفال بأمره ، بل أنهم لا يدركونه بسبب التعصب التام للتعالم ، وأكثرها خيالى ، وبسبب المواقف الضالة والحمقاء من جانب المحللين الذين حاولوا أن يرتفعوا إلى ما هو أرقى من مستواهم الثقافى ، والمزاجى ؛ وهم فى ذلك كسواهم من المهن الأخرى . وفى هذا المجال يجب أن نذكر أن أكثر المهن احتياجاً إلى أكبر قدر من اللباقة والضمير الحى هى مهنة من يصلحون النفوس المريضة ومن يعملون على شفاء العقول المعتلة .

وكثير من المحللين النفسيين فى الوقت الحاضر يسيرون فى إجراءاتهم دون اتخاذ أية احتياطات لوقاية النفس من التلوث بأدران جديدة ؛ وهم يندفعون فى عملهم بمزاج ينفر ذوى العقول الحساسة المفكرة . وبما أن الهدف المنشود هو إحلال السلام والانسجام فى النفس ، فمن البديهي أن واجب المحلل النفسى ، هو أن يتأكد من صلاحية وسائله وجودتها للصحة . ومن الجائز أن تكون الوقاية الطبيعية للحياة الداخلية هى إنتاج حالة الإغلاء الحقيقية ؛ ولكن الحفر عند الجذور من الأعمال الخطرة ، فإن تولته أيد غير خبيرة صار قاتلاً .

وما يدعونى إلى توقع انهيار سريع للتحليل النفسى ، مزاجه

في التطبيق ، وحاجته إلى ما يبرز إجراءاته ، وإلى مراعاة نمو الاعتراف بالاعتبارات العملية والاجتماعية الخالصة : ولكن هذا الإنهيار يمكن درؤه بإصلاح المعوج من معالمة . ومن العوامل الحيوية التي تعمل أيضاً على انحطاطه امتناعه عن إيجاد صلات تعاونية مع الجماعات المهنية التي ينطوي تحت لوائها . وتدل جميع العلامات التي سبق أن طبقت على حركات مماثلة. عندما انتعشت. ثم اضمحلت ، على أن التحليل النفسي في طريقه إلى السقوط ، فإن مزاجه الأرعن قد عجل بكره الناس له.

ولا أستطيع أن أنجاهل تهمة أخرى تميل إلى جعل المحلل شخصاً غير محبوب ، وغير مقبول في المهنة : فإن هذا الاستعلاء لسوء الحظ من السمات السائدة في مزاج المحلل نفسه ، فإن تعصبه لمذهبه ناشئ عن التجاهل أو الجهل الآثم بكل تأكيد . ووفقاً لخبرتي الشخصية أستطيع أن أقرر مسروراً أن أحسن المحللين النفسيين براء من هذه القيود والعيوب ، فإن الطريقة التعليمية للمبلين بالتحليل النفسي ، وتقديمهم التعليمات بشكل فيه استعلاء إلى غير المطلعين ، تظهر في مطبوعاتهم ، وفي خطبهم ، بل وفي المؤتمرات مع زملائهم من الأطباء .

أما العبارة التي يكثر ترديدها وهي قولهم « نحن معشر المحللين نعرف ، ، فما هي إلا عدوان على أصول الجدل بين الأفراد

المتساوين ، ولعلمنا تنطوى على شيء من السذاجة والقحة ؛ أو بعبارة أكثر تسامحا ، هي مناعة ضد آداب الجدل في هذا الموقف الاستعلائي ؛ إذ يبدو مرتكبها غير فطن إلى موقفه . ويظهر هذا الاتجاه في ما يروى من قصص عن مدارس التحليل واختلافاتها .

ويظهر هذا الاتجاه فيما بين طوائف مدرسة التحليل النفسى وأحزابه من احتكاكات ؛ كما يتجلى أيضاً في الحيرة التى وقعت فيها مضيضة عندما دعت محللين معروفين للغداء على مائدتها ، وكانا من مدرستين متعارضتين ؛ وما أن وجهت الدعوة حتى عرفت أن كلا منهما يرفضها إذا حضرها الآخر . ولو عمم هذا المسلك بين شتى النحل والطوائف الدينية أو الاقتصادية المتعارضة الاتجاهات ، لا سفر عن عقبات واحتمالات غير منتظرة فى فن التشخيص النفسى . والواقع أن المحلل النفسى يحتاج إلى فن الدبلوماسية إذا ما نظرنا إليه من حيث هو صاحب رسالة ودعاية .

ودعوى الابتكار و « الاكتشاف » تظهر فى شتى نواحي النظام الفرويدى . وعليها عقب « دنلاب » بقوله :

« يقال أن الأهمية العظمى للجنس فى الحياة البشرية ظلت مجهولة تماماً إلى أن وضّحها فرويد ؛ ولعله مما يدهش تلاميذ ، وأتباع طينيب فينا أن باحثاً نفسياً يحتمل أن يميز أهمية الجنس ، بل ويؤكد الدور

الجوهري الذي تلعبه الآراء الجنسية ، ونواحي النشاط الجنسي في العقل ، حتى أنها تسيطر عليه وتقوده ؛ ورغم هذا ، فإن هذا الباحث لا يكون من الشيعة الفرويدية . حتى مبادئ تداعي الخواطر صارت من منتجات التحليل النفسي بالتلويح إليها بأنها كذلك في كثير من العبارات .

« وهناك أيضاً الحقيقة القائلة أن كل تفاصيل التصرفات الشعورية قد توجه أحياناً بفعل نتائج الخبرة السابقة . هذه الحقيقة وفقاً للتحليل النفسي لم تكن معروفة البتة قبل ظهور كتاب فرويد عن « علم النفس المرضى في الحياة اليومية » ، ولا ريب أن غير المطلعين على علم النفس ، والذين يحصلون على أول معلوماتهم العامة عنه من مصادر فرويدية ، يعدون فرويد المؤسس لعلم النفس الحديث .

وحتى مثل هذه النتيجة الجوهريّة قد تظفر بالقبول العام الشامل ، فتجدها في كلمات عالم أمريكي جيولوجي معروف^(١) اشتهر بدعوته الإنسانية بفضل خلقه ومزاجه ، ولكنه يجهل فرويد كل الجهل ؛ فيقول :

(١) « ناثانيال شالر » Nathaniel Shaler في كتابه « الجار » The Neighbour

(المؤلف)

« ليس من الإسراف ، أن نقول أن كل الأخطاء الهامة في تصرفاتنا ، وكل أعباء الناس والجماعات إنما حدثت بفعل عدم الانسجام في الترابط بين الانفعالات الحيوانية البدائية ، وبين تلك القوى العقلية التي نمت بسرعة في النوع البشري ، . وهذا هو . جوهر الصراع .

وأذكر مثلاً آخر ، ولكن في اتجاه جديد : فأردد عبارة قالها أحد ممثلي^(١) التحليل في حديثه عن التحليل النفسي « واكتشافه للرمزية » ، فعزا إلى التحليل أنه أول من ميز البنية الجنسية النفسية في الإنسان . وادعى أيضاً بأن التحليل قد « فتح المجال لتطبيق نظرية التطور في تفسير العمليات العقلية » . وقال أيضاً « إننا نتعلم كيف نطبق وجهة نظر العلوم الطبيعية في دراسة مشكلات العلاقة التي بين العقل والجسم بدلاً من الإغراق في التأملات الخاملة فيما وراء الطبيعة مما هو متبع حتى الآن . وقد تجاهل إدعاء التحليل النفسي هذا جانباً

(١) فان تسلا Van Telaar في كتابه « هيكل التحليل النفسي »

(المؤلف)

. ١٩٢٥ An Outline of Psychoanalysis

كبيراً من علم النفس الذى لم يسمع "ببته عن فرويد. وعلى عاتق هذا الادعاء تقع مسئولية تفسير أن "ما وراء علم النفس ، هو تعبير لوجهة النظر الطبيعية . وليس من الواضح قوله أيضاً ، أننا معشر المحللين النفسيين نشهد فى كل يوم الصراع الناشب بين الغرائز الأولى للإنسان ، وبين اتجاهاته العليا ، مما يوجب أن نكون بغير استثناء قادرين على الظفر بهذه البصيرة .

وقد سجل الكاتب الإنجليزى H.G. Wells مقال مديح يتألف من أربع صفحات عن قيمة علم النفس وتطبيقاته لخدمة التقدم البشرى . وفيه لم يشر الكاتب مرة واحدة إلى التحليل النفسى ، كما أنه لم يستخدم اللفظ البته ، مما يدل على أن هذا الكاتب المعروف عبر عن نفسه أصدق تعبير بصد موضوع التحليل النفسى ، وما يرجى منه لاسعاد البشرية .

ولا ريب أن هذه النغمات الشاذة الناشزة هى التى تعبث بمدلولات الحجج الفرويدية ، كما تبين فى جلاء تنافرها مع حقائق القضية . وهكذا فإن تحديه بقية مبادئ علم النفس لا يصل إلى احتقار هذا العلم أو الاقلال من شأنه .

ولقد كانت نزعة الطائفية ، والتقديس ، والتعصب الأعمى ، بعيدة الأثر في استقبال الحركة الفرويدية . وقد ظل أثرها واضحاً فترة طويلة . وبكفى في هذا المضمار أن أقتبس فقرة واحدة لأحد الأنصار إذ قال : لم يطرأ ما يدعو إلى التخلص من شيء ما بما صاغه الاستاذ فرويد من البداية . . وهذا يدل على إجلال بابوي لا يتفق البتة مع مغامرة علمية من الواضح أنها لا تعدو أن تكون محاولة .

وخبرتي واسعة بمزاج الطوائف والنحل ؛ فمن سمات أعضائها وطقوسهم أن يشتركوا في ترديد ما يضعه الزعيم من النصوص . وعندئذ يخطيء الناس ، ويظنون أن هذا التكرار المستمر أدلة جديدة ؛ فالطقوس تؤدي إلى الطائفية ، وإلى انشقاق الصفوف . وكل منها لا يرى في غيره إلا الزندقة التافهة . وقد كان هذا حالها في أقدم الأيام حين اختلفوا على مركز الابن من الأب فانشقوا إلى طائفتين يسمى أنصار أحدهما Homoiousians ويسمى الآخرون Homoiousians . ومن طبيعة النحل أن تباعد وتتخلف عن ركب التقدم .

ولقد سمعت أحد المحللين يبدي ملاحظته ، فقال أن الفرويدية ستصير مقصورة على أتباعها الفرويديين بسبب صلاتهم الاجتماعية والمهنية . وقال أن بقية العالم لن تفهمهم لاهم ولا وجهة نظرهم .

ولقد كررت مراراً أن المقومات الفرويدية تحتوى على لب علمى سليم ، ولكنه يكاد يضيع فى وسط ما طرأ عليها من الخطئ وس الطائفية . وهذه الطائفية فى التحليل النفسى هى التى تنذر بانهار بيت فرويد .

أحكام

تؤلف الأحكام الصادرة من الأكفاء المخلصين قاعدة أخرى للتنبؤ عن مآل الفرويدية ، وسأعرض هنا لمجموعة مختلفة الدراسات من شتى الزوايا والملاحظات ؛ فالتحليل النفسى يقدم نفسه كحل لمشكلات ضخمة معينة تواجه علم النفس الذى يراه المهتمون بالعلوم الطبيعية جزءاً من علم الحياة الواسع . وإذا ما أهمل هذا الأساس ، أو أسىء وضعه ، فإن كل خلل فى مبنى واحد سيكون خلاً أساسياً فى كل منشآت علوم الحياة . ويتمسك « هالدان ، Haldan الأخصائى فى علم وظائف الأعضاء ، بأن هذا الأساس يسرى أيضاً على التحليل النفسى فىقول .

« أن نوع السكائن الذى تصوره فرويد ليس إلا من انتاج خياله ... أما عن سمات النشاط الشعورى ، فإن فكرته لم تقدم أى دليل عنها ... وكل بيئة لعلم نفس من هذا القبيل تقوم على أساس ردىء من الفيزيقية ،

وعلم وظائف الأعضاء ، فضلاً عن أن فكرته غير كافية البتة من وجهة النظر الخاصة بعلم النفس ، فهي تسمى تمثيل أعمالنا لأنها تسمى تمثيل كل من مدركاتنا الحسية وعواطفنا .

ويصر الباحث النفسى « دنلاب » ، على اتخاذ موقف أشد صرامة فى رفض التحليل النفسى ، ويقول أن حاجته إلى الأساس الطبيعى « جعلته أعتداء على لب علوم الحياة ، فهو يتستر بلباس العلم كى يتسلل إليها ، ثم يخنقها من الداخل ، وتشبثه الشديد الملمح باتجاهه التأملى ليس بالاتجاه الوحيد الذى يضايق كل عالم ينحو إلى الاتجاه التجريبي .

أما الباحث النفسى المتسامح « دودج Dodge » فيقول بصراحة ، « أن الحقائق بغير فروض شئ ميت » ، ثم يضيف قوله والفروض التى لا يمكن تحقيقها أولى بها أن تعد ميتة » .

ويظهر غزو الفرويدية لبيت العلم على هيئة تدخل سافر وعدوان . أما سبب هذا الاعتبار وكيفية ، فمسألة يتعذر شرحها ، فإن مكان التحليل النفسى لا يبدو بين العلوم ، أذ يحمل جواً أجنبياً عنها . ويوضح الباحث الاجتماعى « تروتر » Trotter مسألة بعد التحليل النفسى عن العلم ببراعة ، فيقول :

« من الجائز أن يؤخذ الإنسان إلى حد كبير
 بعظمة الصرح الذى شيده فرويد ، فأذا ما غادر جو
 العلوم البيولوجية المنشط ، ودخل بيت فرويد ، فلا بد
 أنه تضايقه رائحة الانسانية المنتشرة فى البيت كله .
 وأينما ذهب يجد ميلا إلى قبول معايير بشرية : وفى
 أحيان أخرى يميل إلى قبول ادعاءات انسانية . مما يحتم
 خلق نوع من القلق بشأن صلاحية الصيغ التى وصفت
 فيها مبادئه . ولعله يصاب بالقلق من أجل المبادئ
 عينها . ومن أصعب الأمور التعبير بالفاظ محدودة
 عن الخاصية التى أريد وصفها من غير مبالغة
 فيها أو تحريف لها . »

وإذا ما أنتقلنا من رافضى التحايل النفسى إلى مؤيديه ، طالعنا
 رأى العالم النفسى هولت ^(١) ، فقد كتب فى عام ١٩١٥ يقول أن
 ما قدمه فرويد يعتبر بداية عهد جديد من حيث أنه زود علم العقل
 بفصل على وقال أيضاً .

« لقد كان أول مفتاح ظفر به علم النفس . فكان

(١) E. B. Holt فى كتابه «الرغبة الفرويدية» The Freudian Wish - ١٩١٥
 (المؤلف)

مفتاحاً ملائماً له ، وأنى لأعتقد أنه المفتاح الوحيد الذى يحتاج اليه علم النفس . ومع أن أساتذة المدرسة القديمة الجالسين فى راحة وأسترخاء يمكنهم أن يطعنوا هاتين العبارتين بعنف ، فإنهم قد أصيبوا بشيء من الذهول من جراء عمل فرويد . وهم يعانون من خوف غير مريح لهم ، لأن فرويد قد صنع شيئاً . والواقع أنه أظهرهم أيضاً بمظهر غير الأكفاء الذين لا رجاء منهم ،

وبعد أن قال هولت هذه العبارات ، تدفق الكثير من النبع الفرويدى ؛ ولما سألته أن كان لا يزال محتفظاً برأيه ، كانت أجابته العامة بالتأكيد ، ولكنها كانت سلبية فى مسائل معينة .

فهو يستمسك برأيه فيما يخص الرغبة ، وجراع الرغبات ، وتدعيمها المتبادل ، وهذا فى رأيه هو روح المبادئ المقبولة فى الفرويدية ، ومن الجهة الأخرى ، فأنى قليل الاهتمام بالتحليل النفسى ، من حيث هو علاج ؛ وأعتقد أن مدركات اللبىد ، والإعلاء خاطئة ، ومضللة بالطريقة التى استخدمت بها فعلاً ، وحتم هولت رأيه بقوله : أن فرويد لا يستحق الحملات العنيفة التى وجهت اليه ، ولا ما أضفى عليه من تقديس وعبادة جنونية ،

وأنى لا ستمسك بهذا الرأى كنقد بنائى مبكر له أهميته ،
فقد رأى هولت ، حتى فى ذلك الوقت ، الحاجة إلى إعادة تفسير
فرويد ، وصور الجسر الذى يمكن بناؤه على الدعامات والأعمدة
الفرويدية .

وكانت مهمة الرغبة الفرويدية عند « هولت » ، تنشيط الغرض
أو المشروع لتحقيق برنامج من الأعمال سواء أكان لا يزال فى
العقل ، أو منفذاً فعلاً . وهو تمييز قليل الأهمية فى الواقع ؛ ورأى
« هولت » ، هام من الناحية العملية أو الاجتماعية ، وأن كان
لا يرقى إلى مجال تشكيل الموقف ، وكان من الجائز أن « تستبدل
رغبة هولت الفرويدية الاتجاه إلى عمل ما بالغرض أو المقصد —
سواء كان ذلك الاتجاه مجرد فكرة تختلج فى العقل أم عملاً ينفذ
فعلاً — وهو تمييز ليس بذى أهمية تذكر ، من حيث تشكيله لموقف
الإنسان وأن يكن هاماً من الوجهة العملية والاجتماعية . وكان
من الممكن أن تجمع بين الغرض ، والنية ، والميل ، والتحزب لها
أو عليها ، وكذا الرغبات ، وعوامل الجذب والطرْد ، والدوافع
الجنسية ؛ وسيان فى هذا إن كانت طاقتها المحركة تجرى فوق
سطح الشعور المتماوج أو تحته .

وهذا القصور جوهرى لسيكولوجية الصراع ، سواء أكان

مجرد نزاع منزلى أم مناقشة منطقية حادة فى مداولات هيئة الأمم .
 ولو سارت الفريديية فى نموها داخل نطاق الخطوط التى رسمها
 « هولت » ، لكان مستقبلها - وهو الآن ماضيا - شيئا آخر
 مختلفا كل الاختلاف عما هى عليه فى محتوياتها ونزعتها ؛
 وكان من الجائز أن يتسع مدرك الصراع ليشمل شتى العلاقات
 البشرية فى نواحيها المتعددة ، وفى اختلافها وانسجامها ، وفى كل
 ما تتحسس له أو تكترهه ؛ ولكان من الميسور عندئذ أن تندمج
 العوامل الفرويدية فى القوى المحركة فى اللا شعور ؛ ولكان القول
 « بالعودة إلى فكرة هولت » ، هو الصيحة الملائمة فى الوقت
 الحاضر ، ولكن هذا لم يقدر له أن يكون .

وعندما تحدث « هولت » ، عن موقف نوعى
 محدد ، فإنه اضطرب أن يسجل قوله « أن فرويد لم يثر
 ألينة هذه المسألة بمثل هذا الوضوح » ، وقال مرة
 ثانية « أعترف أن ما سأقوله أكثر مما قاله فرويد ؛
 وهو على أية حال ، وكما أعتقد ، الاستنتاج المباشر
 الذى لا مفر منه لما قاله » .

والواقع أن ما سجله هولت لا يقتصر على أنه « أكثر » ،
 بل هو مع الأسف شيء مختلف كل الاختلاف عما قاله فرويد
 منذ ذلك الوقت . ولا ريب أن ابتسار غيرى لموقفى والنظر إليه

من زاوية أخرى ليلقى منى ترحيبا خاصاً ، فإن « بوتنام » ،
 J.J. Putnam في دفاعه عن وجهة النظر الفرويدية ، أدلى بملاحظات
 كانتى أبديتها ، ولكن من الناحية العيادية . وأنتك لتجد في
 ملاحظاته عطفاً على الغرض السليم من إجراءات التحليل
 النفسى ومزاياه . أما رأى الدكتور « بوتنام » ، لو أنه عاش .
 وشاهد نمو الحركة . وتجاوزها لرسالتها العلاجية التى ظفرت
 بتأييده ، فمسألة تخمينية ؛ ولكنى أستنتج أنه كان يتخذ موقفه مع
 مرقف الفرويديين المحافظين .

وانتقل الآن إلى وجهات النظر النقدية كما ظهرت فى المانيا^(١) ،
 فهناك أثرت المسألة حول ما يمكن أن يبقى ويسود ، فقيل : —
 « أن المعلومات الحالية الجديدة المقررة ، ذات
 الاوجه المتعددة عن الحياة العقلية للانسان ، ومنها
 التحليل النفسى كطريقة وكنظرية ، هذه المعلومات
 تجد لها مكاناً مع سواها ؛ وكلها معلومات صحيحة
 نسبياً ؛ ولكن هل يبقى التحليل النفسى وحده بتعاليمه

(١) اقتبسها « فان تسلو » ، وسبق ذكرها . وهى رأى نشره بمناسبة
 زيارة فرويد وبنج لأمریکا
 (٢) Prinzhorn : Die Krisis in Der Psychoanalyse ١٩٢٩ (المؤلف)
 (م ١٥ — الأحلام)

التي تتناول جانباً واحداً ، وتمسك بوجهة نظر واحدة .
تجعلها شيئاً نهائياً مطلقاً ؟

وقد نعى كثيرون من المحللين على التحليل النفسى ضروب الإفراط التي تطرفت إلى نظرياته وممارسته ، وما جرت به من اهتمام شعبي بها ، واعتبروها « زوائد » شاذة لا تؤثر على ما فيه من لب الحقيقة الحيوى . ونعود مرة ثانية إلى اقتباس وجهة نظر ألمانية :
« إن القشور تحيط بالتعاليم وتغطيها . وهذه التعاليم تتخذ باستمرار مظهر علم من علوم الأسرار ، ولا سيما في المسألة الخاصة بتفسير الأحلام ؛ فإن ضروب الإفراط ، والمغالاة في الماضى والحاضر واسعة كل السعة حتى أنها لتجعل الإنتاج كله أمراً لا يمكن قبوله ؛ وهذا كله يقبع في المقدمة ، ويقرر ما يتركه في المرء من أثر ، ولكنه ليس بروح التحليل ولا جوهره .

ومن جهة أخرى يعترف « كراپلين » Kraepelin فيقول :
« ورغم كل ما بذلته من جهد ورغم ما توفر من حسن النية ، فإننى لم أستطع تتبع خطوط فكرة « ما وراء الطب النفسى » هذه ،
فهى تبدو كعقدة تكثف طريقة الملاحظة العيادية الرشيدة ،
ونلتقى أيضاً « بيلويلر » وهو من المؤيدين لكثير من تعاليم فرويد ،
ولكنه كثير الاعتراضات على بعضها ، ورفض كثيراً منها ، حتى

أن فرويد قال : « أنه ليدهشني أن أعرف ما نتق بعد ذلك من ولانه وتقديره » . وتحدث « ريجر » Rieger عن المشتقات الشديدة التطرف ، فقال : « كنت دائماً أعتبر هذا النوع هراء مخيفاً لا معنى له » . وردد بومكه^(١) أنه إذا بقي التحليل النفسي قائماً ، فإن « مظاهر منه حتى الآن كعلم سيختفي : ومن الطبيعي عندئذ أن عمل المتواضع كطبيب أمراض نفسية سينتهي » .

ويعد « ريفرز » كريماً في حكمه ؛ وله عدة تصحيحات للتعاليم الفرويدية . مما يعد إعادة صياغة لها ، وقد قال :

« وعلى أية حال ، فإن أتباع فرويد انغمروا في الجانب الفج من الحياة الجنسية ، حتى أن مؤلفاتهم يغلب عليها أن تكون إسهاماً في التصوير الداعر أكثر مما هي إسهام في علم الطب . وقد انهمك بعض أتباع فرويد في المسائل الجنسية إلى مدى بعيد ، حتى أن الميول والآراء الشهوانية صارت ترى في كل فكرة تطرأ لأي مريض يعنون بأمره سواء واثته الفكرة في نومه أو في يقظته » .

« والخطأ الذي يرتكبه الآن كثيرون ، هو

(١) Oswald Bumke: Die Psychoanalyse. Eine Kritik صدر هذا الكتاب

في عام ١٩٣٠ . وهو نقد حديث هام لطبيب أمراض نفسية معروف . وقد تناوله بالنقد الدكتور ساش Sachs في مجلة الصحة العقلية عام ١٩٣٢ (المؤلف) .

اعتبارهم هذا الماون من الإفراط كجزء ضرورى من
الخطا الفرويدية ، وأجدر بهم أن يعتبروه زائدة
منكودة الحظ : ولعل هذه الزائدة قد نشأت بسبب
البيئة الاجتماعية التى شهدت نشأة الفكرة .

وهى ليست فى نظرى سوى مجرد فرض وضع
كأى فرض آخر ليدفع إلى الفحص ، وليقدم لنا العون
فى عملنا عندما تتلصص طريقنا إلى الحقيقة بشأن طبيعة
الاضطرابات العقلية . فهل يجوز أن نرفض بازدراء
معوقة تقدم لنا لأنها فى بعض الأحيان تقودنا إلى
اكتشاف نواحي غير سارة فى الطبيعة البشرية ، ولأنها
قادمة من فينّا ؟

ومن أطباء النفس الأمريكين الذى كتبوا فى
الموضوع نفسه الدكتور «موس» Moss وهو يقول :
« لا يوجد شىء أشد فتكا بالتقدم فى المستقبل ،
وبالفهم العلمى الصحيح للاضطرابات العقلية ، من
التسليم العام بنظرية تفسر الأمراض العقلية بعبارات
غامضة عن أسباب نفسية عضوية نشأت من كبت
ذكريات التجارب الجنسية فى الطفولة » .

وكتب «ميرسون» Myerson يقول : « ومن
أغرب المسائل فى تاريخ العلم ، أن ترقى وتسود بعض

النظريات العلمية التي تسعى لاحتلال مكانها كاعتقاد
 حتمى يعوق حرية نمو المعرفة ، .
 ومن الآراء الهامة في نقد التحليل النفسى ما كتبه « ليرى » ،
 وهو محاولة منسقة لإنشائية، لادماج التحليل النفسى فى نطاق تفسير
 معقول يساير الأوضاع الطبيعية . وهو يقول :

« ظل التحليل النفسى ، ولا يزال ، فى حالة ميتوس
 منها من الارتباك بسبب سوء الفهم ، وقلة المعلومات ،
 والتحزب ، والمنافسة ؛ ويضاف إلى هذا . . . اهتمام
 شعبى ضخيم . . . مما أدى إلى زيادة حالة الارتباك » .
 « وكثير من منطق حركة التحليل إنما هو من
 الطراز الذى تسميه تعاليمه نفسها بالاجترارى ،
 أو الخيالى ، أو البدائى ، ومما قبل المنطق ، أو غير
 المنطقى ؛ ويعبر عنه بأوضاع الرغبات ، والارتباطات ،
 والمصادفة ، وضروب التمثيل ، والغرض ، والغاية ،
 بدلا من أن يعبر عنه وفقاً للحقائق ، والملاحظات

(١) Daniel Bell Leary: Modern Psychology: Normal and Abnormal.

« علم النفس الحديث : السوى والشاذ » وقد صدر فى عام ١٩٢٨ . وفيه وصل
 « ليرى » إلى كثير من الأحكام الشديدة الشبه بأحكامى ، ومن ذلك التنبؤات ،
 وعمليات التنقيح ، والتصحيح ؛ ولهذا فاني أسجل أن أحكامى تكونت بدون
 علم بآرائه . وإني أرحب وأزكى الفصل الذى كتبه عن التحليل النفسى (المؤلف)

والعلاقات المتبادلة ؛ والتجارب ، والتوافق مع
الاكتشافات الأخرى .

أما هولنجورث^(١) فيعرض المسألة بطريقة أبسط ، بأن يجعل
عنوان الفصل الذى قدم فيه التحليل النفسى « قصص فرويدية » .
وهو يطلق بطريقة عامة ، كاسحة ، على كل المحاولات التى ترمى إلى
إقامة التفسيرات على أسس افتراضية عبارة « التمثيل النفسى »
Psychoanalogue . « وهى فى بعض الأحيان تسمى بالدراسة
التحليلية النفسية ، وهى تسمية لا معنى لها » .

ويوافق « ليرى » على أن ألفاظ « الرقيب » و « التنفيس »
« وتفسير الأحلام » و « اللبىد » و « الإغلاء » و « اللا شعور »
إما أن تكون أشياء خيالية ، أو فروضاً غير منطقية ؛ ولكنها
جميعاً تحتوى على لب حقيقى يمكن أن ينتظم مع الحقائق الطبيعية
بل والسلوكية أيضاً .

(١) فى كتابه « علم نفس الشواذ : مدركاته ونظرياته » Abnormal
Psychology: Its Concepts and Theories : H .H. Holingworth. 1930

ويعد هذا الكتاب أهم عرض نقدى لكل مدركات المشكلات التى يشملها مضمار
الاهتمامات المتبادلة لعلم النفس والطب النفسى . وفيه يوضح « هولنجورث » بالتفصيل
كيف أن تعاليم فرويد كررت ما سبق أن قاله « هربرت » Herbert بما فى ذلك
الرسوم البيانية للقوى ، ولكن فى عبارات بيولوجية فعالة دينامية أو تبدو
شبه حقيقية أو انتحالية (المؤلف)

وقد عرض « هوانجورث » بطريقة مقنعة لموضوع مجافاة التفسيرات الفرويدية للمنطق مجافاة تامة حتى في نفس المقدمات التي بنيت عليها التفسيرات . وفي التفسيرات التي تقررت للظواهر نفسها والتي وضعها الفريديون أنفسهم . وبين هوانجورث في تحليله النقص البالغ في تفسيرات فرويد من بدء قصة التحليل النفسى إلى آخرها ، بما في ذلك أول حالة تحليل نفسى ؛ والمراحل المتسلسلة والعبارات التي حوتها الجعبة الفرويدية من « الفروض البسيطة » إلى « التعاليم المفرطة التي تنقسم بأوسع حرية غريبة يتخيلها المرء » . وهو يقول :

في وسعنا أن نستغنى عن « اللا شعور » ، وعقدة أوديب ، « والإسقاط » ، كما نفعل بالجنيات ، والشياطين وسانتا كلوز... « فالتثيل النفسى » كلمة مفسر في نظرية المحلل ، وليس في مادة الحالة . وهذا يتناقض كل التناقض مع الفروض ، ويمكن تفسيره في يسر بدونها... وكل هذه « التمثيلات الأدبية » خطيرة ، وقد يعدها السذج وصفاً لشيء يحتمل حدوثه حقاً . والتفسيرات المنطقية ذات المدركات البسيطة يحتمل أن تحتل مكاناً ما في التحليل النفسى وما يضم من روحانية وخفايا .

والتفاصيل خاطئة كذلك ؛ فمدرك تحويل الانفعال

مثلا إلى رعشة أو ساق متوترة يمثل صورة تحول
العناصر إلى شيء آخر ليس في طبيعتها. ولا يملك معه
أربع خبراء الراديو، وأكثرهم علما، إلا أن يذبح.
وهكذا فإن الحقائق العادية الشائعة عن الانفعالات
الممنوعة أعيدت صياغتها في مبدأ يحمل الاسم المنذر:
التناقض الوجداني.

« فمن الجائر أن يعجب طفل بجمال أمه ، ورقتها ،
ولكنه يحس نحوها بعدم الاحترام لجبنها وضعفها
الجثامي . ومن الجائر أيضا أن تكون فطائر الطباخة
شبيهة ، ولكن مزاجها « مكروه » . وفي مجال التطبيق
إذا جاز لفرويد أن يقول أن الهستيريا صورة
كارينكاتورية للابتكار الفني ، وأن القهر العصبي
كارينكاتور آخر للدين ، وأن البارانونيا صورة فجّة
لنظام فلسفي ، إن جاز هذا فتفسير فرويد للقهر
العصبي صورة فجّة لقصص « أيسوب » .

وقد كتب ليرى نبوءته المماثلة لما حاولت التنبؤ به
فقال : « أنها جديدة ، ولكن جذتها ليست بعيدة المدى
فيما يتعلق بما تنطوي عليه من الحقائق المنفصلة ؛ فهي
جديدة من وجهة النظر الدينامية المحركة ، والنشوءية » .

والموحدة . وفي نظرتها إلى سلوك الشخصية : فهي توجه الانتباه ، في هذا المجال الموحد لوجهات النظر . إلى تلك العوامل التي استخف الباحثون بأمرها عادة . أو لم يعرفوها ، أو أهملوها عن عمد . .

وعلى أية حال ، فلنكي نظفر بإعادة صياغة التحليل النفسى صياغة تكفل له أن يقف فى صف واحد مع المعلومات الأخرى التى عن الطبيعة البشرية ، فيجب أولاً ، أن نلخص تاريخ التحليل النفسى ونموه ، ثم نبدأ عملية تقدير الفروض المختلفة ، والنتائج الداخلة فى نطاقها بطريقة عادية ، على أن يتم هذا فى مجال النظر العامة التى نسعى لإيجادها . .

أما فيما يتصل بالنتائج العملية للحركة ، فإن خصماً عنيداً مثل « دنلاب » اعترف بأن « النتيجة النهائية للحركة الفرويدية يحتمل أن تكون مفيدة رغم أن التأثير العاجل سيكون خداع عدد كبير من الناس ، وتعطيل البحوث السيكولوجية مؤقتاً ؛ وكما أن علم الشفاء بالإيمان زاد فى سرعة تقدم الطب العلمى زيادة كبيرة ، فكذلك سيفعل التحليل النفسى ، إذ يضطر علم النفس إلى أن ينظم بيته ، ومن ثم يساعد على صقل علم النفس العلمى الذى يهدف التحليل إلى طرحه جانباً . .

وعبارة « تنظيم يبت علم النفس ، أكثر من عبارة لبقية ؛
فهي تدل على مهمة نشيطة ؛ فإن الغزو الفرويدي أكره الأنظار
على أن تتجه إلى المشكلات الحيوية للبواعث ، والشخصية ؛ تلك
المشكلات التي كانت بعيدة عن متناول أوجه الاهتمام التجريبية
المبكرة ؛ ومع ذلك فإن علم النفس كان يسير مستقلاً في طريقه
لاستكمال أهدافه . ومن الجائز أن فرويد حفزه ، وأثاره ، ودفعه
إلى الأمام ، أو رده إلى الخلف . وعلى أية حال فإنك لن تجد في كل
القصة الأكاديمية لعلم العقل سيرة أكثر إثارة من تلك التي اقترنت
باسم فرويد .

ولعل هذا الاقتباس المنتقى يكفي لتوضيح الاختلاف الحاد
في داخل صفوف علم النفس ، وما يتصل به من علوم ، وليبين
أيضاً ظهور المزاج الانتقادي في تقدير ما انطوت عليه المدركات
الفرويدية من صواب وعدوان مما يبدو لي كأنه يؤكد انتشار عدم
الثقة ، ويعزز الرفض ، ويشير إلى سرعة تدهور حركة التحليل
النفسي ، رغم ما لقيه من نجاح .

ولاني لأعرف حق المعرفة ، أن الفرويديين سيقروءون هذه
العبارة ، ويفسرونها كلها تفسيراً آخر ، رغم أنهم نادراً ما يتخلون
عن مهمتهم المفضلة ، وهي إضافة تفسيرات ضعيفة إلى فروض ،
ونظريات لم تختبر ، ولم تحقق بعد . فهم لا يتخلون عن هذه المهمة

المحبة منهم، إلا ليزاولوا أخرى تتساوى معها في الظفر بغرامهم، والإفراط في التأمل بغية نمو مجموعة مؤلفاتهم: ثم التحدث في ثقة، وإيمان، وإصدار التعليمات إلى غير المطلعين. وإذا ما نظرنا إليهم، وهم في أحسن أوضاعهم، رأيناهم يتجاهلون أمر الثاثرين عليهم، والمناوئين لهم؛ فإن ذكروهم هزوا أكتافهم بشكل لا ندري معناه؛ وأنه لمن واجبنا أن نذكرهم في حزم وتسامح — لا ننتظر منهم مثيله — بأن موقفهم ليس إلا موقف دفاع. وأن أزمة التحليل النفسي يمكن أن تواجه بموقف واحد، هو الاعتراف باحتياجات النقد الذين يعطفون عليهم، وتمييز مداها وقوتها؛ فإن التحليل النفسي يجب أن يسير في صفوف علم النفس وطب الأمراض النفسية. وإلا فإنه يغامر بابتعاده عن تيارات التقدم.

المستقبل

تتجمع علامات الزمان وتسجل حكمها علناً بحروف بارزة؛ وليس في وسع الحكم النهائي إلا أن يتأثر بحالات العدوان على النواحي الأساسية في علم النفس، وعلى قواعد المنطق، في مختلف مراحل البناء من أساسه إلى نهايته. وإذا ما فحصنا البيت الذي بناه فرويد على هذا الضوء، فإننا نجد مشيداً على الرمال، وبالأسمنت القابل للتفتت. ومن عملوا على رفع مستوى علم النفس،

من نظام غير ثابت إلى مكانة مضمونة بين العلوم ، يقولون إن
بيت الخيال ، والأساطير ، والأحلام ان يجد في المستقبل مكاناً
لنفسه في مملكة علم النفس .

ولو استقر هذا الحكم وساد ، لكان مصير محاولتي للتنبؤ
عن مصير الفرويدية ومستقبلها : هو لاشيء : كنبوات كثيرين ،
إذ أن التحليل النفسى سيعلمن طريقاً من القانون ودعياً ، مغتصباً ؛
وعندما يخبو السعير الذى أشعله ، فلن يكون لسيادته من أثر
في الأيام التالية . وإذا صح هذا القرار ، وصار نهائياً . لكانت
الفرويدية أروع الأوهام في عصر ساد العلم ، ولكانت سراباً
حديثاً بين مهن الإنسان الكثيرة التى تستشف الأشياء بوضوح .
وإني لأومن بأن النتيجة ستكون مخالفة لما قالوا . وأعتقد
أنه من الممكن انقاذ ما له قيمة في هذا البحث الواسع ، الشامل
للإنسان ، وأعماله من زاوية جديدة . وفي كل الحركات الذهنية
المماثلة في الماضي ، لأجد حركة واحدة تضارع الحركة الفرويدية :
فعلم الفراسة خبا ، واندثر بعد لمعة خاطفة . والواقع أنه لم يعش
البتة ؛ فلا مجال لمثله في عالم طبع عقله بالطابع العلمى . ولم يبق من
أثره « للمغناطيسية الحيوانية » ، سواء في التنويم المغناطيسى ، أو في
الإيحاء ، أو في التفكك . وهذا يصدق أيضاً على مسألة علاج الداء
بمسبباته التى اندثر كل أثر لها من الطب الحديث .

ومثل هذه الحركات ليست مجرد وسائل تؤدي إلى غيرها . بل هي منعرجات تافهة تنحرف بنا عن الطريق السوى . والتاريخ حافل بمثلها ، ومسار الانسان في الإدارة ، وفي المعرفة لا يلتزم طريقاً مستقيماً ، بل أن طريق النجاح كثير الانحرافات ، والتعرجات ، والاضطرابات . وأعترف بأن ما أتوقعه ليس له من مثيل سابق ، ولكن مكانة الفرويدية فريدة أيضاً من عدة أوجه ، وعلى ذلك ، فاعتقادي أن مصيرها سيكون فريداً كذلك .

وفي تحليلي للفرويدية ، ظهر أنها تحمل علامات تقدم أصيل . وبصيرة صادقة . وهي تبدو لي فكرة عظيمة تحولت إلى وهم ضخيم نشأ عن طريق اختلاف الصفات والمواهب للعقل الذي تولى القيادة في ابتكار المشروع . ولقد أحسست بهذه الأهمية الكامنة في لب التحليل النفسى ومجراه ، فقلت من ١٥ سنة إنه اكتشاف عظيم توصل إليه غير من كان يجب أن يكتشفه .

ويصلح الأساس الذى أقمت عليه هذه النتيجة تطبيقاً هاماً لاكتشاف سيكولوجى ، هو عدم المساواة فى نمو قوى العقل الابتكارية ، وقواه النقدية الفاحصة . وهى حالة تتفق مع عمليات توزيع الكفايات الخاصة الممتازة التى صارت حاسمة فى عصر اتسم بالتخصص . ان العقول الجبارة قادرة ، ولاشك ، على أداء الكثير

في عدة مجالات ؛ وليكن هذه القدرة مقصورة على فئة قليلة .
ولو أجرينا عملية تبادل في المهن بين المبتكرين والنقاد ،
لكانت النتيجة كارثة تحل بالمسائل الذهنية ، لأن كلا من الفريقين
سيعجز كل العجز عندما يحاول أن يؤدي عمل الفريق الآخر ؛
ومع ذلك فكل من الفريقين بحاجة إلى مواهب ممتازة . وهذا قول
حق معترف به على وجه التحديد . أما في عقلية فرويد فإن عدم
التكافؤ في نمو الملكتين المطلوبتين ، يصل إلى أقصى مداه .
ويقودني هذا إلى نتيجة غريبة ، وهي أن « التحليل النفسي »
نشأ بتدبير غير هين من الكروموزومات^(١) والتقاليد الذهنية
لنموسى لامع ؛ فجعله ذا قدرة ابتكارية بالغة ، كما جرده من الملكية
الانتقادية كل التجريد . ويخلق شبح الكوارث عندما يتولى عقل
ابتكاري فقط مهمة تحتاج إلى بصيرة ابتداعية نافذة لتدرك أسرار
هذه المهمة ، ولتضع لها ما ينبغى من خطط ، فإن هذه المهمة في تنفيذها
تحتاج أيضاً إلى قدرة مماثلة على النقد والفحص الدقيقين ، ولعله بما
يساعدنا على تقدير الموقف أن نتخيل حالة مماثلة ؛ فنتصور ما كانت
تؤول إليه نظرية التطور مثلاً ، لو أن عقلية داروين الابتكارية

(١) Chromosomes «الكروموزومات» : جسيمات تشترك في عملية انقسام
الخلية المنفحة . ويقال أنها تحمل الوراثة Genes التي بها السمات الوراثية (الترجم)

كانت جريئة في تأملاتها ، وشديدة الضعف في النقد ، ودقة الفحص .

وأيا كان مصدر الاختلاف ، فإن تأثيره بشأن قبول آراء فرويد كان بارزاً ؛ فالعقل هو العقل بكل ما يحوى من متناقضات كما أن الانسان هو الانسان بكل ما به من اختلافات . وقد تثبت الأيام خطأ ما أتوقع — من انقاذ القيم الجوهرية التي في التحليل النفسى ، وإصلاح ما فى مدركاته من أخطاء — لغير السبب الذى ذكرته ؛ وهو أن خطط فرويد ستدرج فى زوايا النسيان . فمن الجائز أن ننقد القيم لسبب مضاد : وهو الترحيب بالمشروع من أجل قيمته الذاتية فنغتفر له أخطائه وننساها .

وهذا هو رأى « ستيفان زفايج »^(١) . وقد رسم لفرويد صورة قلبية تعرب عن تقدير طيب من صديق معجب . وهو يعد ظهور فرويد تحقيقاً لنبوءة ، فيردد عبارة « شيلر » التى لا تنطوى على إشارة محدودة حين قال « لو ظهر فى العالم لينايوس^(٢) جديد

(١) Stefan Zweig فى كتابه « معالجو العقل » Mental Healer الذى صدر فى عام ١٩٣٢ . وهو نظرة تقدير كبيرة لفرويد فى شخصه وأعماله . (المؤلف)
 (٢) Linnaeus كارل فون اينايوس عالم سويدي عاش من سنة ١٧٠٧ إلى ١٧٧٨ ، واشتهر بتصنيفه لأنواع النبات وتبويبها وفقاً لأعضائها التناسلية . وقد كان لعمله فى هذا المجال أهمية كبيرة فى دراسة النبات (المترجم) .

ليصنف الدوافع والميول ، فإنه سيقدم للبشرية مفاجأة ضخمة ، .
 أو قول « نيتشه » الذى لا يقل غموضاً : « كل ما هو عميق يغشاه
 الغموض » . ويشق زفايج من أن النهضة الى استحدثها فرويد
 ستكون محل التقدير والاعتبار فى شتى العصور ؛ « فإن اكتشافات
 فرويد عن القوى المحركة للعقل ، واستنباطه لطريقة جديدة فى
 الفحص ، وتمييزه للاشعور ، كلها من عمل عبقرية فذة » . وهذا
 فى رأى « زفايج » يؤكد مستقبل فرويد . فإن صح هذا « فما قيمة
 التفاصيل بعدئذ ؟ » .

أما أنا فأرى أن التفاصيل كبيرة القيمة ، وقد كانت هامة للغاية
 « لداروين » ، حتى أنها شغلته طول حياته . فهى أثر من آثار السعى
 وراء فكرة جبارة من حيث الفحص والنقد . ونؤثر فى هذا المجال
 أن نعرض خلاصة ما قاله الكاتب « ولز » ، وما كتبه « هكسلى
 وولز » ، إذ قال « إن اسم سيجموند فرويد هام فى تاريخ الفكر
 البشرى أهمية اسم كشارلس داروين » ؛ ولكنهما أدركا أن مجال
 إسهامه يجب أن يتجه إلى ناحية أخرى لأسباب يعتبر كتابى هذا
 تعبيراً عنها .

ويقول مؤلفو كتاب « علم الحياة » : يجب أن
 لا يفهم نقدنا على أنه من قبيل التقليل من أعمال
 الفرويديين أو الخط من شأن فرويد ... ، وتنبأوا

بقولهم : إننا نتوقع واثقين ، أنه بعد مرور ربع قرن من الزمان ستضم المنازعات بين أنصار فرويد ويونج وآدلر وغيرهم من أصحاب المذاهب النفسية إلى سجلات التاريخ العلمى ... فإن كل فريق يسهم بنصيبه للوصول إلى حقيقة . أما الباحثون النفسيون الأقل تحزباً فإنهم يقتبسون من كل من الباحثين المختلفي المشارب في مجال الدراسات النفسية . للوصول إلى إقامة نظرية أكثر ثباتاً واستقراراً .

وأيا كان الحكم الصادر بعدئذ . فالاهتمام السائد يتجه إلى إنقاذ القيم الفرويدية لترشدنا في تفكيرنا ، وفي ممارستنا لمهنتنا ، وفي محاولتنا تتبع فرويد باستمرار ، ودراسته في مجموعه . يسرنا أن نسجل أن ما رفع فرويد إلى مصاف أساطين علم النفس في شتى العصور ، هو أدراكه لمجموع النشاط النفسى البشرى ، ونظمه في مجال موحد من البواعث النفسية .

وكان من الجائز أن تصير هذه النظرة الدينامية الفعالة من المسائل الشائعة المتداولة بين الناس شيوعاً ، الرغبة الفرويدية ، : فرغم أن الدراسات الحديثة تنطوى على هذا التصور ، فإننا في حاجة إلى لفظ شامل يمتد مداه من الدافع إلى الخطة المنطقية المقبولة . ومبعث توجيه الاهتمام البالغ إلى الدافع — على ما به من

غموض — هو أن مابه من توكيد بارز ، يعد مكملا للاهتمام القديم بمسألة التفكير . وتوجيه الاهتمام إلى الدافع يحمل بين طياته أسبقية كل ما هو بدائى ، وغريزى ، وقديم ، وعاطفى ، ومبكر الظهور ؛ والشعور به فج ناقص . ويلتقى هذا الاهتمام الخاص عند الدوافع اللبديّة — ومركزه هو اللبّد الجنسى — فى الجانب الانفعالى على اللاشعور ، فى كل أوجه نشاطه الذهنى .

وكما يجب علينا أن نسجل فى الصورة الفرويدية محاسنها الجذابة ، فإن الواجب يقضينا أيضا أن نسجل الاتجاهات والاضاع المشتركة المسئولية فى أخطاء النظام كله ، كالحطأ فى فهم اللبّد ، والتطرف فى صبغه بالصبغة الجنسية ، وأنواع سوء فهم أوجه نشاط اللاشعور ، والزج بعلاقات نشوئية موجهة توجيهها خاطئا ، ثم الاخفاق فى تتبع الاتجاهات البيولوجية . وهكذا تظهر سيكولوجية الدوافع الفرويدية ، ولها نظرة أصيلة شاملة تضيء السبيل ، وتلقى بضوئها على الإنسان ، فتعرض النفس البشرية فى جملتها كاملة من جديد ، دينامية حيوية ، لها دلالتها وأهميتها .

وهذه السيكولوجية تكمل عملية الإنهماك فى تفصيلات الناحية الذهنية ، وتصحح قيود الدراسات السلوكية التى تعد منبهة وموقظة . وفى الوظائف الأقل شانا يسود العامل المنبه ، ويقترح

الاتجاهات : على حين أن الكائن نفسه هو الذى يتصرف . أما فى الوظائف العليا ، فإن زيادة تعقيدات « الرغبة » الدافعة هى التى تقرر السلوك الذى يجب أتباعه . وتظهر سيكولوجية الأهداف فى دلالات الرغبة .

وتنظم وجهة النظر الفرويدية كل أنواع السلوك فى وظائف أولية ، وأخرى ثانوية ؛ فترى فى صراعها مصدر عدم الانسجام سواء أكان قاسيا أم خفيفا ؛ كما ترى فى اتفاقها مفتاحا ودليلا يرشد إلى العلاج وإلى فن ضبط النفس . وهذه النظرة تتفق مع اتجاه علم نفس تكاملى ينشأ من اندماج نظامى الوظائف الذى يظهر بوضوح فى مبدأى اللذة والواقع .

وتوجه النظرة الفرويدية أنوار هذا الضوء الموحد الكاشفة إلى منتجات النفس البشرية فى ماضيها وحاضرها ، وإلى الأعمال العرضية والهامة ، فى اللعب والعمل ؛ فهى ترى فى الشخصية البشرية فى مجموعها — وفى المسرى العام الشامل للأعمال الإنسانية — تجسيدا وتكبيرا للتصرف الأساسى لهذه القوى فى الصراع وفى الأعلام ؛ فهى تقدم لنا مرشدا يدلنا على أشياء كثيرة كانت تظهر عديمة المعنى ، وتعيد بناء تقديرنا فيما نعتبره هاما ، وتفتح لنا باب الأمل فى إدارة أكثر صراحة ، وتحورا ، وحكمة مما ألفنا .

هذا هو البيت الدائم الذى بناه فرويد . ومع ذلك فانه عندما وضع خطط مشروع بنائه ، سحب منه الدعامات التى تسنده .

« يظهر لى أن النمو الحالى للجنس البشرى لا يحتاج إلى أى تفسير يغاير ما ينطبق على الحيوان . فإن ما يظهر فى أقلية من الأفراد كحافز قلق لمزيد من الكمال ، يمكن فهمه كنتيجة لغرائز فاشلة بنى عليها أسمى ما فى الثقافة البشرية من قيم » .

ومفاد هذا بالضبط ، هو أن العوامل التى زودت الأوضاع الفرويدية ، وجعلت لها أهمية ، قد هبطت فى منابها : ومن ثم تبرأت من الأعلام نفسه ، وهو العامل الذى يدير الثقافة : وصارت فلسفة فرويد التى أقامها على دراسته الرائعة شيئا ميثوسا منه ؛ وهو القائل « أن لب وجودنا يتكون من رغبات لا سبيل إلى تحقيقها ، ومع ذلك لا يمكننا وقفها أو التخلص منها » . وخضوعنا الشديد للدوافع . ولا سيما الجنسية منها ، هو العقبة التى تعترض سييلنا ، فإذا أنكرنا ذلك أصبنا بالأمراض ؛ وإذا ما تجنبناه حلقنا فى عالم الأوهام .

وفلسفة أى أنسان ليست إلا نظريته الخاصة إلى الحياة من تحت محنها وآمالها . ولعل « فرويد المستقبل » يبنى فلسفة إعلام

على مثل هذا الاساس نفسه ، ويضع برنامجا لاطلاق العواطف المكبوتة عن طريق ايمان أقوى بالاهداف . وتكامل الدوافع النفسية . ولقد تغلغل التحليل النفسى حتى صار مفتاح المزاج الحديث . ومرشدا للفلسفة . وتأثير فرويد يمتد إلى مدى بعيد ويصل إلى حدود الفكر السائد .

ولقد تورطت الحركة الفرويدية في موقفها الحاضر لعدم تعاونها مع غيرها ، وبسبب عزلتها ، وتجاهلها لغيرها من العاملين في حقول علم النفس ؛ ولهذا ظهرت العراقيل في طريق الاعتراف بأفضل ما قدمه التحليل النفسى من آراء ودراسات . وهذا الموقف يجعل إجراء عملية انقاذ وترميم أمرا لا بد منه ؛ ولا يجوز أن تقتصر العملية على تصحيحات الفرويديين المحدثين ، بل تمتد إلى حركة جديدة لما « بعد الفرويدية » ، وفيها نحتاج إلى تفسيرات حديثة . ومن الجائز في هذا السبيل أن ننتظر ظهور عقلية جبارة كعقلية فرويد ، ولكن هذه العقلية يجب أن تكون من طراز آخر حتى يتيسر لها إنجاز مهمتها .

وتغرى الطريقة الفرويدية ومزاجها بتفسير الأمور تفسيراً تحكيمياً مغرضاً ، ولهذا السبب فإن إصلاحها قد يتحقق بالتزام الحذر ، وببصيرة محايدة لا تعرف التحزب . ولسوء الحظ فإنك

نادراً ما تعثر على هذين العاملين في سجلات الحركة الفرويدية المبالة إلى النزاع والخصام . ومن المتعذر في هذه الأيام على أية حركة مثلها أن تبدأ في أداء رسالتها بتجاهل النتائج المقننة الراسخة التي وصل إليها الباحثون التقدميون في طب الأمراض النفسية وعلم النفس . وأقاموها على دراسات الخبرة العيادية في دراسة أقل تحزباً وأكثر خلواً من الهوى .

وكان علماء النفس وأطباؤها مستعدين للسير وفقاً لما يجب أن نسميه الآن بالخطوط الفرويدية ، ووجدوا فيها ما نبههم وأيقظهم مما سيظل معروفاً في تاريخ الحقائق باسم النهضة الفرويدية . ويتوقف مستقبل فرويد على احتضان أطباء الأمراض النفسية والسيكولوجيين المسؤولين للآراء الهامة التي تعد من مفاتيح المواقف ، وذلك بعد تجريدتها من التضمينات المبالغ فيها ، والتأملات والأوهام التي جعلتها غامضة ومنكرة . والواقع أن الوصول إلى تعاليم فرويدية سليمة مأمونة ، ليس فقط من الأمور الممكنة الحدوث ، بل أنه أمر حتمي .

وقد تخلى المزاج الفرويدي عن أحد المبادئ الهامة من تعاليمه . وهو الإعلاء ، القائل بأن التوجيه الحكيم للدوافع الفطرية وإصلاحها يتألف من توجيهها إلى أعمال نافعة إنشائية ، كما يتألف من تهذيبها وصقلها . ومعنى هذا من الناحية الفسيولوجية : هو

تفريغ طاقة عضوية وضبعة في منافذ سيكولوجية سامية أجيد تنظيمها . ومن الشروط التي يجب توافرها في الطبيب النفسي أكثر من أى ممارس لاية مهنة طبية أخرى أن يكون إنسانياً . والمبادئ الإنسانية والمبادئ السحرية لا يتلاءمان .

ويبين تاريخ علم النفس بوضوح تام أن التخمينات المغرضة كانت تحمل أكفانها معها ، وأن الباحثين النفسانيين أقاموا معبودهم في محراب العلم ، وتصوروه على صورتهم ومثالمهم . ومهما كان النقص والقصور في بصيرة الإنسان ، فليس في وسعه إلا أن يرى نفسه في وضعه الصحيح ، ويراه في مجموعها . وما نعرفه عن النفس البشرية ليس إلا شيئاً أبت ، فنحس بالدافع الملح لإعادتها إلى ما كانت عليه من الكمال البشرى .

ومهما كانت أطماع المحاولة الفرويدية ، ومدى نقصها وبعدها عن المنطق ، فإنها كانت تعبر عن دافع يبغي كمال الفهم مما يرجع عهد التفكير فيه إلى أولى الفترات العظيمة لليقظة الذهنية ، وإلى القول المأثور : « أيها الإنسان اعرف نفسك ا » . وشتان بين الأكاديميات التي كانت قائمة في أحراش أثينا القديمة ، وبين عيادات التحليل النفسي في فينا . وإنا لنتساءل عن مدى ما قدمه المزاج الفرويدي من تنظيم وترتيب للعالم البشرى ، ومدى ما عمله لزيادة القيم البشرية وتوضيحها ، أو لتحريفها وتشويهها . . . كل هذه أسئلة ذات أهمية كبيرة للأجيال القادمة .

وإذا ما واجه مؤرخ علم النفس في المستقبل ، نظريات

الفرويدية وتطبيقاتها ، فإنه قد يعتبر الجانب الأكبر من جملة التحليل النفسى فى الوقت الحاضر من أغرب أنواع الشذوذ والشروء الخيالية التى ظهرت فى مطلع القرن العشرين ، فإن كان متسامحاً ، فيحتمل أن يجد فى الحركة ذاتها لحظة ممتازة حقاً فى محاولة فهم ذلك اللغز المقيم الدائم : لغز النفس البشرية .

أما عن رأى فرويد نفسه فى بنائه ، فقد ضمنه العبارة التالية ، وهى الختام المتواضع لكتابه عن تاريخ حياته ، إذ قال :

« وإذا ما تلفت ورائى ، وألقيت نظرة على عملى المرقع الذى أمضيت فيه حياتى ، فإنى أستطيع أن أقول إنى بدأت عدة مرات ، ونبذت كثيراً من الآراء . وسيؤدى عملى هذا إلى شىء فى المستقبل ، ولكنى لا أستطيع أن أقول إن كان هذا الشىء سيكون كبيراً أم صغيراً . »

أما عبارة فرويد التى أضفت على أكبر قدر من الغبطة ، فقد احتفظت بها لتكون مسك الختام وهى قوله :

« ولعل بعضهم يسألنى عن مدى اقتناعى بصحة الفروض التى قدمتها هنا ، وجوابى على هذا إنى أنا نفسى غير مقتنع بها ، ولا أطلب من الآخرين أن يؤمنوا بها . وبعبارة أفضل فإنى لا أعرف مدى إيمانى بها . »

[تم]

فهرس

صفحة	
٥	مقدمة المؤلف
٧	الباب السادس — التحليل النفسى والعلم
٧	المنطق كرقيب
١٣	الإنسان الفرويدى
١٩	فرويد وعلم النفس المعاصر
٢٥	اللا شعور
٢٥	دراسة طبيعية
٣٠	أسس بيولوجية
٣٦	التفكك والكبت
٤٤	نقد الشعور
٥٥	اللبيد والاعلاء
٥٩	الباب السابع — الحجة الفرويدية
٦٢	استدلال بالعوارض
٧٠	حدود الحتمية
٧٤	حجة الأحلام
٧٤	الأحلام وتفسيرها
٨٠	تقديس رموز الأحلام

صفحة	
٩٠	النمو النفسى الجنسى
٩٠	الجنس فى علم النفس
٩٤	الجنس والطفولة
١٠١	تقعدة أوديب
١١٩	الشخصية ذات الصبغة الجنسية
١٤٣	الباب الثامن — طرق التحليل النفسى
١٤٣	المذهب الاسنادى
١٤٩	العصاب
١٦٤	التحويل
١٧٧	التحليل
١٨٥	حالة فرويد
١٩٥	الباب التاسع — مستقبل فرويد
١٩٥	المزاج
٢٢٣	أحكام

مجموعة الألف كتاب ألوانها وأرقامها

لـ لكل كتاب رقمان : الأول . الرقم العام ويدل على رقم الكتاب فى السلسلة وهو مكتوب على الصفائف الأولى وعلى كعب الكتاب ، بين اسم الكتاب واسم المؤلف .
والثانى . الرقم الخاص ويدل على رقم الكتاب من حيث الموضوع وهو مكتوب على الغلاف عند أسفل الكعب .

صدر من كتب العلوم الإنسانية في مجموعة الألف كتاب

[اجتماع ، اقتصاد ، تربية ، علم نفس ، تاريخ و تراجم ، جغرافيا رحلات ،
دين . سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة]

عنوان الكتاب	المؤلف	الناشر	الثن
١ - حضارة الإسلام	جوستاف جرونباوم	مكتبة مصر	٤٠
٢ - اتجاهات الفلسفة المعاصرة	أميل برهيه	دار الكشف	١٢
٣ - البوايس والكشف عن الجريمة اليوم	ريجنالد موريش	مكتبة النهضة المصرية	٢٢
٤ - سكتلنديارد	سير هارولد سكوت	مكتبة النهضة المصرية	٢٢
٥ - فلسفة الخير	لويس ديكنسن	الأنجلو	١٨
٦ - حركات الشباب الاجتماعية	الصاغ الدكتور محمد فتحي	الشرق	١٥
٧ - بيلاد ما بين النهرين	ل . ديلا بورت	الآداب	٤٠
٨ - بسمارك	أميل لدفيج	دار الهلال	٥٠
٩ - آثار حضارة القراعنة	الأستاذ محرم كال	د د د	١٤
١٠ - الحياة الناجحة	اوستاس تشسر	نهضة مصر	١٥
١١ - كيف تقرأ الجريدة	ادجار ديل	مطابع الشعب	١٧

عنوان الكتاب	المؤلف	الناشر	العدد
١٢ — الحياة اليومية في مصر القديمة	الن شورتر	مكتبة الانجلو	١٣
١٣ — الديانات في أفريقيا السوداء	هـ . ديشان	دار الكتاب المصري	١٤
١٤ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة جزء ١	ارنولد جنزل	لجنة التأليف والترجمة	٣٢
١٥ — علم نفسك الاقتصاد	إيفلين توماس	لجنة التأليف والترجمة	١٧
١٦ — تاريخ العالم من ١٩٥٠-١٩١٤	دافيد تومسون	مكتبة النهضة	٢٢
١٧ — نحو مجتمع أفضل	برتراند رسل	مكتبة العالمية	١٧
١٨ — الأحلام والجنس (جزء ١)	فرويد	دار الكتاب المصري	١٥
١٩ — تاريخ طابع البريد	يوجان فاييه	مكتبة الانجلو	١٢
٢٠ — صحوة أفريقيا	نازيل دافيدس	د	٢٧
٢١ — الانقلاب الصناعي	ت . س . اشتن	د نهضة مصر	٢٣
٢٢ — مدخل إلى علم الآثار	السير ليونارد وولي	د سعد مصر	١٤
٢٣ — الجغرافيا والسيادة العالمية	جيمس فير جريف	د النهضة	٢٩

مجموعة مشروع الألف كتاب

تصدر بإشراف إدارة الثقافة العامة

بوزارة التربية والتعليم

الكتب التي تولت « دار الكتاب المصري » نشرها :

اسم الكتاب	تأليف	قرش
الفيروس والإنسان	دكتور ف . م . برنت	١٨
استخدام الطاقة الذرية	أوتوهان	
أساطير من الأمم المتحدة	فرانسيس فروست	٢٠
الديانات في إفريقيا السوداء	ه . ديشان	١٤
الاحلام والجنس (الجزء الأول)	چوزيف جاسترو	١٤

مطابع
دار الكتاب المصري
٨٣ شارع النصر العتيق بنجرمة ٤٦٥١١

أهداف هذه المجموعة

تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارئ العربي فيها كل ما هو بحاجة اليه من المعلومات في شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارئ العادي ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسطة بقاية الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل اليه العلم في تلك الموضوعات .

نشر هذه المكتبة في اوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك أكبر عدد من الناشرين في نشرها .

النهوض بالكتاب العربي من حيث الشكل والموضوع .

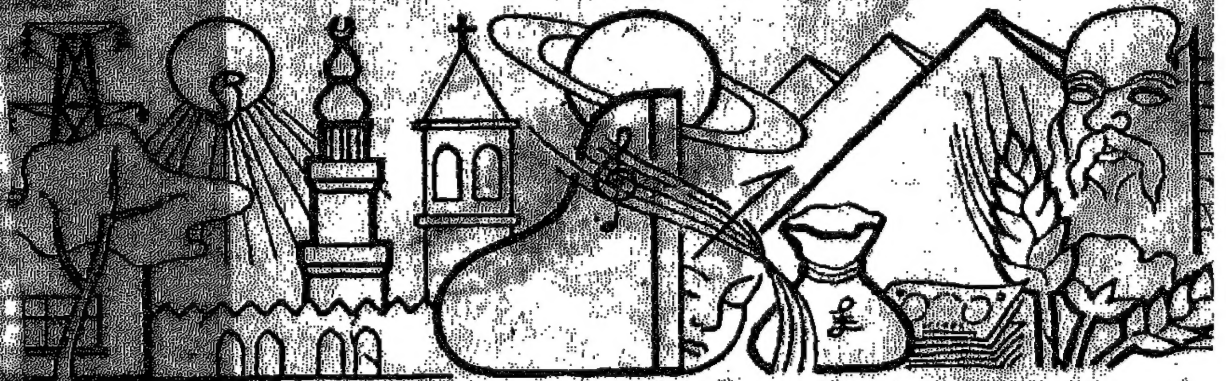
تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .

الإفادة بصورة عملية من جهود العلماء والأدباء في شتى الأمم ، باناحة الفرصة أمام القارئ العربي للاطلاع الواسع على ما عندهم .

افساح المجال أمام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة ايجابية في النهضة العلمية والأدبية .

تشجيع الناشرين في مصر والدول الشقيقة على الإقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .

تجديد النشاط الفكري في العالم العربي عن طريق الكتب القيمة التي تحمل اليه العلم والمعرفة .



To: www.al-mostafa.com